جيمي كارتر

قيمنا المعرضة للخطر

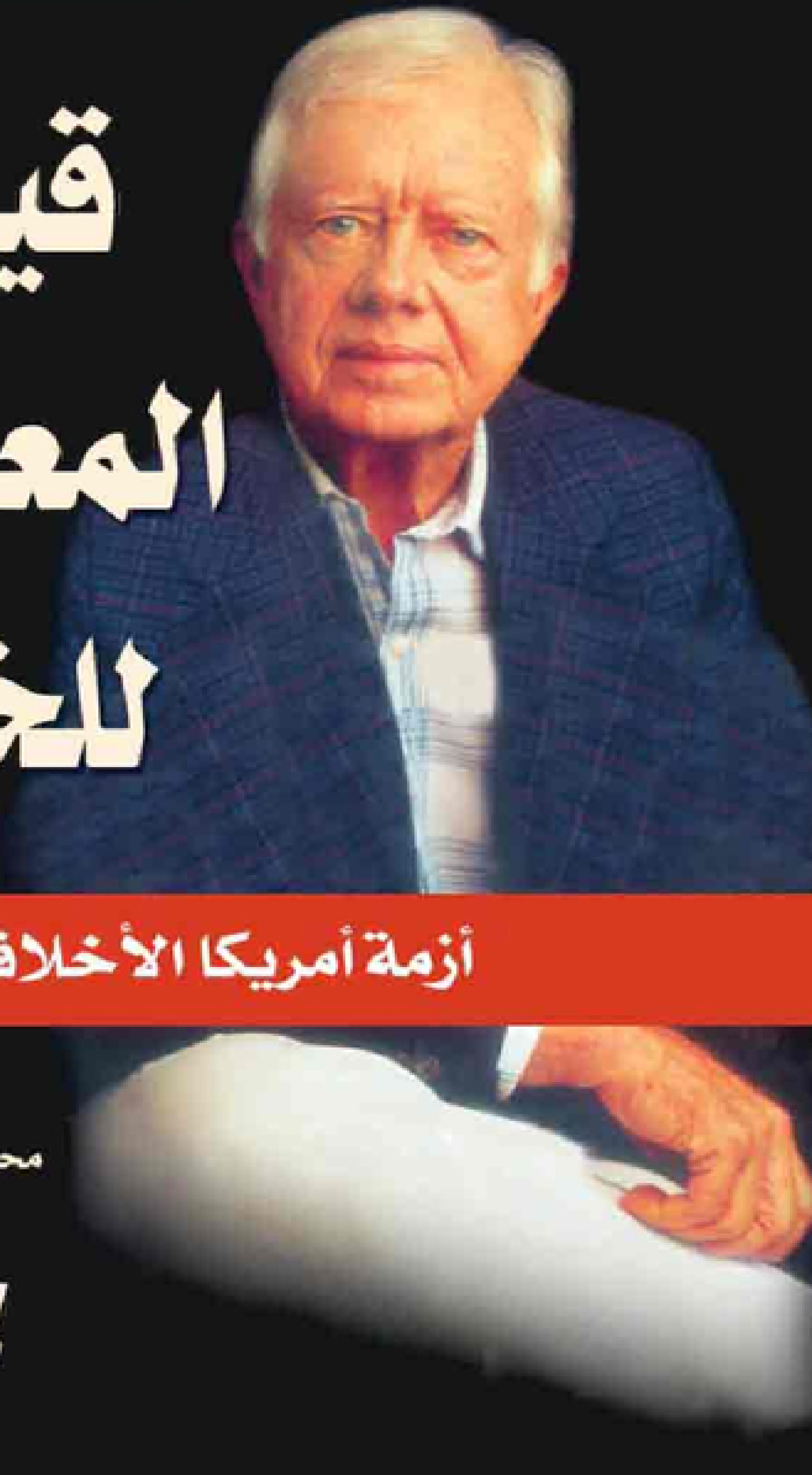

أزمة أمريكا الأخلاقية

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

العبيكان
Obeikan

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

قيمنا

المعرضة للخطر

أزمة أمريكا الأخلاقية

قيمنا
المعرضة للخطر

أزمة أمريكا الأخلاقية

جيمي كارتر

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

العبيكان
Obeikan

Original Title:

OUR ENDANGERED VALUES

America's Moral Crisis

By: JIMMY CARTER

Copyright © 2005 by Jimmy Carter

ISBN 13: 978 - 0 -7432 - 8457 - 8

ISBN 10: 987 - 0 -7432 - 8457 - 7

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by: SIMON & SCHUSTER Inc. (U.S.A)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع شركة سايمون آند شستر ، الولايات المتحدة

© العبيكان 1428هـ ـ 2007م

ISBN 4 - 290 - 54 - 9960

الطبعة العربية الأولى 1428هـ ـ 2007م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: ٢٩٣٧٥٧٤/ ٢٩٣٧٥٨١، فاكس: ٢٩٣٧٥٨٨ ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1428هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كارتر، جيمي

قيمنا المعرضة للخطر./ جيمي كارتر؛ محمد محمود التوبة. - الرياض 1428هـ

224 ص؛ 16.5× 24 سم

ردمك: 4- 290 - 54 - 9960

١- الولايات المتحدة - الأحوال الاجتماعية ٢- الولايات المتحدة - الأحوال السياسية

أ. التوبة، محمد محمود (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 309.173 1428 / 2986

ردمك: 4 - 290 - 54 - 9960 رقم الإيداع: 2986 / 1428

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/ ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب اخرى بقلم جيمي كارتر

المشاركة في الأزمنة الطيبة

عش الزنابير

محاضرة جائزة نوبل للسلام

عيد الميلاد في بلينز (موضح بالرسوم من أمي كارتر)

ساعة قبل نور النهار

فضائل الشيخوخة

مصادر القوة: تأملات في الكتاب المقدس من أجل إيمان حي

إيمان حي

الطفل الصغير سنوغل ؟فليجر (موضح بالرسوم من أمي كارتر)

حساب دوماً وقصائد اخرى

التحدث بالسلام: رؤية من أجل الجيل القادم

نقطة تحول: مرشح، ودولة، وامة تبلغ سن الرشد

يوميات في احضان الطبيعة: مغامرات وتأملات

كل شيء لتربح: الاستفادة من بقية حياتك غاية ما تستفيد

(مع روزالين كارتر)

دم إبراهيم: نظرات متفرسة في الشرق الأوسط

التفاوض: البديل للعداوة

المحافظة على الإيمان: مذكرات رئيس

الحكومة مثل شعبها

لماذا ليس الأفضل؟

إهداء إلى

أطفالنا وأحفادنا

الذين من أجلهم

يجب أن نصون قيم أمريكا الأخلاقية

الأساسية

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	13
1. معتقدات أمريكا المشتركة -والاختلافات القوية	19
2. إيماني المسيحي التقليدي	29
3. صعود الأصولية الدينية	43
4. النزاعات المتنامية بين المتدينين	49
5. لا تعارض بين العلم والدين	61
6. تداخل الكنيسة والدولة	67
7. خطايا الطلاق واللواط	79
8. هل يوافق المسيح (عليه السلام) على الإجهاضات وحكم الإعدام؟	85
9. هل يجب على النساء أن يكن خاضعات؟	101
10. الأصولية في الحكومة	109
11. تشويه سياستنا الخارجية	117
12. مهاجمة الإرهاب، لا حقوق الإنسان	131
13. حماية ترساناتنا، ولكن ترويج الانتشار	149
14. اعبادة أمير السلام، أم الحرب الاستباقية؟	161
15. أين التهديدات الكبيرة للبيئة؟	179
16. اكبر تحد للعالم في الألفية الجديدة	193
17. خاتمة: ما القوة الكبرى؟	213
شكـر	217

مقدمة

يعتز الأمريكيون بعظمة وطنهم، ولكن الكثيرين منهم لا يدركون مدى اتساع ومدى عمق التحولات التي تحدث الآن في القيم الأخلاقية الأساسية لأمتنا، وفي خطابها العام، وفي فلسفتها السياسية.

لقد كان شعبنا فخوراً فخراً له ما يبرره وهو يرى قوة أمريكا وتأثيرها يُستخدمان من أجل صون السلام لأنفسنا وللآخرين، ومن أجل تعزيز العدالة الاقتصادية والاجتماعية، ومن أجل رفع راية الحرية وحقوق الإنسان عالياً، ومن أجل حماية نوعية بيئتنا، ومن أجل تخفيف المعاناة الإنسانية، ومن أجل تعزيز حكم القانون، ومن أجل التعاون مع الشعوب الأخرى للوصول إلى هذه الغايات المشتركة.

ومع وجود أكثر السكان تنوعاً وإبداعاً على الأرض، تعلمنا قيمة تزويد مواطنينا بالمعلومات الصحيحة، ومعاملة الأصوات والمعتقدات المخالفة باحترام، وتوفير المناقشة الحرة والمفتوحة للقضايا الخلافية. وقد أشاد معظم قادتنا السياسيين بالحكم الذاتي الولائي والمحلي، وحاولوا أن يضبطوا الصرف مع العجز، وتجنبوا المغامرة الخارجية، وقللوا إلى الحد الأدنى التزامات حفظ السلام طويلة الأمد، وصانوا الفصل بين الكنيسة والدولة، وحموا الحريات المدنية والخصوصية الشخصية.

أما الآن فيجري تحدي كل هذه الالتزامات التاريخية.

ومعظم القضايا الحاسمة والخلافية التي نواجهها اليوم سبق أن نوقشت قبل وقت طويل من وصولي إلى الرئاسة. وهذه المسائل الخلافية طبيعية، ومعظمها لا يمكن تجنبه. وتشمل الإجهاض، وعقوبة الإعدام، والعلم في مقابل الدين، وحقوق النساء، وفصل الدين عن السياسة، واللواط، وسياسة أمريكا الخارجية، وصورتنا الكوكبية، والحريات المدنية، وتهديد الإرهاب، والانتشار النووي، وانتشار الأسلحة، والاختيار بين الحرب والسلام، ونوعية البيئة، والعدالة للفقراء.

ومعظم المناقشات الحديثة التي دارت حول هذه القضايا نفسها تسببت تقريباً في إحداث انقسامات غير مسبوقة في بلادنا. وقام كلا الحزبين الديمقراطي والجمهوري بالاعتماد على الإعلانات التجارية المقذعة لكسب الانتخابات، واتسمت المداولات في مجلس الشيوخ بشكل متزايد بالعداوة الحزبية، وتبنى كل سكاننا "الأحمر" و"الأزرق" بوصفهما التعبيرين الوصفيين المعتادين في الولايات وفيما بينها.

ما الذي أثار هذه الخصومات الحادة، وولّد، في الوقت نفسه، مثل هذه التحولات عن القيم التقليدية لأمريكا؟ أحد العوامل هو رد فعل أمتنا على الهجوم الإرهابي الذي وقع في 11 أيلول/سبتمبر 2001، حين أدركنا شدة الإرهاب، ودوامه، والطبيعة الكوكبية له. والتغيير الآخر هو تلك المبالغ الضخمة من المال التي يجري إدخالها في العملية السياسية، مع تأثير غير مسبوق للمصالح الخاصة داخل المداولات الحكومية التي يزداد ميلها إلى الكتمان.

وأهم عامل هو أن الأصوليين صاروا مؤثرين على نحو متزايد في كل من الدين والحكومة معاً، ونجحوا في تغيير الفروق الدقيقة والفروق البعيدة الغور

في معاني الحوار التاريخي وتحويلها إلى صلابة لا ترى إلا الأسود والأبيض. وإلى الانتقاص الشخصي من أولئك الذين يجرؤون على الاختلاف وعدم الموافقة. وفي الوقت نفسه، فإن هؤلاء المحافظين الدينيين والسياسيين قد خلطوا جهودهم. وهم يبنون الجسور فوق الفصل السابق المحترم بين الكنيسة والدولة. وهذا قد خول سلطة التصرف لجماعة من "المحافظين الجدد" المؤثرين الذين كانوا قادرين على تنفيذ فلسفتهم. المحبطة منذ زمن طويل. في السياسة المحلية والخارجية معاً.

إن تأثير هذه الاتجاهات المختلفة يشكل تهديداً للكثير من الأعراف التاريخية والالتزامات الأخلاقية لأمتنا، في الحكومة وفي دور العبادة على حد سواء.

وقد تم تبني معتقدات لاهوتية معرّفة تعريفاً ضيقاً بوصفها جدول أعمال جامد لحزب سياسي. وقام أعضاء جماعات الضغط الأقوياء، في داخل الحكومة وخارجها معاً، بتحريف معتقد أمريكي مثير للإعجاب في المشروع الحر وحولوه إلى حق المواطنين الأغنياء غنى فاحشاً في تكديس واستبقاء المزيد المزيد من الثروة ونقلها إلى نسلهم. والأرباح المكتسبة من المتاجرة بالأسهم والدخل المكتسب من أرباح الأسهم يجري إعطاؤها وضع ضريبة الامتياز مقارنة بالأجور التي يكتسبها معلمو المدارس ورجال الإطفاء. وأتمثل هنا بقول صديق مسيحي: إن الفلسفة الاقتصادية الجديدة في واشنطن هي أن المد المرتفع يرفع كل اليخوت.

والاختلافات في الرأي غير القابلة للحل في موضوعات الإجهاض، واللواط.. وقضايا اجتماعية حساسة أخرى ازدادت سوءاً بإصرار المتصلبين

في آرائهم الملتزمين التزاماً شديداً بها على فرض آرائهم، آراء الأقلية، على اكثرية أكثر اعتدالاً.

وأعلنت أمتنا استقلالها عن قيود المنظمات العالمية وتنصلت من الكثير من الاتفاقات الكوكبية التي كانت ثابتة منذ مدة طويلة، ومن جملة ذلك قرارات قضائية، واتفاقات أسلحة نووية، وضوابط على الأسلحة الحيوية، وحماية البيئة، والنظام الدولي للعدالة، والمعاملة الإنسانية للأسرى. وفوق ذلك، وبعد أن اشتبكت قواتنا بالقتال وبدأت أمريكا تواجه تهديداً بالمزيد من الهجمات الإرهابية، أهملنا أحلافنا مع معظم الأمم التي نحتاج إلى أن تكون قد التحقت بنا في القتال الطويل الأمد ضد الإرهاب الكوكبي. والذين ألّفوا بين جميع هذه الأعمال السياسية ونسقوها هم الذين يعتقدون أن استخدام قدرة أمتنا وتأثيرها الهائلين يجب الا يكون مقيداً من الأجانب. وبغض النظر عن التكاليف، فإن بعض القادة يحاولون صراحة أن يخلقوا إمبراطورية أمريكية مهيمنة في كل أنحاء العالم.

وبناء على هذه المقدمات، لم يبق معتبراً من الضروري بعد الآن الامتثالُ للقيود الموضوعة على مهاجمة الأمم الأخرى عسكرياً، بشرط أن تدّعي المصادر الاستخباراتية غير المتيقّنة في الغالب أن القوة العسكرية لتلك الأمم أو خططها السياسية قد تكون في نهاية المطاف خطرة على الولايات المتحدة. وعندما توصم تلك الأمم بأنها "محور الشر" فإنها تكون منبوذة وليست مقبولة بعد ذلك لتكون شريكاً في المفاوضات، وتهون حياة شعوبها وتميل إلى أن تصير عديمة الشأن.

ومن حسن الطالع، فإن هذه السياسات القومية وعدم التوافق هذا لم تصل كلها بعد إلى أن تصير دائمة، وذلك لأن أعضاء كثيرين من الجمهور العام، ومن المشرعين، ومن القضاة الفيدراليين، ومن المسيحيين، ومن المؤمنين الآخرين ما يزالون يبحثون عن أجوبة متوافقة لمعظم الأسئلة الدينية والسياسية الخلافية. وحرصاً على أفضل مصالح أمريكا يجب أن يفهم أحدنا الآخر ويجب أن نجد أوسع أرضية مشتركة بيننا.

وأنا أستطيع، بعد مشاركة استغرقت مدة عمري كلها في الشؤون الدينية والسياسية، أن أفهم مدى إخلاص أولئك الذين روجوا لهذه التغيرات الجديدة. لقد خَبِرتُ حِدَّة الوطنية حين كنت ضابط بحرية، وخبرت طموحات رجل الأعمال المنافس، وخبرت حدة الحوار السياسي. وقد تم إغرائي بشكل شديد لشن هجوم عسكري على الأجانب، وشعرت بإحباط الاضطرار إلى التفاوض مع الحلفاء أو مع الأعداء السابقين للوصول إلى إجماع بدلاً من اتخاذ المزيد من العمل الأحادي الجانب الحاسم.

لقد كان صراعاً بالنسبة إليَّ لأثبتَ ضد الضغوط الموجهة من الناخبين الأعزاء في قراراتي السياسية بوصفي عضو مجلس الشيوخ عن ولاية، وحاكماً، ورئيساً. وبرغم ما أعتبره متطلباً متعلقاً بالدستور وبالكتاب المقدس من أجل فصل الكنيسة والدولة، فيجب علي أن أعترف بأن معتقداتي الدينية الخاصة بي قد انضفرت بشكل لا يمكن فكه مع المبادئ السياسية التي تبنيتها.

وبوصفي مواطناً عادياً، فسوف أمزج الدين والسياسة عن قصد في هذا الكتاب. وفي جزء من النص، سوف أحلل القيم الأخلاقية من وجهة نظر

دينيـة، وسـأضم إلى هذا التـحليل بعـدئذ تقـديري للتـأثيـر الضـار للقـرارات السياسيـة الحديثة على هذه القيم نفسهـا . وسوف أعبر عن آرائي بأصـرح ما يمكن، بوصـفي مسـيحيـاً إنجيلياً "مولوداً ثانيـة" وقـائداً سـيـاسـيـاً سـابقـاً . وفي المجال الديني، سوف أعتمـد على الكتب المقدسة كمـا فسـرتها كلمـات عيسى المسيح وأفعاله . وفي القضـايا السيـاسيـة، سوف أعتمـد إلى أبعـد حـد ممكن على خبراتي الشخصية وملاحظاتي.

وأنا أقدر أن قـراء كثيـرين، ومنهم أولئك الذي يشـاطرونني خلفيـة دينيـة وسيـاسيـة مشـابهـة، سـوف يجـدون بعض آرائي مـختلفـة عن آرائهم. ويحـتمل تمامـاً، أن الـكثيـرين منهم لا يدركون مـا يجـري في أمـريكا، وأنه قـد يكون من المفيد رفع القضايا إلى مستوى الحوار المتزايد .

* *

الفصل الأول

معتقدات أمريكا المشتركة - والاختلافات القوية

سوف نناقش في الفصول التالية أكثر القضايا إثارة للخلاف التي تجري معالجتها في داخل أمتنا. وسيكون مساعداً لنا في ذلك أن نفهم الآراء الشخصية السائدة للمواطنين الأمريكيين، واختلافاتهم وتشابهاتهم، وكيف تم تعديلهم؟ أو كيف بقوا هم أنفسهم؟ وهل هم متوافقون مع التغيرات السياسية العميقة التي تحدث في بلادنا؟

لقد تطورت في صفوف الأمريكيين في السنوات القريبة العهد اختلافات حزبية أقوى وأكثر حدة، وهو تحوُّل كبير عما كان عليه الحال حين كنت في البيت الأبيض. في تلك الأيام، كنت أملك "متوسط ضربات[1]" جيداً في جعل اقتراحاتي مقبولة من مجلس الشيوخ، وكانت الانقسامات السياسية مستندة إلى القضايا أكثر بكثير مما هي مستندة إلى كون الأعضاء ديمقراطيين أو جمهوريين. وبصفتي جنوبياً معتدلاً وضابطاً بحرياً محترفاً سابقاً، فقد شايعت سياسة مالية محافظة ودفاعاً قوياً. وجاء الالتزام بحقوق الإنسان، حسب ما أظن، من معرفتي الشخصية بالأثر المدمر للعزل العنصري في منطقتي من البلاد.

وبعد وصولي إلى واشنطن بقليل، فوجئت واحبطت حين لم يتبن أي عضو من الديمقراطيين في مجلس الشيوخ سلسلتي الأولى من المقترحات التشـريعية -لإعـادة تنظيم أجـزاء مـن البـيـروقـراطيـة الفـيـدراليـة- وكـان علي أن أجـعل الجمهوريين يأخذون زمام المبادرة. وبعد ذلك، ضمت تحالفات مساندتي المتحولة الأعضاء المتوافرين من كلا الحـزبين، الذين اتفقوا معي على قضايا محددة، مع مجيء أشد معارضتي الجامحة من الجناح الليبرالي من الحزب الديمقراطي. (واحد الأسباب لهذه المعارضة كان طموح عضو مجلس الشيوخ تيد كينيدي إلى أن يحل محلي في منصب الرئيس) .

في هذه الأيام، مشهد واشنطن مختلف اختلافاً كاملاً. وتتقرر كل قضية تقريباً على أساس حزبي صارم. وصار استقصاء الحوار العام وسبره في القرارات التشريعية الرئيسية شيئاً من الماضي تقريباً. والاتفاقات الأساسية تُصنع بين أعضاء جماعات الضغط وبين قادة المشرعين. وتصنع في الغالب ضمن منتديات حزبية مغلقة يكون فيها الانضباط الحزبي الجامد فوق كل شيء. وفوق ذلك، فإن آداب السلوك الشخصية، التي كانت موضع ثناء في مجلس الشيوخ الأمريكي على وجه الخصوص، لا تعتبر بعد الآن عظيمة القداسة. هذا التدهور في التوافق، والتعاون، ومشاركة الزملاء السلطة في مجلس الشيوخ، هو، على الأقل جزئياً، نتيجة صعود الاتجاهات الأصولية وتأثيرها الديني والسياسي.

ومن حسن الحظ، أن هذه الدرجة من الصلابة والمواجهة لم ترسخ بعد في صفوف الجمهور العام. وفي أثناء إعدادي لهذا الكتاب كنت قد بحثت عن أفضل التقديرات لرأي الجمهور الأمريكي، وذلك كي أستطيع أن افهم الأسباب الباعثة

على الموافقات وعلى الانقسامات في صفوف شعبنا، ومدى هذه الموافقات والانقسامات.

إن أكثرية قوية من الديمقراطيين والجمهوريين معاً توافق على أن بلادنا منقسمة سياسياً أكثر من أي وقت مضى وما يزال في الذاكرة الحية، وهذه حقيقة تفسرها من بعض الوجوه الانتخابات الرئاسية المشكوك فيها لعام 2000 ويفسرها الانقسام الذي لم يتغير تقريباً في السنوات التالية بين الولايات "الحمراء" و"الزرقاء". إن الاختلافات الحزبية المتصلة بمساندة رئيسينا الأخيرين وباستئكار وصولهما هي اختلافات واضحة تماماً. يضاف إلى ذلك أن الشعبية الشخصية للرئيس بوش بين الديمقراطيين أخفض من الشعبية التي كانت للرئيس كلينتون بين الجمهوريين في أثناء سير إجراءات اتهامه في مجراها. والحرب العراقية المستمرة علامة دالة على نحو خاص، إضافة إلى الآراء المتضاربة على طرفي نقيض بشأن النزاع أيسير سيراً حسناً؟ أو هل حسّن أمننا القومي أم لا؟

وكان يمكن لهذه الاختلافات الحادة أن تستبعد بوصفها مجرد شجار حزبي. ولكن أثرها على حاضر أمتنا وعلى السياسات الدولية المستقبلية أثر خطير. فالنسبة المئوية في صفوف الجمهوريين من الذين يؤيدون الدبلوماسية مفضلين لها على العمل العسكري هي نسبة صغيرة تقع في الحد الأدنى. في حين يأخذ الديمقراطيون بوجهة النظر المعاكسة. وفي المدخل إلى مقاتلة الإرهاب، فإن الثلثين من الجمهوريين يعتقدون أن استخدام القوة الكاسحة هو أفضل مدخل. في حين أن نسبة أكبر بكثير من الديمقراطيين يعتقدون أن الاستخدام المفرط للعمل العسكري يميل إلى زيادة العداوة ضد بلدنا ويولد المزيد

من الإرهابيين، هذا على الرغم من أنهم يعتقدون أن قواتنا المسلحة يجب أن تستخدم حين يكون أمننا القومي مهدداً. هذا الاختلاف الحاد والمتنامي حول قضية النزاعات الدولية وهل من الأفضل حلها بالدبلوماسية أو بالعمل العسكري، هو الآن أدق متنبئ بالانتساب الحزبي، وهو أهم من زواج المثليين، أو اللواط، أو الإجهاض.

ومن المشجع أن الأمريكيين يتفقون اتفاقاً كاسحاً على مسائل مهمة عديدة وهي: قيمة الدين في الحياة الفردية، وقدرة المبادرة الشخصية على تحقيق الإمكانية الإنسانية، والحاجة إلى حماية البيئة ولو كان ذلك مكلفاً، والارتياب بنزاهة الأعمال التجارية الكبيرة، والرغبة في أن تطبق القوانين الفيدرالية التي تتعلق بالفحش المنافي للآداب العامة والقوانين الموجهة ضد الأدب المكشوف المفرط في الصراحة، تطبيقاً متسماً بالشدة.

وبرغم أن العدد قليل، فإن عدد الجمهوريين الذين يعتقدون أن القوانين البيئية القاسية تؤذي الاقتصاد يبلغ أربعة أضعاف عدد الديمقراطيين الذين يعتقدون الأمر نفسه. وكانت هناك زيادة ضخمة في عدد الجمهوريين الذين لهم ثقة في الحكومة، ولا يوجد الآن إلا اختلاف قليل بين الأحزاب في ذلك الشأن. ويساند الأمريكيون بشكل متزايد أيضاً تقديم المزيد من الإعانة الحكومية للفقراء والمحتاجين، ولكن يبقى هناك اختلاف واحد وهو أن جمهوريين أكثر من حيث العدد من الديمقراطيين يعتقدون أن الفقراء يعيشون حياة سهلة. وإنه لمن المشجع أن هذا التحامل ضد الفقراء يتناقص تناقصاً كبيراً بين الأمريكيين جميعاً.

وهناك اختلافات قوية بشأن القضايا الاجتماعية، ولكن آراء عديدة تتغير ولمعظمها أثر قليل واضح في المعترك السياسي. وشدة الشعور حول القضايا

الخلافية هي في الغالب أهم بكثير من الانقسامات العددية. وهذا واضح بشكل خاص حين يكون موضوع الحوار هو الإجهاض أو ضبط السلاح الشخصي، ففي هذين الموضوعين لم يكن لراي الغالبية الدؤوبة من الأمريكيين إلا تأثير قليل في العالم السياسي.

إن غالبية من الأمريكيين تعتقد أن الإجهاضات يجب أن تكون قانونية في كل الحالات أو في معظمها، وواحد فقط من كل ستة يعتقد أن جميع الإجهاضات يجب أن تكون غير قانونية. إن حماسة هذه الأقلية الصغيرة وفاعليتها تضخم تأثيرها تضخماً كبيراً، وخصوصاً داخل مجلس الشيوخ الأمريكي.

وبخصوص ضبط السلاح الشخصي، فإن غالبية كاسحة تؤمن بالحق في أن تمتلك الأسلحة، ولكن أربعة من كل خمسة من الأمريكيين يفضلون قيوداً متواضعة على الأسلحة اليدوية التي يمكن استخدامها بيد واحدة، ومن جملة هذه القيود التدقيق في الخلفية السابقة للمالك، والتسجيل الإلزامي للسلاح، ومدة انتظار قصيرة قبل أن يتم شراء السلاح.

وقد شمل أحد التغيرات المثيرة للقلق في سياسة الحكومة صناعة الأسلحة النارية. فبمساندة من الرؤساء المتتابعين: ريغان، وبوش، وكلينتون،تم وضع تشريع اجازه مجلس الشيوخ في 1994، وبموجبه منعت طوال عشر سنوات صناعة تسعة عشر سلاحاً محدداً من الأسلحة نصف الآلية الهجومية، ونقل هذه الأسلحة، وامتلاكها، ومن جملتها إيه كي -47 ، وإيه آر -15 ، ويو زد آي. ولا يستخدم أي سلاح من هذه الأسلحة من أجل الصيد، لا يستخدم إلا من أجل قتل البشر الآخرين. وقد زار مجلس الشيوخ والرئيس بوش أكثر من ألف ومائة من

رؤساء الشرطة ورؤساء التنفيذ (الشريف) ليجددوا وليقوّوا حظر 2004 الفيدرالي على الأسلحة الهجومية. ولكن جماعة الضغط الخاصة بالأسلحة الشخصية، تغلبت على الجميع، بتلميحة من البيت الأبيض وانتهت مدة الحظر.

وهذا ليس جدالاً خلافياً يضم ملاكي البيوت، أو الصيادين، أو سكاناً في الخلاء. لقد امتلكتُ أنا واستخدمتُ الأسلحة منذ أن كنت واعياً وعياً كافياً يخولني أن أحمل السلاح. وأنا امتلك الآن سلاحاً يدوياً، وأربع بنادق صيد، وبندقيتين. وأستخدم هذه الأسلحة بحرص، من أجل لعبة الحصاد من غاباتنا وحقولنا وفي أثناء رحلة قنص أقوم بها من حين إلى آخر لأصيد مع أسرتي وأصدقائي في أماكن أخرى. إننا نقدر هذه الحقوق ونعتز بها. وبعض رفاقي يحبون جمع الأسلحة النادرة.

ولكن الكثيرين منا من الذين يشاركون في الرياضات الخلوية جزعون من بعض السياسات المتطرفة جداً التي تتخذها الجمعية القومية للبندقية، ومن تهيُّب المسؤولين العامين الذي يستسلمون للمطالب غير المعقولة من الجمعية. إن الجمعية القومية للبندقية، وهي متأثرة تأثراً بالغاً ومدعومة دعماً كبيراً من صناعة الأسلحة النارية، بوصفها الزبون الأول لهذه الصناعة، كانت قادرة على أن تضلل كثيرين من الناس الذين يسهل خداعهم وتقودهم إلى الاعتقاد أن أسلحتنا سوف تؤخذ منا، وأننا، نحن ملاك البيوت، سوف نحرم من الحق في حماية أنفسنا وعائلاتنا. ليس هناك أي تهديد حقيقي "لحقنا في حمل الأسلحة" كما يضمنه الدستور الأمريكي. فإذا كان هناك أي تهديد، فإن جهود الجمعية القومية للبندقية ستكون عندئذ مبررة بالتأكيد.

وبالإضافة إلى الأسلحة الهجومية، فإن جماعة الضغط المختصة بالسلاح تحمي قدرة المجرمين وأعضاء العصابات على استخدام الذخيرة التي تستطيع

أن تخترق الملابس الوقائية التي يرتديها ضباط الشرطة في أثناء تأديتهم لواجباتهم، وتضمن جماعة الضغط هذه الا يُمنع إرهابي معروف أو مشبوه معروف من شراء أو امتلاك سلاح ناري، ومن جملة ذلك السلاح الهجومي. إن المعيار الوحيد الذي قبلته الجمعية القومية للبندقية على تردد هو إثبات ارتكاب جناية سابقة للراغب بامتلاك السلاح، أو الخبل العقلي، أو أن يكون مهاجراً غير قانوني. وقد شعر مدير مكتب التحقيق الاتحادي (اف بي آي) بالقلق العميق حين استطاع أربعة وثلاثون رجلاً من اربعة وأربعين موضوعين على قائمة مراقبة الإرهابيين أن يشتروا أسلحة في أثناء فترة الشهور الخمسة الأخيرة، فبدأ في إعادة فحص القانون القائم وطلب من بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي أن ينظروا في إجراء تعديلات في هذا القانون. وكان رد فعل المسؤولين الكبار في الجمعية القومية للبندقية هو توجيه النقد لقوائم المراقبة، وليس للإرهابيين، وإعلان الدعم للتشريع الذي يحمي صانعي الأسلحة والتجار من المسؤولية إذا قام شارٍ للأسلحة باستخدام بندقية إيه كي-47 في هجوم إرهابي. وأصر هؤلاء المسؤولون على وجوب التخلي عن المعلومات المأخوذة عن الخلفية السابقة لمشتري الأسلحة واطّراحها جانباً في غضون أربع وعشرين ساعة، وهم بذلك يحولون دون الاحتفاظ لأمد طويل بالبيانات التي قد تكشف أولئك الذين يتآمرون على أمن أمتنا.

ما النتائج المترتبة على هذا التملك المبذر والاستخدام المسرف للأسلحة المصممة لقتل الناس؟ طبقاً لما تقوله مراكز السيطرة على الأمراض ومنعها، فإن احتمال تعرض الأطفال الأمريكيين للقتل بسلاح ناري يزيد أكثر من ست عشرة مرة عما هو عليه للأطفال في الأمم الصناعية الأخرى، واحتمال

تعرضهم للانتحار بسلاح يزيد بإحدى عشرة مرة. واحتمال تعرضهم للموت بحوادث من الأسلحة النارية يزيد عن تسع مرات.

ويقدم مركز جون هوبكنز لسياسات الأسلحة والبحوث تقريراً يفيد أن معدل قتل البشر بالأسلحة النارية في الولايات المتحدة أعلى بتسع عشرة مرة من نظيره في 35 بلداً آخر من البلدان ذات الدخل المرتفع مجتمعة. وفي أحدث سنة تتوافر عنها البيانات. فإن الأسلحة اليدوية قتلت 334 شخصاً في أستراليا، و197 في بريطانيا العظمى. و183 في السويد. و83 في اليابان. و54 في ايرلندا، و1034 في كندا. و30419 في الولايات المتحدة. يجب على الجمعية القومية للبندقية. وعلى صناعة الأسلحة النارية. وعلى السياسيين المنقادين أن يعيدوا تقويم سياساتهم بشأن السلامة والمسؤولية.

حين سئل الأمريكيون إن كانوا يعتقدون شخصياً أمن المقبول من اللواطيين والسحاقيات أن يمارسوا الجنس المثلي؟ اجابت اغلبية منهم بالإيجاب المؤكد. وهذا يعني تحولاً قوياً في الراي منذ عشرين سنة مضت. حين كانت الأجوبة عن السؤال نفسه هي العكس. هناك دلالة معينة لهذا الموقف وهي أن هذا التغير في الرأي العام قد كان له أثر بين القضاة في مستوى الولاية وبين القضاة الاتحاديين.

وكانت وجهات نظر الأمريكيين تتغير ايضاً فيما يخص عقوبة الإعدام حتى الموت. وقد وصل الدعم الآن إلى حوالي النصف لمبدأ "السجن مدى الحياة من دون إصدار عفو مشروط" والثلث فقط من الأمريكيين يعتقدون أن عقوبة الإعدام حتى الموت تردع الجريمة. وفي استطلاع شمل الأمة كلها، فإن 1 بالمائة فقط من رؤساء الشرطة كانوا يعتقدون أن توسيع عقوبة الإعدام سيخفض

الجـريمة. ويبـدو أن هذا التـغير في الرأي العام أيضاً يمتلك الآن أثراً في كل من التشريعات الولائية وفي المحاكم الاتحادية.

وترسم هذه الأرقام صورة إجـماليـة لمعتقدات المواطنين الأمـريكيين. ومن المدهش أن هذه المعتقدات لـم تتغيـر في أثناء السنوات الخمس الماضيـة. ولكن تغيرات ثورية قد حدثت في السياسـات المحلية والخـارجيـة لحكومتنا. وهي تؤثر على تعريف "القيم الأخلاقية" وعلى حمايتها.

وبصفتي أمريكياً انغمسَ بعمق في الحياة السياسية لبلدنا، فإنني أجد أن هذه الإحـصاءات مثيـرة جداً للاهتمـام. ولكنـي، مثل مـا هو الحـال مع جمـيع المواطنين الآخرين تقريباً، كانت حياتي الخـاصة هي العامل الكبير في تشكيل آرائي الخاصة وردود فعلي الشخصية على وجهات النظر الجماعية للآخرين.

* *

الفصل الثاني

إيماني
المسيحي التقليدي

لقد أُقحِم الإيمان الديني في المجال السياسي، إلى درجة تثير الدهشة، في السنوات الأخيرة. وهذا الوصف الذي أقدمه هنا لمعتقداتي قد يكون معيناً للقارئ في تقويم أوراق اعتمادي وتقويم فهمي للأسباب الباعثة على إصداري لبعض احكامي.

لقد ولدت لعائلة مسيحية، وتربيت بصفتي معمدانياً[2] جنوبياً. وكنت مشتركاً في دروس اسبوعية عن الإنجيل طوال حياتي. أولاً بصفتي طالباً وبعدئذ، منذ مطلع الرجولة، بصفتي معلماً. وقد عُرِضَت لي معتقداتي الأساسية أو التقليدية بأفضل الطرق إقناعاً من والدي، الذي كان شماساً. ومن معلمي في مدرسة يوم الأحد في الكنيسة المعمدانية في مدينة بلينز. ومع اننا كثيراً ما خضنا في المناقشات حول معنى نصوص الدرس الأسبوعي (وكان مقسوماً بالتساوي بين العهد الجديد والكتب المقدسة العبرية) فلم يكن هناك أي تفكير في الارتياب في اللاهوت النموذجي الذي ميز إخلاصنا.

معظم مبادئ إيماني بالمسيح بوصفه مخلّصاً وبوصفه ابن الله ما تزال مشتركة من دون تساؤل جدي ويتشارك فيها البروتستانت، والروم الكاثوليك، والأرثوذكس الشرقيون، والأقباط، والمؤمنون بالمحافظة على السبت (اليوم

السابع) وبقدوم المسيح ثانية، وأناس متدينون آخرون كثيرون. واستوعبنا أيضاً بعض الخصائص الخاصة لطائفتنا المعمدانية. وبالنسبة إلينا، كان التعميد[3] للناضجين فقط بما فيه الكفاية ليتلقوا الإيمان الشخصي بالمسيح، وذلك بالغمس الكامل تحت الماء، وهو يرمز لموت مخلصنا، ودفنه، وبعثه. وتلقينا الكتاب المقدس بكليته بوصفه إرادة الله الموحى بها، ومتفقين على أن كلمات يسوع المسيح وأفعاله هي المعايير التي يجب أن يفسر بها الإنجيل المقدس. ومع أن التفسيرات الإنسانية للكتاب المقدس معينة في الغالب، فلم يكن من الواجب النظر إليها بوصفها معصومة من الخطأ أو بوصفها معتقدات رسمية أو أدوات للمساءلة العقائدية.

لقد آمنا بمبدأ الاستقلال الذاتي لكل واحدة من الكنائس المحلية، وتتخذ القرارات بالتصويت (ويؤمل أن يكون بالإجماع) من أعضائها المعمّدين. وكان المعمدانيون، ضمن جماعة المصلين في الكنيسة الواحدة، معارضين بصلابة للهيمنة على الأعضاء الأفراد سواء من القسس أو من اي اشخاص آخرين أقوياء، وأكدنا النصوص الكتابية التي وصفت كيف أن المسيح امتنع عن إعطاء السلطة على الناس الآخرين ولو لأنصاره الخاصين. وفي تكليفه لهم ليرحلوا بوصفهم شهوداً، كانوا مخولين أن يخدموا الآخرين فقط، عن طريق تخفيف المعاناة ومشايعة الحقيقة، والتسامح، والحب. وفي الحقيقة، فقد اعتُبر كل شخص له إيمان بالمسيح كاهناً، وهو حر في أن يتصل مباشرة مع الله من دون وسيط. وكان يجب على القسس المحليين أن يكونوا قسساً خادمين لجماعة المصلين وليسوا سادة لهم.

وبصفتنا إنجيليين، فقد كنا ملتزمين برسالة كوكبية قوية لمشاركة إيماننا المسيحي مع كل الناس الآخرين، من دون تحامل أو تمييز. وقد وفينا بهذا العهد

من يسوع المسيح إما عن طريق شهادتنا الشخصية أو من خلال دعمنا للآخرين بتبرعاتنا المالية المنتظمة. وفي أثناء معظم حياتي كان يفترض أن تكون كنائسنا المعمدانية أعضاء في مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين، الذي كان غرضه الأولي الأساسي أن ينسق عملنا التبشيري المشترك في أمريكا وفي كل أنحاء العالم. ولكن هذا لم يكن يعني ضمناً أن مسؤولي المؤتمر أو أي قادة دينيين آخرين خارجيين كانوا يستطيعون أن يحددوا مجموعة من المعتقدات أو القواعد التي يجب علينا أن نقبلها. إن وصفنا الوحيد من هذا النوع لإيماننا كان هو الإنجيل المقدس نفسه.

وكان أحد أكثر التزاماتنا الحماسية هو الالتزام بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة. وكانت هذه القضية ذات أهمية عظيمة. وقد درسنا الشهداء المسيحيين الذين فضلوا أن يضحوا بحياتهم على أن يتركوا لقائد عَلْمَاني أن يتعدى على الحرية الدينية. ومع أن المسيحيين الأفراد (ومن جملتهم والدي) كانوا أحراراً في أن يشاركوا في القضايا العامة، فقد كنا نمقت مفهوم صيرورة جماعات مُصَلّي الكنيسة منغمسين في العالم السياسي الحزبي. وآمنّا أيضاً بالحرية الدينية، وبالرحمة لغير المؤمنين، وبالاحترام لجميع الأشخاص بوصفهم متساوين بفطرتهم أمام الله.

وكان يوم أحد واحد على الأقل في كل عام مكرساً لحماية البيئة، أو القيام على خدمة الأرض. وكان والدي والفلاحون الآخرون في جماعة المصلين ينتبهون انتباهاً أدق لما يقوله القسس في مواعظهم، التي كانت تستند إلى نصوص مثل "الأرض لله، والكمال منه". وحين يعطى البشر السيطرة على الأرض، والماء، والسمك، والحيوانات، وكل ما في الطبيعة، كان التشديد على الإدارة الحريصة والتحسين، لا على التبذير أو التعرية.

لقد استخدمت صيغة الماضي في الفقرة المذكورة أعلاه، ولكن هذه المعتقدات ما تزال هي معتقداتي الدينية المتحمسة، بصفتي مسيحياً إنجيلياً ومعمدانياً.

والتعبير "إنجيلياً" يساء استخدامه في الغالب ويشوه، ولكنني أرى أن المعنيين الأوليين (في معجم اللغة الإنجليزية الصادر عن دار راندوم) كافيان: (أ) "ينتمي إلى الكنائس المسيحية أو يصف الكنائس المسيحية التي تشدد على تعاليم الكتب المقدسة وسلطتها، وخصوصاً العهد الجديد، في معارضة السلطة المؤسسية للكنيسة نفسها، والتي تشدد على مبدأ أسمى هو أن الخلاص يتم الوصول إليه عن طريق التحول الشخصي إلى الإيمان بتكفير المسيح عن خطايا البشر". أو(ب) "يصف المسيحيين، وخصوصاً من أواخر السبعينيات من 1970، متجنباً وصف الأصوليين ولكن يتمسك بالتفسير المحافظ للإنجيل".

ونظراً إلى أن أمي وزوجتي كانتا ميثوديتين،[4] فقد افترضت دائماً أن المسيحيين المتساوين في الإخلاص يستطيعون أن يقوموا بعبادة مختلفة، ويكون لهم أعراف تنظيمية مختلفة وهم مع ذلك يمارسون إيماننا في انسجام. إن من المقلق أن نسمع المعمدانيين البارزين يدلون بتصريحات مثل "أنتم تقولون إنه يفترض بكم أن تكونوا لطفاء مع أتباع الكنيسة الأسقفية،[5] وأتباع الكنيسة المشيخية[6] ومع الميثوديين، ومع هذا، ومع ذاك، ومع شيء آخر. هراء.ليس علي أن أكون لطيفاً مع روح المسيح الدجال" بات روبرتسون، نادي 700).

وحين كنت ضابطاً مرشحاً بحرياً في الأكاديمية البحرية الأمريكية، علّمت دروساً من الإنجيل لأطفال الضباط والمجندين المتطوعين الملحقين للخدمة في أنابوليس. وكان في أثناء هذه الفترة أن بدأت أستطلع بعمق أكبر أفكار بعض

اللاهوتيين البارزين. وقد ذكرت فيما بعد. حين كنت أخوض الانتخابات من أجل منصب الحاكم، ذكرت أنني وجدت كتب رينهولد نيبور مُعِينة بوجه خاص، وقد سررت بعد عدة شهور حين أرسلت لي زوجته، أورسولا، مجموعة من مواعظه المسجلة على أشرطة.

ودخولي في السياسة وسع معتقداتي الدينية وتحداها في الوقت نفسه. وحين كنت عضوَ مجلس الشيوخ عن ولاية، كان لدي حوالي خمسة وسبعين ألف ناخب أشعر بالمسؤولية نحوهم، وكنت تقريباً غارقاً بتنوع الأسئلة والمشكلات التي أحضروها إلي وبأهمية هذه الأسئلة والمشكلات. وفي عام 1966، بعد خدمتي لدورتين في المجلس التشريعي، أرسلت بصري نحو حملة لمنصب الحاكم. وكان ذلك عاماً سياسياً غير مسبوق ومعقداً في جورجيا، وفي أثنائه تم تحدي السيطرة الطويلة الراسخة للديمقراطيين هناك. وقد قمت بعمل جيد بصفتي قادماً جديداً غير معروف نسبياً إلى سياسات الولاية، ولكن مغالطة في دستور الولاية سمحت للمجلس التشريعي أن يختار ليستر مادوكس فائزاً نهائياً. وكان هذا قد صار سيئ السمعة بوصفه داعية للفصل العنصري وهو الذي هدد بعصا فأس أي زبونات سود محتملين يقتربون من مطعمه في أطلانطا لطلب الخدمة.

وبهزيمتي، صرت خائب الأمل بالسياسة وزال الوهم عني بشكل كامل، ولأول مرة، اهتز إيماني بنفسي وبمعتقداتي الدينية معاً. فلم أكن قد فشلت من قبل أبداً في تحقيق أي غاية من غاياتي الكبيرة في حياتي، ولم أستطع أن أفهم كيف قدَّر الله أن يكون داعية متحمس للفصل العنصري هو المسؤول التنفيذي الرئيسي في ولايتي. وكانت أختي روث كارتر ستابلتون إنجيلية مشهورة في تلك الأيام، وقد فهمت الأوهام الباطلة الأنانية التي تسببت في يأسي.

وقادت سيارتها قادمة من كارولينا الشمالية لتراني، وذكرتني بالدروس المتصلة بالكتب المقدسة وبأن المآسي وخيبات الأمل يجب أن تكون مصدراً للمزيد من الصبر، والقوة، والحكمة، والالتزام بحياتنا المسيحية. وفي البداية رفضت مسلماتها، ولكن روث في النهاية اقنعتني بأن أُنزِل طموحاتي السياسية والتجارية إلى موقع ثانوي من حيث الأهمية لمدة من الزمن وأن أتولى بعض الالتزامات الدينية التي تفرض التحدي.

وفي الحال كنت مشاركاً في ما يدعوه المعمدانيون عملاً "تبشيرياً رائداً". وكان العمل الأول الذي خصص لي في لوك هافين في بنسيلفانيا، فتم تحديد مائة أسرة من الذين ليس لهم أي إيمان ديني من أي نوع، وكان علي مع متطوع آخر أن نزور غير المؤمنين هؤلاء كلهم ونشرح لهم جوهر إيماننا المسيحي. وفي البداية كان يغلبنا الارتياب والتهيب، ولكننا تعلمنا سريعاً أن نقترب من كل بيت أو شقة مدرجة في قائمتنا بإيمان كامل. لقد قدَّرنا ما كنا نستطيع أن نعمله وأن نقوله، وقسمنا المسؤوليات، وصلينا كثيراً، ثم حاولنا بعدئذ أن نسترخي وأن نعتمد على الله ليعمل الباقي. وكان لنا بعض المغامرات المثيرة للتحدي مع العمال المفتولي العضلات، ومع المسؤولين التنفيذيين في الأعمال التجارية، ومع الملحدين المجاهرين، ومع صاحبة ماخور صغير، ولكن النتيجة الإجمالية لجهودنا كانت سلسلة من النجاحات غير العادية المدهشة.

وكانت إحدى مهامي التبشيرية الأخرى المشابهة بعثة إلى سبرينغفيلد في ماساشوسيتس، وكان عملي المخصص لي هو الشهادة لعائلات تتحدث الإسبانية، ومعظمهم كانوا من بورتو ريكو. وكانوا فقراء جداً وعاشوا في مباني شقق قديمة قرب مصنع نسيج مهجور. وكثيرون منهم كانوا ينقلون في حافلة إلى حقول

الخضروات المجاورة وحقول التبغ المزروع تحت الظلال، حيث عملوا بصفة عمال مهاجرين. وكان شريكي في هذه المرة أمريكياً كوبياً اسمه إلوي كروز، وهو قسيس كنيسة صغيرة في بروكلين، في نيويورك. وقال إن اختياري لأعمل معه جاء لأنني سبق لي أن درست اللغة الإسبانية في أنابولس. ولكننا أدركنا سريعاً أن الكلمات التي كنت أعرفها واستخدمتها في البحرية كانت مختلفة تماماً عن الكلمات التي كنا نستخدمها الآن لتعليم الإنجيل!

كنت قادراً على أن أقرأ آيات الإنجيل التي اخترناها لكل زيارة، ولكن الأب كروز الموقر عمل تقريباً كل الشهادة. وكنت أدهش من مدى الفاعلية التي كان يستطيع بها أن يصل إلى قلوب الناس. وكانوا يتحولون ليكونوا عاطفيين تماماً وليبكوا أحياناً حين كان يشرح لهم بعض النواحي من لاهوت يسوع وكيف يمكن لحياته أن تتصل بهم. ولقد عرفت خبرات رائعة في كل يوم حين كنت أعمل مع هذا الرجل الرائع، الذي بدا لي أنه كان يشكل علاقة حميمة فورية تقريباً مع الفقراء الذين دخل إلى بيوتهم. وكنت أحياناً مثلهم تغلبني المشاعر، وفي مرات عديدة انهمرت الدموع على خدي.

وكنت محرجاً بالتبجيل الذي عاملني به الأب الوقور كروز. ولعل ذلك كان لأنني أمريكي بالولادة، وامتلكت سيارة، وسبق أن كنت عضواً في مجلس شيوخ الولاية. وحين بدأنا بالاستعداد للوداع في نهاية بعثتنا، سألته عما جعله لطيفاً إلى هذا الحد ولكنه فعال أيضاً بصفته شاهداً مسيحياً، وكان محرجاً تماماً. وقال أخيراً باللغة الإسبانية ما معناه (حسناً، إن ربنا لا يستطيع أن يفعل الكثير مع رجل قاسٍ). ولاحظ أن المسيح نفسه، ومع أنه ابن الله، كان دائماً لطيفاً مع أولئك الذين كانوا فقراء وضعفاء. وتابع ليقول إنه حاول أن يتبع قاعدة بسيطة:

"أنت لا تحتاج إلاّ إلى حُبَّين فقط في حياتك: حب لله، وحب للشخص الذي يقف امامك في أي وقت محدد".

ما زلت أرجع في المناسبات إلى الكتب الموجودة على رفوف مكتبتي بأقلام كارل بارت،[7] ورينهولد و اتش ريتشارد نيبور،[8][9] وبول تيليلت،[10] رودولف بلتمان،[11] وديتريتش بونهوفر،[12] وهانز كونغ،[13] وغيرهم من علماء اللاهوت، ولكن الكلمات البسيطة من إلوي كروز تعبر عن لاهوت عميق ومثير للتحدي وكان يعني بالنسبة إلي أكثر مما عناه لي كلام كل العلماء العظماء.

وقمت بعمل إنجيلي في مجتمعات أخرى، وكان لي خبرة مثيرة للاهتمام على وجه خاص حين كنت مديراً لحملة بيلي غراهام في مقاطعتي. ونظراً إلى أن الواعظ الإنجيلي لم يكن يستطيع أن يكون معنا، فقد استخدمنا واحداً من افلامه لعرض الرسالة الدينية. وكان هذا الوقت ما يزال وقت عزل عنصري، ولكنني اتبعت قاعدة غراهام التي تتطلب جلسات تخطيط متكاملة وجماهير متكاملة. ونظراً إلى ان اي كنيسة لم تكن تقبل بنا فقد أجبرنا على عقد اجتماعات اللجنة في مبنى مدرسة مهجور وعلى عرض الفيلم في المسرح السينمائي المحلي. وكانت النتائج مذهلة، فقد جاء عدة مئات من الناس، ومن دون تمييز عرقي، ليقبلوا يسوع المسيح مخلصاً.

وبعد أن انتخبت حاكماً، صار افراد عائلتي أعضاء في كنيسة نورثسايد درايف المعمدانية، وهي أقرب كنيسة لبيت الحاكم في أطلانطا، وخدمت فيها شماساً وتوليت واجبات عادية أخرى. واتبعنا النمط نفسه حين انتقلنا إلى واشنطن، والتحقنا بجماعة الصلاة في الكنيسة المعمدانية الأولى، وهناك ايضاً علّمتُ مرات قليلة في كل عام. ولم تكن هذه الجلسات تعلن مقدماً قطعياً.

ولذلك فقد كان الأعضاء المنتظمون في صف مدرسة الأحد هم عادة الأعضاء الوحيدين في الحضور.

لقد كان محيراً مثيراً للاهتمام ان اراعي مصلحة من يعترفون انهم ملحدون بإيماني المسيحي. وفي عامي الأول في منصب الرئيس زرت بولندا، ورغبت هناك في أن أتكلم علناً أمام الجمهور عن قيمة الحرية بين الأمم التي كانت تحت الهيمنة السوفيتية. وفي أثناء محادثتي مع قائد البلاد الأمين العام الشيوعي الأول إدوارد غيريك، أشرت إلى زيارة سابقة مع كاهن بولندا من الروم الكاثوليك، ستيفان كاردينال ويزنسكي. وطلب غيريك ان التحق به من أجل جلسة خاصة، وتحدثنا لبعض الوقت الطويل نوعا ما عن إيماني المسيحي. وكانت أم غيريك، وهي كاثوليكية مخلصة، قد زارت الفاتيكان ورأت البابا، وبدا لي أن الأمين العام الأول كان ممزقاً بين إيمانها وبين كونه شيوعياً مخلصاً. وشعرت انه داخلياً كان مسيحياً، وأما علناً أمام الجمهور فهو ملحد.

وفيما بعد، في أثناء زيارتي إلى كوريا الجنوبية، كان لي مناقشات حامية نوعاً ما مع الرئيس بارك تشونغ، حول انتهاكاته لحقوق الإنسان، ونشر القوات الأمريكية، وحول موضوعات أخرى ذات أهمية دولية. وحين كنت أستعد لمغادرة مكتب الرئيس بعد زيارتي الرسمية الأخيرة، سألني إن كان يستطيع أن يناقش معي مسألة خاصة، فسمحنا للأعضاء الآخرين بالانصراف من حاشيتنا. وصف لي الرئيس الكوري الإيمان الديني لطفليه، فأحدهما كان بوذياً والآخر كان مسيحياً، وطلب مني أن أشرح له مبادئ إيماني. وقد فعلت ذلك، وأنهينا مناقشتنا بالاتفاق على أنني سأرتب ليقوم واحد من أشهر المعمدانين في كوريا الجنوبية بمتابعة الموضوع متابعة أكبر. وبعد اشهر قليلة، اغتيل بارك على يد

رئيس دائرة الاستخبارات الكورية الجنوبية، والذي خلفه في منصب الرئاسة. ولم أعرف أبداً النتيجة النهائية لمناقشتنا الدينية.

كانت إحدى محادثاتي، وهي من أكثرها إثارة للاهتمام، وربما من أكثرها إنتاجية، مع القائد الصيني دينغ إكسياوبينغ، وهو الذي كنت قد تفاوضت معه حول العلاقات الدبلوماسية العادية بين الولايات المتحدة وبين جمهورية الصين الشعبية. ففي أثناء زيارته الرسمية إلى واشنطن، كان لنا، دينغ وأنا، عدد من المحادثات الواسعة النطاق حول كثير من نواحي الحياة الصينية والأمريكية، من أجل إقامة صداقة راسخة على أفضل ما يكون ممكناً بين شعبينا. وسألني في مأدبة رسمية في إحدى الأمسيات، ما الذي ألهمني أن أهتم أول اهتمام لي ببلده. فأجبته بأنني نُشِّئت معمدانياً وأن أبطالنا البارزين كانوا من النساء القائدات المسيحيات اللواتي ذهبن إلى الصين بصفة بعثات تبشيرية لنشر الإنجيل عن يسوع المسيح. وحين كنت طفلاً صغيراً، كنت أقدم خمسة سنتات في الشهر للمساعدة في بناء المدارس والمستشفيات للأولاد الصينيين وللبنات.

سر دينغ من جوابي وتسلى به، وأشار إلى أن النشاطات الدينية من ذلك النوع كانت قد أنهيت حين تأسست جمهورية الصين الشعبية في عام 1949. وفي الحقيقة، كان الإلحاد هو السياسة الحكومية الرسمية تحت نظام الحكم الشيوعي، وحظرت كل خدمات العبادة وتوزيع الإنجيل والكتب المقدسة الأخرى. وسألت إن كان من الممكن تغيير هذه السياسات، فطلب مني اقتراحات محددة. وبعد تفكير للحظات قليلة، قدمت ثلاثة طلبات: ضمان حرية العبادة، والسماح بتوزيع الإنجيل، وإعادة فتح الباب أمام البعثات التبشيرية. وقبل أن يعود دينغ إكسياوبنغ إلى الصين، أخبرني أن القانون الأساسي للصين سيتغير لينص على

الحرية الدينية وعلى أن الأناجيل ستجاز ويرخص بها. ولكنه لن يوافق، مع ذلك، على عودة البعثات التبشيرية الغربية لأنها، كما قال، "عاشت مثل إتاوة" وحاولت أن تقوض أساليب حياة الشعب الصيني. وخلال ثلاث سنوات، حافظ على وعديه بشرط أن تقوم أي جماعات مصلين في كنيسة جديدة بالتسجيل لدى الحكومة. وتستطيع هذه الجماعات بعدئذ أن تمارس عباداتها بحرية، كما هو مرغوب.

لقد وصفت هذه المواجهات الثلاث مع قادة سياسيين لأوضح الاهتمام بالمسيحية من غير المؤمنين أيضاً. كانت كلها مناقشات خاصة، وحاولت أن أحترم تلك الخصوصية في أثناء حياة هؤلاء المسؤولين الأجانب. وكانت هذه هي الفرضية النموذجية التي عاملت بها أنا وروزالين نواحي أخرى من حياتنا الدينية في أثناء قيامي بتولي المنصب العام.

منذ بضع سنوات خلت حاولت مجلة دينية أن توجز مثل هذه الفرضيات، وطُلِب مني أن أعبر عن تعريفي للنجاح في الحياة في خمسين كلمة فقط! وكنت في حيرة بشأن الكيفية التي أرد بها، إلى أن تذكرت خبرة خبرتها في عام 1974، حين كنت حاكماً. فقد دعاني الدكتور نورمان فنسنت بيل إلى الذهاب معه إلى مدينة ماكون في جورجيا للمشاركة في تقديم جائزة من مجلته غايدبوستس (علامات هداية) إلى جماعة مصلي الكنيسة البارزة في الأمة في هذا العام. وقال إن حوالي سبعة آلاف شخص سيجتمعون في مركز البلدية لتكريم كنيسة غير العاديين، وهم جماعة من المصلين من حوالي خمسين شخصاً من المتخلفين عقلياً.

كنت أعلم عن قدرة الدكتور بيل العظيمة بوصفه متحدثاً ملهماً. وشعرت بالمنافسة نوعاً ما حين كنت أعد خطابي الخاص. وألقينا هو وأنا أفضل خطبنا، وبعد ذلك جاءت الفقرة الختامية وهي: إشعال شمعة كبيرة بيد امرأة عضو من أعضاء الكنيسة. وكانت امرأة متوسطة العمر مصابة بمتلازمة داون. جاءت ببطء ولكن بكبرياء عبر ممر المركز وهي تحمل شمعة دقيقة مضاءة. وكان يتبعها عن قرب قسيس الكنيسة الصغيرة. وقد عرض عليها أن يثبتها ويقدم لها المساعدة. ولكنها رفضت كل مساعدة، واقتربت من الشمعة الكبيرة بثقة وكبرياء واضحين.

وترجرج اللهب الصغير للخلف وللأمام، وبرغم المحاولات المتكررة من المرأة لم تشتعل الشمعة الكبيرة. وجلس الجمهور وقد حبس أنفاسه، ولم نستطع، الدكتور بيل وأنا، أن نتجنب الشعور بالإحراج بالنسبة إليها. وتقدم القسيس ووضع يده على يدها ليثبت الشمعة الدقيقة، ولكن المرأة هزت رأسها ودفعته بعيداً.

وأخيراً، اشتعلت الشمعة الكبيرة، وانفجر الجمهور بالهتاف والتصفيق. ولكن أسْطَعَ شيء في المدرج الضخم وأكثره وضاءة كان وجه تلك المرأة الذي توهج بالسعادة.

من غير المحتمل فعلاً أن يتذكر أحد كان حاضراً هناك في تلك الليلة، قبل أكثر من ثلاثين سنة مضت، أي شيء كان على الدكتور بيل وعلي أنا أن نقوله في خطابينا اللذين أعدا بعناية. ولكن ما من أحد سوف ينسى أبداً اللحظة الظافرة حين بيَّنت المرأة عملياً إخلاصها، وثقتها، وإنجازها، واعتزازها في احتفال تلك الأمسية الذي يكرم كنيستها الصغيرة. سبعة آلاف نفس لمستها تلك المرأة بإيمانها وعزمها.

وكان من هذه الخبرة على الأخص أن اخترت خمسين كلمة في الجواب عن سؤال المجلة:

اعتقد ان اي إنسان يستطيع أن يكون ناجحاً في الحياة، بغضّ النظر عن الموهبة الطبيعية أو البيئة التي نعيش فيها. وهذا لا يستند إلى قياس النجاح بالمنافسة الإنسانية على الثروة، والممتلكات، والتأثير، والشهرة، بل بالتمسك بمعايير الله من الحقيقة، والعدالة، والتواضع، والخدمة، والرحمة، والتسامح، والحب.

منذ أن غادرت البيت الأبيض، كنت أستاذاً في جامعة إموري طوال ربع قرن تقريباً، وحاضرت في مدرسة اللاهوت في الغالب وفي قسم الدين، حيث وجدت معرفتي الأساسية باللاهوت مفيدة في الإجابة عن أسئلة الطلاب. ومن ناحية اخرى نبذل، روزالين وانا، جهداً خاصاً لنكون في البيت في مدينة بلينز في أيام الأحد، وانا أعلّم فصلاً عن الإنجيل في ما يصل إلى حوالي ثلاثين او أربعين مرة في السنة في كنيسة مارانثا المعمدانية للأعضاء الكبار في كنيستنا وللزوار الذين يحضرون. وهذه الدروس مصورة في افلام ومسجلة على أشرطة التسجيل وتوزع على نطاق واسع. ولا استطيع القول إن كانت دراساتي اللاهوتية مفيدة جداً في هذه الفصول في مدينتي الوطن، وفي هذه الدروس لم أجِد مطلقاً بأي طريقة ملموسة عن التعبير عن المعتقدات المسيحية التقليدية التي ورثتها عن والدي.

من بين عدة مئات من الذين يحضرون دروسي في يوم الأحد من كل اسبوع، فإن حوالي 15 بالمائة فقط هم من المعمدانيين. وحين آخذ بضع دقائق للسماح للحاضرين في فصلي بالتعريف بأنفسهم، يتبين عادة أن هناك ما يصل إلى ستة

من الطوائف البروتستانتية من "مجرى التفكير العام" ممثلة في الحضور، ويرافقهم في الغالب الروم الكاثوليك،[14] والأميش،[15] والمينونايتس،[16] والكويكرز،[17] والمؤمنون بالقدوم الثاني للمسيح. إن كنيستنا ترحب باليهود، وبالمسلمين، وبالعابدين الآخرين غير المسيحيين، ونحن نشجع كل حاضر في الدرس أن يأخذ دوراً في المناقشات. وهم يبعثون على الاهتمام تماماً ومعينون لي. وعلى مر السنوات اكتسبت تبصراً في معتقدات وفي مصالح كثيرين من المتدينين الآخرين.

* *

الفصل الثالث

صعود الأصولية الدينية

في خطابي لنوبل في عام 2002 في اوسلو، قلت: "إن العصر الحاضر هو وقت متحدٍ ومقلقٌ لأولئك الذين تشكلت حياتهم بالإيمان الديني المستند إلى لطف بعضهم ببعض". وحين طلبت مني مجلة المسيحية اليوم ان أشرح هذا النص، أجبت:

"هناك اتجاه نحو الأصولية يلفت الأنظار في كل الأديان. ومن جملتها الطوائف المختلفة من المسيحية، إضافة إلى الهندوسية، واليهودية، والإسلام، كذلك وبشكل متزايد، يميل المؤمنون الحقيقيون إلى البدء بعملية يقررون فيها ما يلي: "نظراً إلى أني مستقيم مع الله، فأنا أعلى من الآخرين، ومعتقداتي هي التي يجب أن تسود، وأي إنسان يختلف معي فهو مخطئ بالفطرة". والخطوة التالية هي أنه "بالفطرة أدنى". والخطوة النهائية هي أنه "دون الإنسان". وبعدئذ فإن حياة هؤلاء المخالفين ليس لها قيمة.

"وقد خلق ذلك الاتجاه نزاعات دينية شديدة، في كل أنحاء العالم. وأولئك المسيحيون الذين يقاومون الميل نحو الأصولية والذين يتبعون اتباعاً حقيقياً طبيعة يسوع المسيح، وأعماله، وكلماته، يجب عليهم أن يحتووا الناس الذين يختلفون عنا بعنايتنا بهم، وبكرمنا، وتسامحنا، ورحمتنا، وبحبنا الذي لا يعرف الأنانية.

"ليس من السهل عمل ذلك. فهناك ميل إنساني طبيعي هو ان نصبُ أنفسنا في قالب مختصر على شكل نكون فيه أعلى من الناس الذين هم مثلنا تماماً، وان نفترض أننا ننجز عهد حياتنا إذا نحن حددنا حبنا بأسرتنا الخاصة أو بالناس الذين يشبهوننا ويتوافقون معنا فقط. إن الاختراق عبر هذا الحاجز والوصول إلى الآخرين هو ما يجسد المسيحي. وهو ما يضاهي المثل الكامل الذي وضعه لنا المسيح".

لقد كان هناك، بالفعل، اتجاه مثير للقلق نحو الأصولية في السنوات القريبة، بين القادة السياسيين وداخل الجماعات الدينية الكبيرة في الخارج وفي بلادنا على حد سواء، وقد صاروا متشابكين بشكل متزايد. وقد شعرت بأثر هذه الحركة لأول مرة حين تولى آية الله الخميني قيادة إيران، ووصم الولايات المتحدة الأمريكية باسم "الشيطان الأكبر". وشجع شبابه واتباعه المقاتلين على أن يمسكوا باثنين وخمسين من العاملين في سفارتنا أسرى لمدة أربعة عشر شهراً. وكان هذا العمل المشين انتهاكاً مباشراً للقانون الدولي، وكذلك فإن تفسيراته الأصولية لكتب الإسلام المقدسة[18]، التي بنى قيادته الدينية عليها، تعارضت مع التعاليم التقليدية للقرآن الكريم المتصلة بالسلام، وبالرحمة، وتعارضت بصورة محددة مع المعاملة الكريمة للزوار أو للدبلوماسيين من الأمم الأخرى.

قبل القبض على رهائننا في إيران ببضعة أسابيع، جاء إلى المكتب البيضاوي ليزورني، رئيس المؤتمر المعمداني الجنوبي المنتخب حديثاً. وكانت هذه الزيارة مظهراً احتفالياً روتينياً طوال سنوات عدة، وخصوصاً حين تصادف أن يكون رئيس الولايات المتحدة معمدانياً. وهنأته بمنصبه الجديد، وقضينا بضع

دقائق نتبادل المجاملات. وحين كان هو وزوجته يغادران، قال: "إننا نصلي، أيها الرئيس، من أجل أن تتخلى عن العلمانية الإنسانية ديناً لك." وكان هذا القول صدمة لي. فأنا اعتبرت نفسي معمدانياً مخلصاً وتقليدياً، ولم يكن لدي أي فكرة عما كان يعنيه.

فيما بعد، عقب حضور خدمات عبادة في الكنيسة المعمدانية الأولى، تقابلت مع قسيسنا وطلبت منه أن يشرح لي التعليق المزعج. ورد بأن مجموعة صغيرة من المحافظين من قادة المعمدانيين الجنوبيين قد حشدوا دعماً سياسياً كافياً في المؤتمر لانتخاب رئيس جديد، وهي حادثة لم أكن أعرف عنها إلا لماماً وبالمصادفة. ومن دون أن يعرف قسيسنا إلى أي حد يذهب في الإجابة عن أسئلتي، فقد ظن أنني اتخذت بعض القرارات الرئاسية التي قد تكون على خلاف مع المواقف السياسية التي يتبناها قادة من الأكثرية الأخلاقية التي تشكلت حديثاً وجماعات أخرى من المحافظين المسيحيين. وبعض الأشياء التي نظرنا فيها كانت تتصل بأنني كنت قد عينت العديد من النساء في مناصب عالية في الحكومة، ورفضت استخدام أرصدة الحكومة في التعليم الديني، وأسست قسماً مستقلاً للتربية لتعزيز المدارس العامة، وقبلت قرار الإجهاض، قرار رو ضد ويد،[19]من المحكمة العليا، وعملت مع المورمون[20] لحل بعض مشكلاتهم في البلاد الأجنبية، وجعلت العلاقات الدبلوماسية طبيعية مع الحكومة الشيوعية للصين، ودعوت إلى وطن للفلسطينيين ورفضت أن أنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، وكنت أتفاوض مع الاتحاد السوفييتي حول السيطرة على الأسلحة النووية وقضايا أخرى.

وكنت أنا وقسيسي معاً ما نزال في حيرة، ولكن لم يكن لدي خيار آخر سوى أن أتجاهل الاستنكار وأن أتابع فعل ما كنت أعتقد أنه الأفضل لبلادنا

(وهو متفق أيضاً مع معتقداتي المعمدانية التقليدية). وفي الوقت نفسه. بدأت أتعلم ما أستطيعه عن كل من الإسلام وعن النواحي العامة من الأصولية.

طوال أجيال. كان قادة داخل كنيستي وطائفتي قد وصفوا أنفسهم بأنهم "أصوليون"، مدعين بذلك أنهم كانوا متمسكين بالعناصر الأصولية لمعتقداتنا المعمدانية ومقاومين لضغوط العالم الحديث وتأثيره. هذا الميل "للتمسك بالمبادئ التي لا تتغير"، هو ناحية من الدين يمكن فهمها وهي ناحية لطيفة منه، وهو موقف عام شاركت فيه في أثناء معظم حياتي.

وسرعان ما علمت أنه كان هناك شكل أشد من الأصولية، ولها خصائص غالبة:

- يقود الحركات الأصولية، بشكل لا يتغير تقريباً، رجال متسلطون يرون أنفسهم أعلى من الآخرين، ولهم داخل الجماعات الدينية التزام كاسح بإخضاع النساء وبالهيمنة على رفاقهم المؤمنين.
- ومع أن الأصوليين يعتقدون في العادة أن الماضي أفضل من الحاضر، فهم يستبقون مع ذلك نواحي معينة مفيدة لأنفسهم من معتقداتهم الدينية التاريخية ومن العالم الحديث معاً.
- يرسم الأصوليون تمييزات واضحة بين أنفسهم، بوصفهم مؤمنين حقيقيين، وبين الآخرين. وهم مقتنعون أنهم على حق وأن أي شخص يناقضهم جاهل ومن الممكن أن يكون شراً.
- الأصوليون حربيون في القتال ضد أي تحد لمعتقداتهم. وهم في الأغلب غاضبون ويلتجئون أحياناً إلى الإساءة اللفظية أو الجسدية أيضاً ضد الذين يتدخلون في تطبيق جدول أعمالهم.

- يميل الأصوليون إلى جعل تعريفهم لأنفسهم ضيقاً ومقيداً على نحو متزايد، من أجل عزل أنفسهم، وتحديدها بالقضايا العاطفية الغوغائية، وبالنظر إلى التغيير، والتعاون، والتفاوض، والجهود الأخرى لحل الاختلافات بوصفها علامات ضعف.

وباختصار، هناك ثلاث كلمات تميز هذا النوع من الأصولية: التصلب، والهيمنة، والإقصاء.

* *

الفصل الرابع

النزاعات المتنامية بين المتدينين

إن وجود الكنيسة المسيحية الأولى نفسه كان عرضة للخطر من المجادلات المحدِثة للانقسام، من مثل الجدل حول وجوب أن يصير المرء يهودياً مطهراً ووجوب أن يتبع قوانين التوراة قبل أن يقبل المسيح مخلصاً، وجواز أن يُؤكل اللحم الذي قُدم للآلهة الوثنية، واي يوم من الأسبوع كان يجب اعتباره مقدساً، واي الدعاة المرسلين يكون هو المفسر البارز لبعثة يسوع المسيح. وكان العنصر الشافي للانقسام هو الإدراك أن الدنو أكثر من المسيح خفّض أهمية الخلافات الإنسانية وقرّب الناس اكثر احدهم إلى الآخر.

قُدّر انه كان يوجد الف مسيحي فقط في العام 40 بعد الميلاد، بعد سبع سنوات من موت يسوع المسيح وبعثه. ومع اكتساب جماعات المصلين المحلية القوة والتأثير، وقع المؤمنون المبشرون تحت اضطهاد مرعب من القادة الدينيين الآخرين ومن الفاتحين الرومان. وبسبب الجهود الناجحة لحل خلافاتهم اللاهوتية الخاصة، ثم لاحقاً بسبب التأثير المسيحي القوي للإمبراطور قسطنطين، وفي غضون ثلاثة قرون كان عدد المسيحيين المجاهرين باعتناق الدين قد زاد إلى ما يقارب ثلاثين مليون نسمة، او حوالي 55 بالمائة من عدد مواطني الإمبراطورية الرومانية الشاسعة.

هناك الآن حوالي البليونين من المسيحيين، أو ثلث سكان العالم. ولكن من المحتمل أن يكون المؤمنون بالمسيح في الأيام الحديثة منقسمين انقساماً حاداً اكثر

مما كـان عليـه المسـيحـيـون في تلك الأيام الأولى. ولا بد، في أثناء اي عـصـر تاريخي بالنسبة إلى المسيحيين، من عدم الاتفاق على بعض القضايا الاجتماعية والدينية، ومن المشروع مشروعية كاملة، لا بل من المثير للإعجاب، بالنسبة إلينا نحن، الأمريكيين، أن نعزز معتقداتنا الشخصية من خلال العمليات الدينية أو السياسية. ومن المثير للاهتمام أن طوائفنا الكثيرة المختلفة متباعدة إحداها عن الأخرى، ونادراً ما تكون متنافسة، ولا توجد حوارات مهمة بين المعمدانيين، والميثوديين، والأسقفيين، أو بين البروتستانت والكاثوليك ايضاً. ولكن توجد في العمق في داخل كل طائفة بروتستانتية وتوجد كذلك بين الروم الكاثوليك خلافات متنوعة مزقت المؤمنين بعيداً احدهم عن الآخر، وفرقت الطوائف أحياناً بشكل دائم ورسمي.

وبصفتي مسيحياً إنجيلياً، فأنا مهتم اهتماماً عميقاً بشأن المناقشات الكثيرة المثيرة للانقسام والتي دقت هذه الأسافين العميقة بيننا. والخلافات التي تشاع إشاعة شديدة تتضمن مشكلات اجتماعية، ولكن الكثير من نزاعاتنا لها معان دينية ضمنية لم تثر إلا القليل من الاهتمام بين غير المسيحيين، مثل كهانة المؤمنين، والحكم الذاتي للكنائس المحلية، وأن القسس خدم، ودور النساء في الكنائس، والكالفنية، والتقدير الإلهي بأن المجيء الثاني للمسيح سوف يسبق العصر الألفي، والعصمة من الخطأ، والخلق، وقضايا علمانية أخرى مثل الحرية الأكاديمية في كلياتنا ومعاهدنا العليا.

وزيادة على ذلك، ففي صفوف الزملاء الأعضاء في الكنيسة والذين تعبدنا معهم روزالين وأنا، هناك مؤمنون مخلصون بشكل رائع يقبلون كل كلمة في الإنجيل (وتفضل نسخة الملك جيمس) بوصفها صحيحة حرفياً. وإيمانهم بخالقنا

يقتضي الاعتقاد بأن ذلك الكون خلق في أثناء ست دورات من الأرض على محورها، وبأن أول امرأة برزت من ضلع آدم منذ حوالي ستة آلاف سنة، وكلاهما هي وهو ولد أصلاً في شكله الإنساني الحاضر. ونحن نقبل إخلاص إيمانهم من دون سؤال. وزيادة على ذلك، ومع أن بعض الناس يستحوذ عليه وسواس بهذه القضايا، فإن من غير المثمر وغير المنتج أن يدور الحوار حول مسائل من هذا النوع.

ونستطيع، نحن المسيحيين، أن ندعم مناقشاتنا في أي موضوع تقريباً بالاختيار الحريص لآيات معينة من الكتب المقدسة، ثم نزعم بعدئذ أن من الواجب أن تطبق هذه بشكل شامل. والانقسامات في صفوف المسيحيين تستند، بلا استثناء تقريباً، إلى افتراض تفوق إحدى الجماعات على الآخرين. وإنه لمن الصعب جداً أن نبجل الكثير من مواعظ القديس بطرس، وكلمات يسوع نفسه: "لا تَدِينُوا، لكيلا تُدانوا". ويمكن للانحراف عن موعظته أن يؤدي إلى تجاهل، أو إلى إدانة، بل إلى اضطهاد أولئك المختلفين أو الذين ينظر إليهم على أنهم أقل في حالة ما. وكثيرون منا، نحن المعمدانيين، كانوا مبتئسين حين صرح الرئيس المنتخب لمؤتمرنا أن الله لا يسمع صلوات يهودي.

وابتداء من حوالي خمسة وعشرين عاماً مضت، بدأ بعض القادة المسيحيين يشكلون اتحاداً مع الجناح الأكثر محافظة في الحزب الجمهوري. ومثل هذا الزواج السياسي يتعارض مع إيماني الشخصي بفصل الكنيسة والدولة. وكنت سأشعر بالشعور نفسه لو أن الزواج كان مع الديمقراطيين.

والآن، استطاع قادة من اليمين المسيحي المنظم تنظيماً شديداً أن يرفعوا رفعاً ناجحاً مستوى بعض أشد القضايا الاجتماعية إثارة للانقسام ليدخلوها في

الحوار السياسي الأمريكي. وأكثر الأمثلة حيوية يتضمن قضية التفضيل الجنسي، وهي قضية لها، كما هو واضح، مضامين من المعاني الشخصية والعاطفية الشديدة. وزيادة على ذلك، وبصورة فاجعة، نقلت هذه المسائل الاجتماعية المثيرة للانقسام إلى صدر المقدمة من مشهد الانتخابات الرئاسية. وفي الوقت ذاته، فإن جميع البروتستانت تقريباً يتغاضون عن الطلاق الآن بوصفه أمراً مقبولاً. ونادراً ما يشددون على زنا العزاب أو زنا المحصنين، مع أن يسوع المسيح دان هذه الممارسات الجنسية بشكل متكرر. إن من الأسهل بكثير ومن المريح اكثر أن نركز على الخطايا التي لم نكن نُعرف اننا مذنبون بها.

إن جماعات مصلي الكنائس البروتستانتية، والمعمدانيون منهم على وجه الخصوص، كانوا دائماً ميالين إلى الانقسام بسبب القضايا اللاهوتية، أو المسائل الاجتماعية، أو النزاعات الشخصية، وقد يكون هذا واحداً من الأسباب لتوسعنا الهائل. وكنيستنا الخاصة، كنيسة ماراناثا المعمدانية في مدينة بلينز كانت قد تأسست حين كنت أنا في البيت الأبيض على يد مجموعة صغيرة ممن كانوا أكثر اعتدالاً نحو بعض القضايا من كنيستنا الأصلية، بما في ذلك قبول المتعبدين السود والترحيب بالزوار الآخرين. ولكن من عهد قريب، وفي كل أنحاء المسيحية، فإن هذا المزيج من القضايا الاجتماعية واللاهوتية جلب معه ضغناً شديداً متزايداً، ويبدو أن هذا النمط هو السائد أيضاً في صفوف اليهود والمسلمين.

وبعد أن غادرنا البيت الأبيض، بدأنا، روزالين وأنا، نلاحظ التغيرات داخل المعتركات السياسية والدينية للحياة الأمريكية، واقترانها البطيء ولكن الثابت. ولم يكن لدينا اي فكرة إلى اي مدى سيكون عمق تأثير هذه الثورة، علينا شخصياً وعلى امتنا معاً.

وصرنا نشيطين في كنيسة بلدتنا، التي كانت دائماً منضمة إلى المؤتمر المعمداني الجنوبي. وكنا نسبياً مراقبين عرضيين للتحالف المحافظ الذي كان يكسب بثبات المزيد من المواقع القيادية ثم وصل بعدئذ إلى الهيمنة على شؤون المؤتمر. وكانت خطواتهم التالية هي البدء بفرض قراراتهم اللاهوتية على الآخرين، وبتقليل مستوى الحرية الأكاديمية بشكل مؤثر. ومع أنني استنكرت بعض السياسات الجديدة لمؤتمرنا والاصطفاف المتنامي لقادته مع الحزب الجمهوري، فقد كان أملي المستمر هو أن أرى شفاء للاختلافات الناشبة في صفوف المعمدانيين كي نستطيع أن نعمل معاً في جهودنا الكوكبية الإنجيلية.

وبعد أن صارت الانقسامات أعمق وأخفقت الجهود الأخرى، قررت أن أدعو سلسلة واسعة من المعمدانيين المؤثرين إلى مكتبي في مركز كارتر، في أطلانطا، لاستكشاف الفرص من أجل درجة معينة من المصالحة. ومما يبعث على الدهشة، أن الاستجابة الإيجابية كانت بالإجماع تقريباً، وكان معنا ثلاثون زعيماً معتدلاً ومحافظاً ملتحقين معي. ووافق الجميع على الا يبدي أحدهم أي ملاحظات نقدية عن الآخرين أو عن أي أشخاص لم يكونوا حاضرين. وحين اقترحت أن من المفيد أن يصدر بيان مشترك يعبر عن الاحترام المتبادل والهدف المشترك، طلبوا مني أن أقدم لهم مسودة البيان. وبعد بعض التحرير، وقع البيان ستة وعشرون من المشاركين، ومن جملتهم ستة رجال كانوا أو سيكونون رؤساء للمؤتمر المعمداني الجنوبي. وتم نشر النص وإذاعته على نطاق واسع.

اعترف البيان أن هناك قضايا تثير الانقسام بيننا، وأننا كنا نرغب في حلها من خلال الصلاة. ووعدنا أن يعامل أحدنا الآخر بصفتنا إخواناً وأخوات في المسيح. وتعهدنا أيضاً أن نعزز الحرية الدينية وأن نشكل أحلافاً مع المسيحيين من ثقافات أخرى ومن جماعات عرقية أخرى.

وهذا ما وفر فترة فاصلة سعيدة ولكنها قصيرة جداً، في حين استمرت الحوارات اللفظية وتبنى المؤتمر سياسات حصرية بشكل متزايد. وحدث انشقاق كبير وربما دائم في المؤتمر المعمداني الجنوبي السنوي في عام 2000، وذلك حين تم تبني بيان جديد عن "الإيمان والرسالة المعمدانيين". وكان الاهتمام الفائق بالنسبة إلى معمدانيين كثيرين هو حذف مسلمة مقررة سابقة بأن "السلطة الوحيدة للإيمان وللممارسة بين المعمدانيين هو يسوع المسيح، الذي تجلت إرادته في الكتب المقدسة". وفي الواقع، كان هذا التغيير يعني إحلال القادة المعمدانيين الجنوبيين محل المسيح بصفتهم مفسرين للكتاب المقدس الإنجيلي. ومع أنه كانت هناك عهود جدية بأن قبول هذا البيان الجديد سيكون طوعياً، فسرعان ما صار واضحاً أنه سيفرض ليكون عقيدة إلزامية على جميع مسؤولي المؤتمر، وموظفيه، وعلى العمداء والأساتذة في الكليات والمعاهد العليا، وعلى البعثات التبشيرية التي تعمل في البلاد الأجنبية ايضاً. وفاقت صرامة هذا الانصياع الإلزامي صرامته في كنيسة الروم الكاثوليك أو داخل الطوائف البروتستانتية الأخرى.

كانت العقيدة الجديدة مزعجة بما فيه الكفاية، ولكنها كانت مع ذلك ممتزجة مع تغييرات أخرى تبتعد عن المعتقدات المعمدانية التاريخية، ومن جملة ذلك خلط الدين بالسياسة، والهيمنة من القسس الذين كانوا كلهم من الذكور، وإقصاء المعمدانيين التقليديين عن شؤون المؤتمر، وامتهان النساء وإخضاعهن، والتعديات على الحكم الذاتي للكنائس المحلية، وعناصر أخرى من الأصولية الجديدة. وصار واضحاً بشكل متزايد أن قادة مؤتمرنا كانوا فعلاً في نزاع مع المسيحيين التقليديين أو المسيحيين في مجرى التفكير العام. وبعد الكثير من الصلاة والتحليل الدقيق للذات، قررنا، روزالين وأنا، أن نقطع علاقاتنا

الشخصية بالمؤتمر المعمداني الجنوبي، في الوقت الذي نستبقي فيه أعرافنا ومعتقداتنا المعمدانية العريقة داخل كنيستنا المحلية الخاصة بنا.

ووضعت موضع التنفيذ الهيمنة الشاملة تقريباً من القسس المعمدانيين على الأشخاص العاديين، بالاستناد إلى هذا البيان من قائد محافظ بارز هو، دبليو إيه كريزول ويقول: "القيادة العلمانية غير الكهنوتية للكنيسة ليست إنجيلية حين تضعف سلطة القسيس بوصفه حاكم الكنيسة". وهذه الفرضية تنتهك إعلان المسيح بأنه كان خادماً، وأن حوارييه سيكونون خدماً، وأن الأعظم سيكون هو خادم الجميع. من المؤكد أنه لم يكن هناك استخدام إنجيلي لكلمة "حاكم"، ولكن هذا الترويج للذات من القسس كان قد فرض رسمياً في عام 1988، وهو الآن ينطبق عموماً في كل أنحاء المؤتمر المعمداني الجنوبي، ومعظم مؤتمرات الولاية، وعلى الكنائس الكبيرة على وجه الخصوص.

وأحدث حركة هي قرار قادة المؤتمر أن ينسحبوا من الحلف المعمداني العالمي، وهو منظمة دولية ساعد المؤتمر المعمداني الجنوبي على تنظيمها ولعب فيها دوراً رئيسياً طوال قرن من الزمان. وزعمهم المثير للدهشة هو أن الحلف المعمداني العالمي صار فجأة "ليبرالياً" جداً أكثر من أن يستطيعوا الاستمرار في المشاركة فيه، وهو زعم مرفوض رفضاً عميقاً من المسيحيين الأوروبيين الأبطال الذي قاتلوا جور الشيوعية السوفييتية بالتمسك بتراثهم الديني التقليدي.

قد لا يكون هذا التركيز مني على الأحداث داخل طائفتي الدينية الخاصة مثيراً لاهتمام بعض القراء بوجه خاص، ولكن كان له تأثير عميق على كل مواطن أمريكي من خلال تغييرات مشابهة ومترابطة يجري صنعها في النظام السياسي لأمتنا. في أثناء ربع القرن الأخير، كانت هناك حركة موازية من الجناح اليميني

داخل السياسة الأمريكية، وكانت في الغالب مرتبطة مباشرة مع صفات جماعات مسيحية مشابهة في الرأي. وتتضمن المبادئ الثورية السياسية الجديدة محاباة خاصة لصالح القوي على حساب الآخرين، والتخلي عن العدالة الاجتماعية، وتسويد السمعة لأولئك الذين يختلفون، والإخفاق في حماية البيئة، ومحاولات لاستبعاد أولئك الذين يرفضون أن ينسجموا، وميلاً نحو العمل الدبلوماسي الأحادي وبعيداً عن الاتفاقات الدولية، وميلاً مفرطاً نحو النزاع، واعتماداً على الخوف وسيلة للإقناع.

حين ألقي دروسي في فصولي عن الإنجيل، أحاول أن أشرح جوهر إيماننا وأن أُلهم المستمعين أن يربطوا المسيحية بحياتهم الخاصة اليومية. والحوارات المثيرة للانقسام التي يبدو أنها تستحوذ كالوسواس على المجتمع المسيحي الحديث لا تتوافق توافقاً قريباً جداً مع الرسائل التي أختارها عادة. وفي يوم أحد طلبت من الحضور في فصل كبير، وكان معظمهم من الزوار، أن يسموا البنود التي يجري الآن مناقشتها على أوسع نطاق في طوائفهم المختلفة. وبالإضافة إلى بعض القضايا الاجتماعية، فقد سموا بسرعة الصلاة الإلزامية في المدارس، واستخدام الأرصدة العامة لدعم التعليم الديني، وخدمة النساء بدور القادة، والنشوء والتطور، وعرض الوصايا العشر في الأماكن العامة، والحكم الذاتي لجماعات المصلين المحليين، والقبول القسري للعقائد، وإعلاء مقام القسس، وانهيار الحواجز بين الكنيسة والدولة.

لم يكن هناك أي ذكر للمسائل اللاهوتية أو الدينية التي تضمنت غايتنا المشتركة لمذهب الكنيسة الإنجيلية في كل أنحاء العالم، أو كيفية تنفيذ تعاليم يسوع المسيح في حياتنا اليومية. كان من الواضح أن الكثير من طاقتنا يصرف

في الحـرب المضنيـة، وفي المجـادلات والحـوارات التي لا تبـعث على الانقسـام وحسب ولكنها تميل إلى تعطيل قدرتنا حين نعمل باسم المسيح أيضاً. واتفقنا أنه ما يزال هناك درجة مرضية من الانسجام داخل معظم جماعات المصلين المحلية، وأن المجادلات تتم على مستوى تنظيمي أعلى من مستوى المصلين.

حين يكون هنـاك تعبيـر عن المحاباة، أو الهيـمنة، أو العداوة الدفـينة داخل المجتمع الديني، فإنه يميل إلى إثبات صحة نفس المواقف الموجودة بين الجماعات العلمـانيـة أو الحكومـيـة كـذلك التي تملك أهواء شـخـصـيـة. وليس مـصـادفـة أن كنائسنـا المسـيحـية، على الأقل في الجنوب، كانت مـعروفة جيداً بوصـفـها آخـر معاقل العزل العنصري. ومن المجحف أيضاً، وجود التمييز ضد النسـاء، وهو الآن علني تماماً ومـقبول بوجه عام. وهذه الأنواع من القـرارات الدينيـة مسـتندة إلى اختيارات انتقـائية للغاية من الكتب المقدسـة يختارها رجال بيض مهيمنون، وهي تتـجاهل المقدمـة الشـاملة لأعمـال المسيح ولتـعاليـمه ولأعمـال قادة الكنيسـة المسيحية الأولى وتعاليمهم.

والخلافات الكثيرة بين المسيحيين تخلق اضطراباً، وتشظياً، وضغينة كذلك، ومن العـسيـر بالنسـبـة إلى المؤمنـين الأفـراد أن يفـهـمـوا العنـاصـر الأسـاسـيـة من إيماننا وأن يتمسـكوا بها. والنتيجـة الكبيـرة لكل هذه الانقسـامـات هي أن العمل التبشيري الإنجيلي الكوكبي يعاني منها وكذلك فإن سمعتنا تلوثت ونحن نتخاصم أحـدنا مع الآخـر. وبدلاً من هذا، يجب على الدين أن يوفـر الطريق إلى شـفـاء الخـلافـات التي تفصل بين الناس، مسـتنداً إلى القـانون العظيم الذي علمنا إياه المسيح، وهو أن نحب جيراننا مثلما نحب أنفسنا.

ربما كان أوسع وأجمع مدى من الرأي بين البروتستانت الأمريكيين هو الموجود في الجمعية القومية للإنجيليين، وهي جماعة أشعر أنني متلائم معها في معظم القضايا. فبالإضافة إلى حمايتهم للحياة، فإن جدول أعمالهم يضع تشديداً قوياً على السلام، وكبح العنف، وتقوية الحياة الأسرية، وحماية الأطفال، والعدالة والرحمة للفقراء، وللمعرضين للنقد والهجوم، ولحفظ الحرية الدينية، ولصيانة حقوق الإنسان، ولحماية البيئة. وفي بيانهم الأخير، الصادر في نيسان/ إبريل 2005، هناك دعوة إلى ضوابط صارمة "للحرب العادلة" موضوعة على المبادرة إلى نزاع مسلح، وأن تكون الحرب هي الملاذ الأخير فقط، وفي البيان أيضاً، زيادة على ذلك، تعبير عن القلق بشأن الاحترار الكوكبي. ولذلك لم يكن مثيراً للدهشة، أن قادة اليمين الديني عارضوا غالبية الإنجيليين في هاتين القضيتين الأخيرتين.

هناك سوابق جديرة بالذكر بالنسبة إلى المسيحيين ليستوعبوا الاختلافات القوية وليعملوا مع ذلك معاً في سبيل تعزيز مملكة الله. لقد كتب البقاء للكنيسة الأولى حين قدمت أصولُ الإيمان روابطَ كافية للتغلب على الشقاق ولتوحيد المسيحيين غير المعصومين من الخطأ والمحبين للجدل. وربما يكون علينا، وللمرة الثانية، أن نتصالح من خلال محاكاة أعمال المسيح وتعاليمه واتباع التماس القديس بطرس الذي وجهه إلى الكنائس الأولى:

"الآن ألتمس منكم، أيها الإخوة، باسم سيدنا يسوع المسيح، أن تسموا كلكم إلى الشيء نفسه، وألا يكون هناك أي انقسامات بينكم، وإنما أن تكونوا مشتركين معاً على وجه الكمال في الرأي نفسه وفي الحكم نفسه".

إلى الكنيسة في كورنث

"الآن يمنحكم إله الصبر والمواساة أن تكونوا متشابهين في الفكر أحدكم نحو الآخر تمشياً مع يسوع المسيح: وأن يكون لكم أن تقوموا بفكر واحد وفم واحد بتمجيد الله وأبي سيدنا يسوع المسيح كذلك".

إلى الكنيسة في روما

* *

الفصل الخامس

لا تعارض بين العلم والدين

لقد كانت إحدى أقدم المناقشات وأكثرها استمراراً، وخصوصاً في الولايات المتحدة، هي المناقشة التي دارت بين العلم والدين. وقد سبق لي أن كنت رئيساً لهيئة التعليم في مقاطعة سمتر في أثناء مطالع الستينيات من 1960، وكانت ما تزال محاكمة المدرّس سكوبس المشهورة بشأن "القرد" في تنسّي موضوع نقاش متكرر بعد أن مرت خمسة وثلاثون عاماً على المحاكمة[21]. وكنا واعين بالمناقشات التي تدور بين مديري المدارس في جورجيا وفي الولايات الأخرى معاً حول تعليم نظرية النشوء والارتقاء، ولكننا سعينا ونجحنا في تجنب النزاع حول هذه القضية في مقاطعتنا، وربما كان ذلك بسبب أن التعامل مع الدمج العرقي لنظام المدارس العامة وفر ما يكفي من الخلاف ليبقي الجميع منشغلين.

وأنا شاكر أن هذا الانقسام الثنائي بين القوتين المتعارضتين لم يكن بالنسبة إلي مشكلة سياسية أو شخصية. وحين كنت طالباً جامعياً وواحداً من أوائل المشاركين في الانتفاع بالطاقة النووية لأغراض سلمية، كنت راغباً في توسيع معرفتي بالفيزياء وبالعلوم الأخرى. وهذا لم يهدد، بأي طريقة من الطرق، إيماني الديني، نظراً إلى أنني كنت محصناً منذ طفولتي بآية من الإنجيل كثيراً ما تلوتها "الإيمان الآن هو مادة الأشياء المأمولة، وهو البينة الدالة على الأشياء غير المرئية" (العبرانيون 11: 1).

لقد فهمت دائماً أننا لا نحتاج إلى البرهان العلمي لإثبات وجود الله أو صفات الله. وفي الحقيقة، كلما كانت هناك بينة فيزيائية كافية للبرهان على أي نظرية أو قضية، فإننا عندئذ لا نحتاج إلى الإيمان ليكون أساساً لمعتقدنا. وزيادة على ذلك، فبالنسبة إلى أولئك الذين هم من دون معتقدات دينية محددة، فإن الشعور الداخلي بما يكون حقاً وما يكون خطأ والمهابة التي تدخل الروعة في النفس من جمال السماء المنارة بالكواكب أو من جمال غروب الشمس، أو من بروز الفراشة من الشرنقة، أو اجتهاد النملة، أو ظهور البراعم الأولى من البذرة كانت براهين كافية على وجود يد الله في حياتنا وفي الخلق.

ويبدو من الواضح لي أن الإنجيل، في مجموعه، عرض رسالة الله الروحية، ولكن المؤلفين القدامى للكتب المقدسة لم يكونوا خبراء في علم الأرض (الجيولوجيا) أو علم الأحياء، أو علم الكون، ولم يكونوا قد سعدوا باستخدام المجاهر الإلكترونية، أو أساليب تحديد قِدَم الأشياء تاريخياً بالفحم، أو مقراب (تلسكوب) هبل. ولم انزعج أبداً من آيات في الإنجيل تنص على أن الأرض مستوية أو لها أربعة أركان، وأن النجوم تستطيع أن تسقط على الأرض مثلما تسقط حبات التين من الشجرة، أو أن العالم قد خلق في ستة أيام من أيام التقويم كما نعرفها.

وكلما وجد اكتشاف علمي أو نظرية علمية أثبتتها ملاحظةُ الحقائق، فإن هذه الاكتشافات والنظريات تكون وحياً جديداً تماماً لبني البشر غير المعصومين من الخطأ بحقائق كانت موجودة من قبل. ولا يمكن أن يكون لهذه الكشوف على الأرجح اثر مضاد على مكانة الله القدير الخالق لكل الكون. وحين يكتشف العلماء معلومات جديدة حول العالم الطبيعي أو يفصحون عن معلومات عنه،

فيجب أن تترابط المكتشفات الواحد مع الآخر في نظريات تجديدية. وتجرب كل نظرية بعدئذ تجربة شديدة وصارمة بالملاحظات اللاحقة، والتي توفر للنظرية إما برهاناً إضافياً وقبولاً أو تثبت خطأها ورفضاً لها. هذه هي الكيفية التي تكشف بها الحقيقة.

إن وجود ملايين المجرات البعيدة، وتطور الأنواع، ونظرية الانفجار الكبير لا يمكن رفضها لأنها لم توصف في الإنجيل، كما لا يمكن للثقة بهذه الأمور أن تلقي بالشك على خالق الجميع. لقد أعطانا الله هذه الفرصة المثيرة من أجل الدراسة والاستكشاف، من دون أن نتوقع قطعياً أن يضم الإنجيل وصفاً لكل العالم المادي أو أن تكون الاكتشافات العلمية هي الأساس لإيماننا المسيحي.

لقد كان أحد كُتّابي المفضلين في المواضيع العلمية هو الكاتب ستيفن جي غولد[22]، وكنت قد راسلته أحياناً. وفي عام 1989 كان قد كتب ما اعتبره أمتع كتبه قاطبة، حياة رائعة: مواطن الطين وطبيعة التاريخ. ومع أن علماء الحفريات القديمة الآخرين قد نازعوا بعض مقولاته لاحقاً، فقد استمتعت استمتاعاً كاملاً بوصف المخلوقات الغريبة التي برزت من تغير مناخي تحويلي منذ حوالي 500 مليون عام. وأشار إلى التطور المتتابع لتلك المخلوقات بوصفه شيئاً مثل شريط تسجيل يمر عبر آلة تسجيل، وأما النتائج فيمكن أن تعزى إلى تسجيل عشوائي تم مصادفة بشكل كامل.

وكتبت له رسالة خاصة، تعبر عن اعتقادي انه كان هناك بوضوح بعض المنطق أو النظام في العملية. ولم يرد علي مباشرة، ولكنه لاحقاً اقتبس رايي وسخر منه بمكر في إحدى مقالاته التي كتبها في مجلته الشهرية، وشكّلت فيما بعد قسماً من كتاب. وقبل سنتين من موته في عام 2002، ارسل إلي نسخة من

كتابه صخور العصور، وهو كتابه الأخاذ الذي كان قد صممه ليحل التعارض بين العلم والدين. وكان مدخله إلى الموضوع هو أن يفصل الاثنين فصلاً كاملاً، فيما دعاه "السلطة غير المتطابقة". إن الملاحظات العظيمة للعلم تحدد العالم الطبيعي، والتعليم المجمل (السلطة) للدين يحدد العالم الروحي، ولا يجب أن يتدخل أحدهما في الآخر.

وبالنسبة إلي كان هذا المدخل مقبولاً. فليس هناك مكان للدين في الفصل الدراسي للعلوم، ولكنه لن ينهي التزام بعض المسيحيين المخلصين في رفض كل نواحي شرح تشارلز داروين للتطور او رفض أي مكتشفات جيولوجية تشير إلى وجود ارض اكثر عمراً من ستة آلاف عام. ولم يكن مدخل غولد يتوافق مع معتقدي الشخصي في أن الله خلق الكون وأن المكتشفات العلمية الجديدة، حين تبرهن، يجب أن تقبل ولو لم تكن متوافقة مع بعض الوصف الإنجيلي للخلق ولمركزية الأرض والسماوات وتوضعها.

سيكون هنالك دائماً أناس يصرون على ناحية واحدة من المعرفة مع استبعاد الناحية الأخرى وهم مبتلون بفهم أن الدين والعلم لا يمكن أن يبرهن احدهما على الآخر. وهذا لا يزعجني. فنحن جميعاً ولدنا بإرادة حرة، لنقبل أو لنرفض أي شيء نختاره. وفي الوقت نفسه، فنحن لا نملك الحق في أن نحرم الناس الآخرين الحرية في أن يدرسوا وأن يقبلوا أو أن يرفضوا القضايا المقدمة بوصفها حقائق.

منذ سنوات عديدة، كتبت قصيدة تعبر عن الصعوبة التي أجدها في فهم الأمر كله:

تأمل في ما خُلِقَ ولماذا؟

حاولت أن أسبر غور قوانين الطبيعة

من النماذج الدوَّارة ومن المخططات الإجمالية في فصل الدراسة

من الجزيئات ومن أجزاء الذرة،

وصدقت تقريباً - ولكن جاءت بعدئذ الكواركات

والبوزونات، والليبتونات، والجسيمات المضادة،

صور المرآة الدوارة المعاكسة،

بعض من التي تثقب الأرض،

لا تنحرف مطلقاً عن مساراتها الأكيدة.

استمعت إلى وجهات النظر المتضاربة

حول العالم الكبير والعالم الصغير:

انفجار كبير فيه بدأ كل شيء،

وحول فضاء منحن يتوسع دائماً.

وربما ألعاب هائلة دوارة مثل ألعاب اليو _يو

التي سوف تصل يوماً إلى النهاية

وحول الجاذبية الكونية وعندئذ

تطير راجعة إلى حيث تستطيع أن تعاود الابتداء

او تتفجر إرْباً إرباً انفجاراً كارثياً -

وبعدئذ، وبعدئذ الحدث التالي.

وهل هي كلها صدفة؟

وأنا أشعر باليقين أنها لم تكن كلها صدفة.

* *

الفصل السادس

تداخل الكنيسة والدولة

في أثناء العقدين الماضيين من الزمان، تحدى المسيحيون الأصوليون تحدياً متزايداً وعلنياً موعظة المسيح "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، ورفضوها. وكان معظم الأمريكيين يحسبون أن من المناسب بالنسبة إلى المواطنين الأفراد أن يؤثروا في السياسة العامة، ولكن ليس لجماعة دينية أن تحاول السيطرة على عمليات الحكومة الديمقراطية أو للمسؤولين العامين أن يتدخلوا في الشؤون الدينية أو أن يستخدموا القوانين أو عوائد الضرائب لمحاباة مؤسسات دينية معينة.

ومع أن القضية كانت بارزة حين كانت كاثوليكية جون كيندي موضع نقاش، فأنا أيضاً أدخلت موضوع الإيمان الديني ثانية، بشكل غير مقصود، إلى حملة الانتخابات الرئاسية. وفي ليلة من شهر نيسان/ إبريل في عام 1976 في بيت نصير سياسي من كارولينا الشمالية سئلت بصراحة إن كنت "ولدت ثانية مسيحياً" وكان هناك مراسلون للصحافة. وأجبت بصدق، "نعم"، مقدراً أن كل المسيحيين المخلصين كانوا قد ولدوا ثانية، من الروح القدس. وكانت هذه أول مرة تقحم فيها هذه الصفة الدينية في المعترك السياسي، وكان هناك ضجة فورية، واتهامات من وسائل الإعلام بأني زعمت أني كنت أتلقى رسائل مباشرة من السماء، وحسبت أني موهوب من الله ببعض عناصر القداسة والتفوق على المرشحين الآخرين. ومن تلك اللحظة وحتى نهاية الحملة، عمل المراسلون

الصحفيون القوميون أمراً كبيراً مما كان قد بدا أمراً طبيعياً لي ولمضيفيّ المعمدانيين. وصار واضحاً لي أن إقحام الدين في السياسة كان غلطة.

وكان لنا، روزالين وأنا، فرصة رائعة لننتهك هذا المبدأ الأساسي حين تلقيت استفساراً حذراً في عام 1979 من الفاتيكان حول إمكانية زيارة من البابا جون بول الثاني، بعد اقل من عام بعد انتخابه للبابوية. وكنت مسروراً أن ارسل له دعوة رسمية، وصارت هذه هي الرحلة البابوية الأولى (والوحيدة) إلى واشنطن، في مقاطعة كولومبيا. وكان الحبر الأعظم قد بيّن من قبلُ التزامه في أن يزور اكبر عدد ممكن من أعضاء أبرشياته، وكان قد ذهب إلى عدد من أمم أمريكا اللاتينية. وقام بزيارة متمهلة، قضى فيها يومين تقريباً في منطقة العاصمة، وكان لدينا وقت من أجل بعض المناقشات الطويلة.

وكان لقداسته روح رائعة لتفهم النكتة، وإضافة إلى عدة لغات أخرى، تحدث الإنجليزية بشكل جيد. وتذكرنا الشحناء الكثيرة التي بدت حين خاض جون كيندي الترشيح للرئاسة، والاتهامات بأنه إن نجح فسوف يرى الشعب الأمريكي البابا في البيت الأبيض. وحين قدمت جون بول لبعض رجال مجلس الشيوخ الزائرين، أشرت إلى أن تكهنات المحتجين من البروتستانت، قبل تسعة عشر عاماً مضت، قد تحققت وأصبحت حقيقة!

وعبرت عن عرفاني بالجميل لجهود البابا في التواصل مع المسيحيين الآخرين ومع اليهود والمسلمين كذلك، ولالتزامه الواضح في بث الحيوية الكونية في الكنيسة. وبدا مُرحباً بالتبادل الحر لوجهات النظر. واختلفت معه في إدامته لامتهان النساء واستبعادهن من الكهنوت، وهو الأمر الذي اعتبرته تحولاً عن أدوارهن في الكنيسة المسيحية الأولى. كان هذا تبادلاً منسجماً، ولكن كانت

هناك خشونة أكبر حين تحولنا إلى "اللاهوت المحرِّر" الذي كان ما يزال مسألة حوار حاد في أمريكا اللاتينية.

معظم البلاد في تلك المنطقة كانت محكومة من مستبدين عسكريين في ذلك الوقت، وكان بعض القسس والأساقفة، الذين كنت أعتبرهم أبطالاً، يرفعون أصواتهم بالكلام بحدة في حماية حقوق الفقراء المضطهدين والشعب الأصلي للبلاد. وبلا استثناء، أدان جون بول الثاني النشيطين في حقوق الإنسان وساند قادة الكنيسة الذين كانوا أكثر انسجاماً مع ما هو معهود، والذين اصطفوا مع المستبدين وأنظمة الحكم المؤذية. وحسبت أنه كان أكثر اهتماماً بالولاء للفاتيكان من الولاء لأولئك الذين عرضوا حياتهم وعرضوا مكانتهم الكهنوتية للخطر من أجل أن يخدموا الناس الذين كانوا يعانون. ومُنحت المنظمة المحافظة للغاية (عمل الله) دعماً قوياً من الفاتيكان (وتم تطويب مؤسسها قديساً فيما بعد)، وكان لقادتها تأثير عظيم في الكنيسة. وأشار زبيغنيو بريزجينسكي، مستشاري للأمن القومي، في الدفاع عن البابا، أن جون بول كان متأثراً بشدة بخلفيته في بولندا وبمعرفته بالبلدان الأوروبية الشرقية الأخرى، حيث كان القسس أو الأساقفة الذين اختلفوا مع روما ميالين إلى أن يكونوا شيوعيين. ومع ذلك، فإن هذه السياسة من الفاتيكان وغيرها من السياسات أدت في النتيجة إلى التحول الضخم من الكاثوليك إلى جماعات الصلاة البروتستانت.

واستمتعت بزيارة إلى الفاتيكان في رحلة لاحقة لي إلى إيطاليا، وقامت روزالين وابنتنا، أمي، فيما بعد بتقديم احترامهم الشخصي للحبر الأعظم. ومع أني شعرت بأنني أقرب إلى لاهوت البابا جون الثالث والعشرين، فليس هناك من شك في أن جون بول الثاني كان قائداً عظيماً حقاً، ويتحلى بقناعات أخلاقية

عميقة وبقدرة لا نظير لها في التعبير عن معتقداته المسيحية للعالم. ولم يسبق أبداً أن كان بابا قبله أكثر منه موهبة قيادية وشعبية.

كنت حريصاً على ان افصل مكانتي الرسمية بصفتي رئيساً عن عاداتي الخاصة مع أسرتي في العبادة. ولكني عملت خلف الستار مع جيمي ألين. رئيس المؤتمر المعمداني الجنوبي. على تطوير ما دعوناه "دفع المهمة الجسورة". وهو برنامج مؤتمر مجدد صمم من أجل توسيع الجهد التبشيري الإنجيلي الكوكبي للمعمدانيين. وصليت في أثناء تلك السنوات الأربع في البيت الأبيض أكثر من اي وقت آخر في حياتي. وكانت صلاتي أولاً وقبل كل شيء من أجل الصبر، والشجاعة، والحكمة لاتخاذ قرارات جيدة. وصليت كذلك من أجل السلام، لأنفسنا وللآخرين، وخصوصاً لإسرائيل ولجيرانها. وحين كانت إيران تحتجز رهائننا، سألت الله لهم العودة سالمين إلى الحرية.

ومنذ أن نشرت كتابيَّ الدينيين "الإيمان الحي، ومصادر القوة" ما زلت أسأل هل كانت معتقداتي المسيحية قد تعارضت مع واجباتي العلمانية بمنصب الرئيس؟ كانت هناك بضع مرات قليلة من عدم التطابق، ولكنني احترمت دائماً قسمي أن "أصون دستور الولايات المتحدة، واحميه، وأدافع عنه". وعلى سبيل المثال، لم أعتقد أبداً أن يسوع المسيح يمكن أن يوافق على الإجهاض أو على عقوبة الإعدام. ولكنني مع ذلك أطعت مثل هذه القرارات من المحكمة العليا بأفضل قدرة أستطيعها، وفي الوقت نفسه حاولت أن أقلل إلى الحد الأدنى ما اعتبرته آثاراً عكسية لتلك القرارات.

لقد أعلن المسيح أن خدمته كانت من أجل "جلب الأخبار الطيبة إلى الفقراء، ولإعلان الحرية للسجناء، ولاستعادة البصر للعميان، ولعتق المظلومين".

وكان هذا البيان معروفاً دائماً للمسيحيين، ولكنني بعد مدة عمر كامل من المسؤوليات في المعتركين الديني والسياسي معاً. وصلت إلى ما كان. بالنسبة إلي، نتيجة مثيرة للدهشة وعلى مضض متردد نوعاً ما. في الجهود المبذولة للوصول إلى الفقراء، وتخفيف المعاناة، وتوفير البيوت لمن لا مأوى لهم، ولاستئصال وصمة الفقر أو التمييز العرقي، وصون السلام، وإعادة تأهيل السجناء، كان شاغلو المناصب الحكومية وليس أعضاء الكنيسة هم الأرجح في تولي المسؤوليات والأقدر في إنجاز المهام الخيرية.

الحكومة والكنيسة مجالان مختلفان من الخدمة، ويتعين على الذين يشغلون المنصب السياسي أن يواجهوا اختلافاً دقيقاً ولكنه مهم بين تنفيذ المثل العليا للإيمان الديني وبين تنفيذ الواجب العام. وفي خطاب وجهته إلى زملائي المعمدانيين في عام 1978، حاولت أن أشرح ازدواجية مسؤولياتي بصفتي رئيساً وبصفتي مسيحياً:

"في الأيام الأولى لبلادنا، قال توماس جيفرسون إنه كان خائفاً من أن الكنيسة قد تؤثر على الدولة فتسلب الحرية الإنسانية. وأما روجر ويليامز، وهو الذي أسس أول كنيسة معمدانية في بلادنا، فقد كان خائفاً من أن الكنيسة قد تفسُد بفعل الدولة. وهذان الاهتمامان قادا إلى التعديل الأول، وهو الذي يحظر تأسيس أي كنيسة رسمية من الدولة، وفي الجملة نفسها، يحظر إقرار أي قوانين قد تتدخل بالحرية الدينية.

"الفصل محدد في القانون، ولكن بالنسبة إلى الشخص المتدين، فليس هناك شيء خاطئ في جمع هذين الأمرين معاً لأنكم

لا تستطيعون أن تفصلوا المعتقدات الدينية عن الخدمة العامة. وفي الوقت نفسه، طبعاً، فإنكم لا تستطيعون في الوظيفة العامة أن تفرضوا معتقداتكم الخاصة الدينية على الآخرين.

"وفي منصبي في البيت الأبيض كان يجب علي أن أعالج الكثير من المشكلات المحلية والدولية، مثل: السلام، والحرية، والانفجارات النووية، وبيع الأسلحة، والإرهاب، وأعداد السكان المتزايدة تزايداً سريعاً من دون وجود الطعام الكافي أو الرعاية الصحية. ولكن هذه القائمة أكثر من مجرد قائمة بمشكلات سياسية. هناك أيضاً مشكلات أخلاقية لكم ولي، لأنها تتضمن أوامر الله نفسها التي نصدق ونؤمن بها.

"إنني أريد أن تكون بلادنا قوية قوة كافية في كل العناصر، العسكرية وغيرها، كي لا يكون علينا أبداً أن نثبت أننا أقوياء.

"في كتابه الإنسان الأخلاقي والمجتمع اللاأخلاقي، أشار رينهولد نيبور إلى الاختلاف بين المجتمع والناس. إن التوقعات المرجوة من شخص هي من مستوى أعلى بكثير. فيجب على الشخص أن يمتلك الحب المسيحي الروحي الكامل غاية لنا، وهو حب التضحية بالذات. وأقصى ما نستطيع أن نتوقع من المجتمع هو إقامة العدالة البسيطة.

"وهكذا، فنحن بوصفنا من الناس يجب علينا أن نعمل على نحو أفضل، وخصوصاً إذا أنعم الله علينا بالفرصة لنظهر جدارتنا. ويجب على القادة أيضاً أن يكونوا حريصين على أن لا يتهيبوا أكثر من اللازم.

"... إن البلاد سوف تملك السلطة والنفوذ المؤثر بسبب العوامل الأخلاقية، لا بقوتها العسكرية، وبسبب أنها تستطيع أن تكون متواضعة لا صخّابة ومتغطرسة، وبسبب أن شعبنا يريد وبلادنا تريد أن تخدم الآخرين لا أن تهيمن على الآخرين، والأمة من دون مبادئ أخلاقية سرعان ما تخسر نفوذها حول العالم.

"ما هي غايات الشخص أو الطائفة أو البلاد؟ إنها جميعها الغايات نفسها بشكل يسترعي الانتباه: رغبة بالسلام، وحاجة إلى التواضع، وإلى فحص المرء لأخطائه والصدود عنها، والتزام بحقوق الإنسان بأوسع معنى من معاني الكلمات، مستنداً إلى مجتمع أخلاقي مهتم بتخفيف المعاناة الناجمة عن الحرمان أو البغضاء أو الجوع أو البلوى الجسدية، والاستعداد، لا بل الرغبة، في مشاركة المرء بمثله العليا، وبإيمانه مع الآخرين، لترجمة الحب في الشخص إلى عدالة".

في أثناء السنوات السبع والعشرين التي انقضت منذ أن ألقيت ذلك الخطاب، كان هناك جهد عام كبير جداً لتدمير ما تبناه توماس جيفرسون بوصفه "جدار فصل بين الكنيسة والدولة".

وقد قال بات روبرتسون مضيف نادي 700 وهو يشير إلى هذا الفرَض "ليس هناك شيء مثل هذا في الدستور، إنها كذبة من اليسار، ولن نأخذ بها بعد الآن". وهو يهاجم بشكل متكرر المدارس العامة ويدعو إلى استبدال أكاديميات دينية بها.

وقد كتب رئيس المحكمة العليا وليام ريهنكويست، في رأي الأقلية في المحكمة العليا الأمريكية يقول: "إن (جدار الفصل بين الكنيسة والدولة) هو مجاز مستند إلى تاريخ سيئ، مجاز ثبت أنه لا ينفع دليلاً للحكم. ويجب أن يهجر بصراحة وبوضوح".

وفي عام 2000، اسقط قادة المؤتمر المعمداني الجنوبي من عقيدتهم الجديدة، "ليس للدولة الحق في أن تفرض ضرائب من أجل دعم أي شكل من أشكال الدين". وساندوا بعد ذلك إيصالات من أجل المدارس الخاصة وتعديلاً دستورياً لإجازة الصلاة الإلزامية في المدارس العامة، وهم يتحدون علناً "الفصل الصارم للكنيسة والدولة".

إن تمويل الحكومة للبرامج الاجتماعية من خلال "المبادرات المستندة إلى الإيمان" يعجب المجموعات الدينية التي ليس لديها أي مخاوف بشأن كسر الجدار التاريخي بين الدين والحكومة. وهم يبدلون خدمات خيرية معينة في بيئة دينية ليحلوا محلها برامج حكومية أوسع وأكثر مساواة تواجه حاجات الفقراء الواسعة إلى العدالة الاقتصادية، مع الوصول إلى التدريب من أجل الوظائف، والإسكان الذي يقتدر عليه، والرعاية الصحية، والتعليم السليم، والأجر الملائم للعيش به. هذه المبادرات تتجنب التنفيذ التاريخي للتعديل الأول عن طريق توجيه دولارات دافعي الضرائب إلى الكنائس وإلى القائمين الآخرين على توفير الخدمات الاجتماعية المستندة إلى الدين بموجب قواعد مدبرة تسمح بالتحول من دين إلى آخر وبوضع اختبارات دينية على استئجار الموظفين. وزيادة على ذلك، فإن المبادرة تقدم أموال دافعي الضرائب لبناء وتجديد بيوت العبادة. ليس هناك من شك أن الغاية هي تمويل البرامج الدينية بشكل واضح، وقد وصل

المستوى السنوي للتمويل الحكومي الخفي من خلال المؤسسات الدينية إلى حوالي البليونين من الدولارات.

وربما كان واحداً من اغرب الأمثلة، واكثرها إثارة للقلق، لهذا الجهد السياسي الذي يبذله الجناح اليميني المسيحي المحافظ هو مهاجمة نظام المحكمة الفيدرالية نفسه، بعد أن أخفق الشيوخ الديمقراطيون في إجازة حفنة من أشد المرشحين محافظة لمنصب القاضي في القضاء الفيدرالي. وتجاهلوا حقيقة وهي أن هذا الرقم كان هو نفسه الذي عارضه الجمهوريون بنجاح من بين مرشحي بل كلينتون. عضو مجلس الشيوخ بل فيرست، وهو العضو صاحب أعلى رتبة في مجلس الشيوخ الأمريكي، راصف نفسه في بث تلفازي عام مع جماعة دينية أصولية لترويج مزاعم كاذبة تزعم أن الشيوخ الديمقراطيين الذين عارضوا بضعة قضاة كانوا يديرون "هجوماً ضد الناس المؤمنين". وأعلن قائد المجموعة أن القضائي "النشيط" يطرح "تهديداً للحكومة التمثيلية اكبر" مما تطرحه "الجماعات الإرهابية". وسمى الدكتور جيمس دوبسون، وهو راع آخر للحدث، المحكمة العليا بأنها "غير مسؤولة" و"خارج السيطرة" و"حكومة قلة مستبدة" واتهم القضاة بحملة مدتها أربعون عاماً "حملة لتحديد الحرية الدينية". (وفي مؤتمر صحفي لاحق، أنكر الرئيس جورج دبليو. بوش العلاقة بين الإيمان الديني وبين المعارضة لتعيين قضاة فدراليين).

وفي الحقيقة، فإن معظم القضاة الذين كانوا أهدافاً لهذا الهجوم الديني المنظم تنظيماً جيداً هم مسيحيون مخلصون. وعشر محاكم من ثلاث عشرة محكمة فدرالية من محاكم الاستئناف تملك بالفعل غالبية من المعينين الجمهوريين، مثلما تملك المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية هذه الأغلبية.

وهي التي انتخبتْ رئيساً في عام 2000 بقرار حزبي كان فيه خمسة قضاة في مقابل أربعة من القضاة. وفي الواقع، فإن عضو مجلس الشيوخ فيرست كان يساعد على ترويج الفرضية التي ترى أن أي أعضاء في مجلس الشيوخ يصوتون ضد المرشحين القضائيين المحافظين للغاية فإنهم معارضون لصنف من الجناح اليميني من دين الدولة. وهذا قد يكون انتهاكاً للدستور الأمريكي، على الأقل في الروح، وهو الذي يمنع أي جهد حكومي لفرض وجهات النظر الدينية على الأمريكيين.

بعد مدة قليلة من إعلان القاضية في المحكمة العليا ساندرا داي أوكونور عن تقاعدها في شهر تموز يوليو 2005، صرحت بالقول: "في كل سنوات عمري، لا اعتقد أنني سبق لي ان رايت علاقات متوترة مثلما هي الآن بين هيئة القضاة وبين بعض أعضاء مجلس الشيوخ... وإنه ليحزنني جداً أن أرى ذلك". واستمرت في القول: "والجو الحالي في حالة تجعلني أقلق على مستقبل الهيئة القضائية الفدرالية".

وبعض الجمهوريين البارزين صاروا أيضاً مهتمين اهتماماً عميقاً بشأن التأثير غير العادي للجماعات الدينية في حزبهم السياسي. وقد نشر جون دانفورث، والذي كان كاهناً من الكنيسة الأسقفية قبل أن يمثل ميسوري في مجلس الشيوخ الأمريكي، مقالة افتتاحية في جريدة نيويورك تايمز (نيسان إبريل 2005) قال فيها:

"لقد حول الجمهوريون حزبنا إلى ذراع سياسية للمسيحيين المحافظين. وعناصر هذا التحول... أجزاء من حزمة أكبر، وهي جدول أعمال للمناصب المشتركة للمسيحيين المحافظين وللجناح المهيمن من الحزب الجمهوري ...

والمشكلة ليست مع الناس النشيطين سياسياً أو مع الكنائس النشيطة سياسياً. إنها مع الحزب الذي قد ذهب بعيداً جداً في تبني جدول أعمال طائفي إلى الدرجة التي صار معها امتداداً لحركة دينية.... وبصفتي عضواً في مجلس الشيوخ، فقد قلقت في كل يوم بشأن حجم العجز المالي الفدرالي. إنني لم اقض دقيقة واحدة اقلق فيها حول تأثير الشواذ على مؤسسة الزواج. واليوم يبدو أن الأمر معكوساً".

هناك حملة صليبية واسعة الانتشار بشكل واضح، ومخطط لها بعناية. ولا يعتذر عنها، وتجري من كلا الطرفين لدمج المسيحيين الأصوليين مع الجناح اليميني من الحزب الجمهوري. ومع أن هذا المزج للكنيسة والدولة يعتبر مرغوباً من بعض الأمريكيين، فإنه مصدر قلق عميق لأولئك الذين كانوا دائماً يستمتعون بفصلهما بوصفه واحداً من قيمنا الأخلاقية.

* *

الفصل السابع

خطايا الطلاق واللواط

ننسى جميعنا، نحن المسيحيين، أحياناً تأكيدات الكتب المقدسة، "الجميع أخطؤوا وقصروا في الوصول إلى مجد الله ولا تدينوا، لكيلا تدانوا". وهي الآن تبدو مثل حادثة فكاهية، ولكنني كدت أفقد انتخابات الرئاسة تقريباً من محاولتي أن أشرح هذه الأنواع من النصوص الإنجيلية. ولن أنسى أبداً هلعي من رد الفعل حين أجبت، في أثناء حملة الانتخابات الرئاسية في عام 1976، سؤالاً لمراسل مجلة بلاي بوي عما إذا كنت قد اعتبرت نفسي أرفع من الأمريكيين الآخرين لأنني كنت مسيحياً. واقتبست بعض التعابير من موعظة المسيح على الجبل والتي أبى فيها أن يميز بين أولئك الذين قتلوا والذين حملوا البغضاء في قلوبهم، أو بين الزناة المحصنين وأولئك الذين نظروا إلى امرأة نظرة شبق. وأنكرت أنني ارتكبت زنى المحصنين، ولكنني صرحت بأنني شعرت بالرغبة الجنسية نحو بعض البنات اللواتي عرفتهن. وثارت عاصفة نارية من النقد من خصومي السياسيين ومن القادة المشهورين للكنيسة بسبب "شبقي". وفي غضون أسبوع فقدت 10 بالمائة من النقاط في استطلاعات الرأي العام.

وكما لاحظنا سابقاً، فإن إحدى الصفات المميزة المثيرة للاهتمام من صفات الأصوليين هي أنهم يتملكهم وسواس بقضية عاطفية واحدة أو قضيتين، مثلما هو الحال مع اللواط بين بعض الطوائف الدينية. فالعديد من العابدين المخلصين يحترمون اللواطيين ولكنهم يرفضون أن يعطوا مباركتهم الدينية إلى مثل هذه

العلاقات الجنسية، في حين اختار بعض الناس الآخرين الشواذ والسحاقيات ليكونوا أهدافهم الأولى وقبل كل شيء للتحقير. فقادة المؤتمر المعمداني الجنوبي، على سبيل المثال، رفعوا اللواط إلى ذروة من الأهمية الكبيرة بين الانحرافات عن تعريفهم الضيق والمتصلب بشكل متزايد للإيمان المسيحي.

وهناك ما هو أكثر إزعاجاً وهو الزعم أن متناذرة نقص المناعة المكتسب نقص المناعة الإنسانية (اتش أي في/ إيدز) هي عقوبة من الله لأولئك الذين قد ارتكبوا الخطيئة ويجب أن يعاملوا وفقاً لذلك. لقد تقابل المسيح مع المجذومين، وهم أيضاً كان ينظر إليهم على انهم خاطئون، ومدانون من الله، وقادرون على تلويث جيرانهم. وهو بذلك ضرب لنا مثلاً بالتواصل معهم، محباً لهم، وشافياً لهم، ومسامحاً لهم. إن قلة من القادة الدينيين الغوغائيين المهوشين، كانت تروج الإدانة العامة والسخرية من الشاذين ترويجاً متزايداً، ويميل القبول السياسي لهذه المعاملة إلى توثيق صحة هذا التمييز وتشجيعه.

وأتذكر أن جيري فولويل قال مباشرة بعد الهجوم الإرهابي في 9/11 على أبراج التجارة الدولية: "أنا أعتقد حقاً أن الوثنيين، ودعاة الإجهاض، ودعاة المساواة النسوية، والشواذ، والسحاقيات، الذين يحاولون بنشاط أن يجعلوا ذلك نمط حياة بديل (...) أنا أشير بأصبعي في وجوههم وأقول (أنتم ساعدتم هذا على الحدوث)". ووافق على ذلك سريعاً بات روبرتسون، مضيف فولويل في البرنامج التلفازي نادي 700.

وهناك طوائف أخرى، وهي طوائف مسيحية أكثر اعتدالاً. تتصارع أيضاً مع قضية الشواذ، ولكن نادراً ما يكون الصراع مع الإدانة نفسها والاستبعاد من المباركة المسيحية. إن المشادات محدودة عادة بتنصيب الكنائس لكهنة شواذ والقيام بعقد القرانات الدينية بين مقترنين شاذين.

ومع أن يسوع المسيح لم يُضمِّن اللواط في تذكِراته الصارمة جداً عن الانحرافات عن الحياة الصحيحة، فإن القديس بطرس ضمّن الأفعال اللواطية في قائمة طويلة من اهتماماته الخاصة. ولكنه كان حريصاً دائماً على أن يمزج مواعظه بالوعظ ضد إدانة الآخرين، وكما يعرف كل المسيحيين، فإن بطرس شدد مراراً وتكراراً على أننا جميعاً خاطئون، وأن جزاء الخطيئة الموت، ولكن من خلال الإيمان بالمسيح يمكن أن يُغفر لنا تماماً.

الدكتور جيمي ألين هو واحد من أبطالي المسيحيين. وهو آخر رئيس معتدل للمؤتمر المعمداني الجنوبي. عانت عائلته معاناة حادة من ويلات مرض الإيدز ومن رفض جماعات المصلين المعمدانيين أن يقبلوا بعض الأعضاء المصابين من عائلة ألين في الصداقة المسيحية. ويقول ألين: "مشكلتنا ليست في تعريف الخطيئة. إنها في فهم اللطف ... فإذا كنا فعلاً نحب الشخص، فإننا نستطيع أن نتعامل مع سلوكه المنحرف أو مع سلوكها المنحرف..." وأضاف: "ما لقينا وقتاً صعباً في فعله هو كراهية الخطيئة، ولكن مع حب المخطئ. ولا نكران، أن مثل هذا الموقف الإنجيلي المتوازن لن يكون موضع رضى شامل من المجتمع الشاذ. كما لن يكون مقبولاً قبولاً كاملاً من المجتمع (المستقيم). ولكننا سنسمع (حسناً فعلتم، خادم طيب ومخلص) من الشخص الذي يعتد به، في حين نتعلم نحن أن نحب في روح المسيح".

لا أرى أي إمكانية للطوائف المسيحية المتعددة في أن تحل حلا كاملا المناظرات التي تدور حول المكانة الدينية للشواذ وللسحاقيات، ولكن ليس هناك من سبب يجعل هذه القضية تدق إسفيناً بيننا أو يجعل بلادنا تنقسم في المعترك السياسي. وفي الحقيقة، هناك خلاف قليل جداً في الرأي في هذا الموضوع بين

الأحزاب السياسية، بعد أن كان المرشحان الرئاسيان في عام 2004 معارضين لزواج الشواذ ولكنهما كانا موافقين على الاتصالات الجنسية المعترف بها قانونياً والتي من شأنها أن توفر حقوقاً مدنية متساوية للمتصلين من الشواذ والسحاقيات. وبرغم هذا الاتفاق، فإن هذه القضية الضئيلة الأهمية نوقشت بحرارة في أثناء الحملة الرئاسية، ودفع بها إلى المقدمة عدد قليل من الفوغائيين السياسيين الماكرين الذين روجوا تعريف الزواج مع تعديل للدستور الأمريكي. وكانوا يعرفون أن هذا المقترح متعذر من الناحية السياسية، ولكنهم حافظوا على القضية قريبة من مقدمة الحوار العاطفي حول القيم الأخلاقية.

ونظراً إلى أن عقوبة زنى المحصنين في العصر المسيحي وفي الأزمنة الأقدم منه كانت هي الموت، ونظراً إلى أن المسيح نفسه دان بقوة كلاً من الزنى والطلاق، فإن إجراء تعديل دستوري أكثر انسجاماً مع الأصالة الإنجيلية قد يكون بالصيغة التالية: "زنى المحصنين والطلاق مدانان. ويعرف الزواج بأنه اتحاد قانوني وروحي بين رجل وامرأة حتى يفترقا بالموت". ومع وجود غالبية واضحة من الأمريكيين تتغاضى عن الطلاق وتعتقد أن من المقبول للشواذ وللسحاقيات أن ينغمسوا في سلوك جنسي مثلي، فقد يكون من الأفضل ترك الدستور الأمريكي بحاله.

جميعنا نرى أن القيم الأسرية واستقرار الزواج مهمة للغاية. ولم أكن أعرف شخصاً مطلّقاً قبل أن أذهب إلى الكلية، ولكن الطلاق الآن صار شائعاً على نحو مفزع. فمن بين كل الأمريكيين البالغين، عانى 25 بالمائة منهم طلاقاً واحداً على الأقل، مع اختلاف الحدوث بحسب الانتماء الديني والعمر. ومن بين المجموعات المسيحية الكبيرة، يأتي المعمدانيون في القمة، 29 بالمائة، والكاثوليك واللوثريون

21 بالمائة. وباستثناء الآسيويين (9 بالمائة فقط)،كان كبار القسس البروتستانت هم اخفض مجموعة (15بالمائة). أطفال فترة ازدهار المواليد بلغوا 34 بالمائة، والذين تبلغ أعمارهم بين الثالثة والخمسين وبين الثانية والسبعين 37 بالمائة، والمواطنون الأسنّ 18 بالمائة فقط. هناك اسباب كثيرة لهذا التهديد لقداسة العهود الزوجية، ولكن قلة من الناس تنظر إلى اللواط بوصفه عاملاً مهماً في هذه الكثرة من الزواجات الفاشلة.

ولعل من الواجب علينا، بدل أن نترك القضية الخلافية لتبقى مثيرة للشقاق إلى هذا الحد بين مواطنينا، أن نفصل المدخلين الأساسيين لها، وذلك بأن نترك للحكومات أن تعرف وتحمي الحقوق المتساوية للمواطنين، ومن جملتهم الذين يتزوجون "بالاقتران المدني"، ونترك لجماعات مصلي الكنيسة أن يعرفوا "الزواج المقدس".

وقد تم سن قانون في كونيكتكت في نيسان/ابريل 2005، وكان بالإجماع تقريباً، يمنح القرينين الشاذين الحقوق القانونية نفسها المضمونة للمتزوجين من جنس آخر، ومن جملة ذلك الإجازة العائلية، والمنافع الضريبية والتأمينية، والزيارات إلى المستشفى، مع نص يعرف الزواج بوصفه ارتباطاً بين رجل وامراة. وهذا تقسيم منطقي وبسيط للمسؤوليات بين الكنيسة والدولة أشعر معه بالارتياح. وبديلنا الوحيد هو أن نديم النزاع الديني غير الضروري وننتظر من المحكمة العليا الأمريكية أن تعطي جواباً نهائياً للأسئلة القانونية.

* *

الفصل الثامن

هل يوافق المسيح على الإجهاضات وعقوبة الإعدام؟

الإجهاض

من بين جميع القضايا الأخلاقية والسياسية التي تُناقش في أمريكا مناقشة حادة، فإن قضية الإجهاض هي أشدها إثارة للشقاق. وتسري العواطف في هذه القضية سرياناً عميقاً على كلا الجانبين من المسألة، وكلاهما يتغلغل في كل من سياستنا المحلية والخارجية على حد سواء. وفي الوقت نفسه، هناك إجماع عام داخل كنائسنا المسيحية على أن الجنين المتطور هو حياة إنسانية ويجب أن تحمى.

ومن المستحيل من الناحية العملية دمج وجهتي النظر الأكثر تطرفاً بشأن الإجهاض، ففي أحد الطرفين يزعمون أن هذا القرار هو بشكل صارم قرار يجب أن تتخذه المرأة بشأن جسدها بدون أي اعتبار أو باعتبار قليل للجنين. وفي الطرف الآخر يرون أن كائناً بشرياً موجود في لحظة الحمل وأن جريمة قتل تنتج عن أي قطع لتطور النطفة المخلقة، أو، أي قطع لتلقيح ببيضة الأنثى من حيوان منوي مقذوف. ولن يكون هناك أبداً أي مصالحة بين هؤلاء المؤمنين الحقيقيين.

وأنا مقتنع أن كل إجهاض مأساة لم يخطط لها، ووقعت من خليط من الأخطاء الإنسانية، وأن هذه القضية هي واحدة من أصعب القضايا الأخلاقية

والسياسية التي كان يجب علي أن أواجهها . وبصفتي رئيساً، قبلت التزامي بأن أنفذ قرار المحكمة العليا المعروف باسم رو ضد ويد. وفي الوقت نفسه حاولت في كل طريقة ممكنة أن أقلل عدد الإجهاضات إلى الحد الأدنى، من خلال القيود القانونية المحدُدة، ومنع حالات الحمل غير المرغوب فيها، وتشجيع النساء الحوامل على أن يكملن حملهن ويضعنه، وتشجيع الأبوة بتربية التبني.

وقد تلقيت وابلاً من القصف بالأسئلة حول الإجهاض من وسائل الإعلام طوال حملاتي الانتخابية ومدة رئاستي. وكانت إحدى ملاحظاتي التي تذكر ذكراً جيداً وغالباً ما يجري اقتباسها قد جاءت في مؤتمر صحفي رئاسي في شهر تموز/يوليو 1977، حين دافعت عن نقص مساندتي لاستخدام الأرصدة الفيدرالية من أجل تنفيذ الإجهاضات للأمهات الفقيرات، على رغم أن النساء الغنيات يملكن ما يستطعن به إنهاء حملهن. ومن دون تفكير مسبق مدقق أجبت عن السؤال المتصل بهذه القضية بالقول: "الحياة غير منصفة في الغالب".

وكنت أستطيع أن أرى عندئذ، والآن، أن هناك فرصة واضحة للقيام بتخفيضات جوهرية في الحاجة إلى الإجهاضات أو الرغبة فيها في الوقت الذي يتم فيه حماية الحقوق الأساسية للمرأة الحامل حسب ما أوجبت المحكمة العليا. وقد دعوت إلى تطوير إجراءات أكثر جاذبية للتبني، آملاً أن تساعد على تشجيع ولادة الطفل الذي قد لا يكون مرغوباً فيه أو غير مخطط له، وفي الوقت نفسه فهو يلبي رغبة الذين يودون أن يكونوا آباء في أن يكون لديهم طفل. وكذلك فإن إدارتي أعطت أعلى أولوية للرعاية الصحية للأمهات الجديدات ولأطفالهن.

وباختصار، فقد حاولت أن أفعل كل شيء ممكن لمنع حالات الحمل غير المرغوب فيه ولتشجيع الأمهات المنتظرات ليكملن حملهن ويضعن أطفالهن. ومن

دون أي اعتذارات، عالجت القضية بنوع ما من المدخل البسيط وهو أن "كل طفل حملت به امرأة يجب أن يكون طفلاً مرغوباً فيه". وكذلك فإن الثقافة الجنسية الصريحة والفعالة ضرورة حاسمة لمن هم دون العشرين من العمر، مع التشديد أولاً وقبل كل شيء على التعفف، ولكن على المعلومات أيضاً عن وسائل ضبط الحمل المأمونة والثابتة بالتجربة.

وكثير من النشيطين المتحمسين للحياة لا يمدون اهتمامهم إلى الطفل الذي ولد، وهم أقل من يحتمل أن يساندوا البرامج الخيرية التي يعتبرونها "اشتراكية". وهم يتجاهلون حقيقة هي أن الأم المترددة بعد أن تقرر أن لا تجري الإجهاض، ينشأ لديها عادة هي وأسرتها عدد من الحاجات مثل: التثقيف المستمر للأم، أو إجازة الأمومة من عملها، رعاية صحية خاصة، مع التأمين لتغطية التكاليف، وعلاوات الإسكان، وأجر كاف في الحد الأدنى، وائتمان ضريبي لمساعدة الأم الموظفة وطفلها ليكون لهما حياة كريمة. وثلثان من النساء اللواتي أجرين إجهاضاً يزعمن أن سببهن الأول هو أنهن لا يستطعن رعاية الطفل.

هناك مصدران رئيسان للبيانات عن الإجهاض في الولايات المتحدة: معهد الان غوتماشر ومراكز السيطرة على المرض، وتقريرهم الأخير(2002) يشير إلى أن 47 بالمائة من النساء اللواتي حملن حملاً غير مقصود يلجأن إلى الإجهاض. وست من عشر من هؤلاء النساء كن أمهات من قبل الإجهاض، مع كون 40 بالمائة منهن من البيض، و32 بالمائة من السود، و20 بالمائة من أصول امريكة اللاتينية. وأكثر من نصفهن في العشرينيات من أعمارهن، وحوالي 15 بالمائة منهن تحت سن العشرين. وليس هناك نمط واضح للعرق، أو للعمر، أو للحالة الزوجية، أو الأطفال السابقين. والعامل المشترك الغالب هو الفقر، مع حدوث

ستة من عشرة من الإجهاضات بين أولئك اللواتي لهن دخول سنوية أقل من 28000 دولار لعائلة من ثلاثة أشخاص.

ومع الرفاهية الاقتصادية والخدمات الاجتماعية القوية، وصلت المعدلات الأمريكية للإجهاض في الانخفاض في أثناء التسعينيات إلى معدلها قبل أربعة وعشرين عاماً، إلى معدل يساوي ستة عشر بالألف فقط من النساء اللواتي في سن الحمل. لقد كان معروفاً منذ مدة طويلة أنه كان يوجد إجهاضات أقل في الأمم التي تملك فيها الأمهات المنتظرات الوصول إلى موانع الحمل، وإلى ضمان أن يحصلن هن وأطفالهن على الرعاية الصحية الجيدة، وأن يكون لديهن على الأقل الدخل الكافي لمواجهة احتياجاتهن الأساسية.

وأجدر الأمثلة بالذكر هي بلجيكا وهولندا حيث تحدث سبعة إجهاضات فقط بين كل ألف امرأة في سن حمل الأطفال. وفي بعض البلدان التي تعتبر من الروم الكاثوليك في غالبيتها والتي ينظر فيها إلى كل الإجهاضات بصفتها غير قانونية، ولا تتوافر فيها إلا خدمات اجتماعية قليلة، مثل البيرو، والبرازيل، وتشيلي، وكولومبيا، فإن معدل الإجهاض هو خمسون في الألف. ووفقاً لما تراه منظمة الصحة العالمية، فإن هذه النسبة هي أعلى نسبة للإجهاضات غير المأمونة.

واحد من المداخل التي تتم عن حسن النية ولكنها غير منتجة هو أن نمتنع عن تعليم شبابنا كيفية تجنب الحمل، وهي تعليمات يتم توفيرها بشكل محكم ومستمر في الأمم الأخرى. وهناك الآن ارتفاع شديد صاروخي في الأرصدة الفيدرالية من أجل الثقافة الجنسية، ولكنها من سوء الطالع تكون في الغالب مع منع صارم ضد ذكر أي نوع من موانع الحمل، برغم حقيقة هي ان 60 بالمائة من

شبابنا الأمريكي تحت العشرين من العمر يقولون إنهم مارسوا الجنس قبل أن يبلغوا الثامنة عشرة من العمر. وتكشف مقالة في صحيفة نيويورك تايمز أن الشباب الكندي والأوروبي هم أيضاً ينشطون جنسياً في عمر مساو. ولكن البنات الأمريكيات، وهن محرومات من الثقافة الجنسية الصحيحة، معرضات لاحتمال الحمل بطفل أكثر بخمس مرات من احتمال حمل البنات الفرنسيات، والبنات الأمريكيات معرضات لاحتمال الإجهاض أكثر بسبع مرات، ومعرضات لاحتمال الإصابة بالسيلان أكثر بسبعين مرة من البنات في الأراضي المنخفضة. وكذلك فإن حدوث متلازمة نقص المناعة المكتسبة/ نقص المناعة الإنسانية بين الأمريكيين من ذوي الأعمار تحت العشرين عاماً هو أكبر بخمس مرات من المجموعة العمرية نفسها في ألمانيا. ومن الواضح أن شبابنا تحت العشرين من العمر ناضجون نضجاً كافياً يؤهلهم ليتلقوا الحقائق حول الجنس، وهم يستحقون أن يكونوا قادرين على أن يحموا أنفسهم، ويفضل أن تكون الحماية بالتعفف، ولكن بالاستخدام الحكيم لموانع الحمل إذا كان ذلك خيارهم عن قصد.

بعض السياسات الدولية غير منتجة لحكومتنا على نحو مساو لسياستها الداخلية. ففي آذار/مارس 2002، اشتركنا روزالين وأنا، مع بل غيتس الأب وزوجته ميمي، في رحلة حول محيط إفريقيا، مصممة لاستكشاف أمثل استثمار للأموال المرصودة من مؤسسة بل وميليندا غيتس من أجل تخفيف الأثر المرعب لمتلازمة نقص المناعة المكتسبة/الإيدز. وتقابلنا مع سلسلة واسعة من المواطنين، من عاهرات إلى قادة وطنيين، وعلمنا أنه كانت هناك نجاحات مرموقة في أوغندا والسنغال وإخفاقات مرعبة في بوتسوانا. وفي جمهورية إفريقيا الوسطى، وفي جنوب إفريقيا. وكان يبدو أن كينيا، وإثيوبيا، ونيجيريا تمسك

بمشكلاتها. مع وجود حوالي 6 بالمائة من السكان يحملون نقص المناعة المكتسبة (اتش آي في) بشكل موجب.

وكان افضل مدخل هو العرض الجريء للثقافة الجنسية الصريحة واستخدام الواقيات الذكرية لمنع العدوى. متضافراً مع علاج رخيص ضد الفيروس يقدم للنساء الحوامل لتقليل حدوث عدوى نقص المناعة الإنسانية بين المولودين الجدد من الأطفال. وكانت هناك حاجة إلى العلاج أيضاً للكبار المصابين بالعدوى من قبلُ من أجل تخفيف المعاناة وإطالة العمر، وإن كان هذا العلاج مكلفاً.

هناك أعضاء من مجلس الشيوخ الأمريكي يحاولون أن يمنعوا استخدام أموال العون الخارجي من أجل أي شكل من الخدمات لتخطيط الأسرة في بلدان اخرى. أما الآن ومع مساندة من البيت الأبيض، فإن تعديلاتهم قد أُدخلت بلا استثناء تقريباً في معظم التشريعات الخيرية. إن أثر هذه السياسة غير منتج إذا كان الغرض من تطوير الإعانة هو تخفيف الألم والمعاناة، وتحسين حياة الكبار، وتقليل معدل الوفيات في الأطفال.

وفي السر، فإن بعض هؤلاء المشرعين مرتابون جداً بشأن بلدان العالم الثالث، في الوقت الذي يعترفون فيه أنهم يستسلمون لضغوط سياسية متصلبة من الموالين لحق الحياة. وهم يزعمون أن إنقاذ حياة الأطفال، على كل حال، لا يسهم إلا بزيادة السكان وبالمزيد من المعاناة المستقبلية. ومما يبعث على الدهشة، أن الإحصاءات تكشف عن العكس من ذلك تماماً: فالآباء يربون اطفالاً اقل حين يمتلك اطفالهم فرصة افضل للبقاء، وتكون النتيجة أن معدلات النمو السكاني ووفيات الأطفال تتصل بعلاقة تناسبية، زيادة او نقصاً معاً.

إن قداسة الحياة قضية أخلاقية أساسية. ويجب أن تكون التزاماً دينياً وسياسياً. وفي الوقت نفسه، هناك فعل موازن يجب أن يتم تطويره. وإحدى القضايا التي تناقش مناقشة حادة تتصل ببحوث الخلايا الجذعية. فقد ثبت علمياً أن البييضة الإنسانية المخصبة (وهي بحجم النقطة الموضوعة في نهاية هذه الجملة) تستطيع أن تقدم خلايا مرنة جداً في استخدامها، مع آمال في منع أو شفاء عدد من الأمراض، ومنها داء السكري، ومرض أليزهايمر، ومرض باركنسون، وإصابات العمود الفقري.

ومع دعم شعبي قوي من شخصيات جمهورية بارزة، ومنها نانسي ريغان والحاكم آرنولد شوارزينيغر، وافق الناخبون المصوتون في كاليفورنيا على استفتاء عام في سنة 2004 على تأسيس برنامج ضخم لبحوث الخلايا الجذعية، وتظهر استطلاعات الرأي العام التالية أن ثلاثة أرباع الأمريكيين على الأقل يساندون مثل هذه الجهود. وبرغم هذا الدعم العام، فإن بعض النشيطين من اليمين إلى اليسار ومعهم الرئيس بوش يعارضون بشدة أي إدخال لسلالات جديدة من الخلايا الجذعية. ويشير الرئيس بوش إلى أن سلالات قديمة قليلة كانت مرخصة وتنص على أن السؤال هو: "هل نستخدم أموال دافعي الضرائب أم لا لتدمير حياة من أجل الأمل في أن نجد علاجاً لمرض وبيل؟" والسلالات الإنسانية القليلة المتوافرة للبحث الممول من الحكومة قابلة للاستخدام ولكنها كانت قد نُمّيتَ مع خلايا فار، وهو مطلب يعمل العلماء على استبعاده. وفي هذه الأثناء، يستمر زخم لا يمكن ضبطه تقريباً من أجل البحث الموسع.

هناك أغلبية من الأعضاء من الحزبين في مجلسي النواب والشيوخ تساند إصدار تشريع محدد بعناية لا يخلق أي خلايا جديدة للبحث ولكنه يسمح

باستخدام بعض الأجنة المجمدة الزائدة الموجودة في مستوصفات التخصيب، إذا وافق الآباء على التبرع بها من أجل هذا الغرض المحدود. وحوالي 2 بالمائة مما يقدر أنه يبلغ أربعمائة الف من الأجنة المجمدة وغير المستخدمة تنتهي إلى أن تعطى إلى اسر اخرى ترغب في الأطفال، في حين أن البقية يجري تدميرها. والقانون المقترح سوف يسمح باستخدام القليل من هذه الأجنة، في حين يمنع استخدام أموال دافعي الضرائب لعمل اجنة جديدة بالاستنسال أو بوسائل أخرى. وبرغم هذه القيود، فقد وعد الرئيس أن يستخدم حق النقض ضد أن تشريع من هذا النوع.

وكشف إعلان مذهل في شهر أيار/مايو 2005 أن علماء كوريا الجنوبية قد طوروا إجراء علمياً ثورياً يملك وعداً طبياً عظيماً. فباستخدام خلايا تبرع بها مرضى يعانون من داء السكري، وإصابات العمود الفقري، وابتلاءات أخرى، استطاعوا أن يخلقوا منها سلالات خلايا جذعية جديدة تستطيع وراثياً ملاءمة خلايا أولئك المصابين أو المرضى.

من الواضح أن موضوع الحياة قبل الولادة سوف يستمر في كونه واحداً من المواضيع التي تناقش مناقشة حادة جداً من النواحي الدينية، والسياسية، والعلمية. هناك التزام ديني قوي بقداسة الحياة الإنسانية، ولكن من التناقض أن بعض أشد حماة الخلايا الجذعية المجهرية حماسة هم أيضاً أكثر المناصرين حماسة لعقوبة الإعدام.

عقوبة الإعدام

حين كنت حاكماً لجورجيا، كان هناك تنافس شديد بين أقراني في الولايات الأخرى لنقرر اي حاكم منا كان يستطيع أن يحقق أعظم تخفيض في عدد نزلاء

السجن لدينا. وصرفنا الكثير من الجهد في الإصلاح المؤسسي. وأحضرنا الخبراء في وسائل متنوعة لتصنيف نزلاء السجن الجدد لإعدادهم من أجل التعليم الأساسي، والتدريب لمسار وظيفي، وإعادة التأهيل النفسي في السجن. وتبع ذلك كله إخلاء سبيل مبكر وبرامج إخلاء من أجل العمل[23]. وكنت أنا شخصياً مشتركاً في تجنيد المتطوعين من نوادي خدمات ليونز، وروتاري، وسيفيتان، وكيوانيس الذين كانوا مدربين ليخدموا بصفة ضباط تجريبيين، ولهم واجب مفرد: على كل واحد أن يوافق على "تبني" واحد من الذين يخلى سبيلهم بشرط حسن السلوك، وأن يتعرف على أسرة السجين في بيته، وأن يجد عملاً لهذا الشخص حين يمنح إخلاء السبيل المشروط بحسن السلوك. وفي ذلك الوقت، في السبعينيات من 1970، كان واحد فقط من كل الف من الأمريكيين في السجن.

هُجرت تلك السياسة هجراً كاملاً وعُكست، وامتنا الآن تركز تركيزاً كاملاً تقريباً على العقوبة، وليس على إعادة التأهيل. وهذه ميزة للأصولية ولسان حالها يقول: "انا على حق وفاضل، واما انت فعلى خطأ ومدان". واكثر من سبعة من كل ألف من الأمريكيين هم الآن في السجون، ومعظمهم من أجل جرائم غير عنيفة. وهذا هو أعلى معدل حبس في العالم، وهو يتجاوز السجل السابق لروسيا وكان ستة في الألف. ومن بين أكثر صناعات البناء شغلاً في العديد من الولايات هي بناء المزيد من حجيرات السجن. وارتفعت فرص العمل حرّاساً للسجون ارتفاعاً صاروخياً شديداً. وقد تفاخر واحد من خلفائي في منصب حاكم جورجيا أمام زوجتي بأن أعظم إنجاز حققه في أثناء منصبه كان "بناء حجيرات سجن كافية لتصل من مبنى الكابتول على طول الطريق إلى مدينتي". وهي مسافة تبلغ حوالي خمسة واربعين ميلاً. وقانون ولايتنا "ضربتان وتكون

كما في لعبة البيسبول[24]. سوف يساعد على المحافظة على هذه الصناعة العقابية مزدهرة.

وإضافة إلى الحبس، فإن الولايات المتحدة تقف وحيدة تقريباً في العالم في إعجابها بعقوبة الإعدام. ورفاقنا القلة المتبقون هم أنظمة حكم تفتقر إلى احترام حقوق الإنسان الأساسية. وتسعون بالمائة من كل مرات تنفيذ أحكام الإعدام المعروفة تتم في أربعة بلاد فقط وهي: الصين، وإيران، والمملكة العربية السعودية، والولايات المتحدة الأمريكية. وفي الحقيقة، فإن أمتنا والصومال (التي لا تمتلك حكومة منظمة) هما الوحيدتان اللتان رفضتا أن تصادقا على المعاهدة الدولية لحقوق الطفل، التي تمنع تنفيذ حكم الإعدام عن جرائم ارتكبها الأطفال. ومنذ عام 1990، فإن سبع بلدان فقط غير الولايات المتحدة أعدمت اناساً عن جرائم ارتكبوها وهم أحداث، ولكن هؤلاء وهم إيران، وباكستان، والمملكة العربية السعودية، واليمن، ونيجيريا، والصين، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، قد تنصلوا الآن من هذه الممارسة. واخيراً، في شهر آذار/مارس 2005، صوتت المحكمة العليا الأمريكية بخمسة ضد أربعة لجعل تنفيذ حكم الإعدام بالأحداث محرماً قانونياً، وهو قرار أدانه إدانة قوية كثيرون من المسيحيين المحافظين. ويبدو من غير المنطقي نوعاً ما أن نقول: "أنت انتهكت وصية الله التي تقول (أنت لن تقتل) ولذلك فسوف أقتلك". ومن سوء الطالع، تلك هي فلسفة عدد متناقص ولكنهم ما يزالون أغلبية ضئيلة من الأمريكيين.

في عام 1972 قضت المحكمة العليا أن عقوبة الإعدام، كما كانت تنفذ عندئذ، كانت "قاسية وغير عادية" ولذلك فهي غير دستورية. وفي 1 من شهر تموز/يوليو،1976، على كل حال، قلبت المحكمة الحكم بقرار سبعة أصوات ضد

اثنين، في الوقت الذي فرضت فيه بعض القيود. وأعيد فرض حكم الإعدام. وقد اعتبرت نفسي دائماً محظوظاً لأن أي تنفيذ للإعدام لم يتم تحت ولايتي حين كنت حاكماً ورئيساً.

واحد من الأسباب الرئيسية التي يقدمها أنصار عقوبة الإعدام هو أن هذه العقوبة رادع قوي لجريمة القتل ولغيرها من الجرائم الكبيرة. وفي الحقيقة، فإن الدليل يظهر العكس تماماً. فمعدل قتل النفس البشرية هو في الولايات المتحدة اكبر بخمسة اضعاف على الأقل من اي بلد أوروبي، وليس من بينها اي دولة تجيز عقوبة الإعدام. والولايات الجنوبية تنفذ اكثر من 80 بالمائة من احكام الإعدام ولكنها تمتلك أعلى معدل لجريمة القتل من اي منطقة اخرى. وتمتلك تكساس حتى الآن معظم حالات تنفيذ الإعدام، ولكن معدلها في قتل النفس الإنسانية ضعف المعدل في ولاية ويسكنسون، وهي أول ولاية الغت عقوبة الإعدام. والمسألة ليست مسألة جغرافيا أو عرق. كما يشار من قبل ولايات مشابهة ومجاورة: فعدد الجرائم الكبيرة التي تستحق عقوبة الإعدام هي أعلى، على التوالي، في داكوتا الجنوبية، وكونيكتكت وفرجينيا (وجميعها تطبق حكم الإعدام) من عدد هذه الجرائم الكبيرة في الولايات المجاورة من داكوتا الشمالية، ومساشوسيتس، وفرجينيا الغربية (وهي لا تطبق عقوبة الإعدام). وزيادة على ما تقدم لم يوجد ابداً حتى الآن دليل على أن إضافة عقوبة الإعدام قد خفضت الجرائم الكبيرة التي يحكم على مرتكبيها بالإعدام، أو أن الجرائم ازدادت حين منع تنفيذ أحكام الإعدام.

بعض المسيحيين المخلصين هم من بين أكثر دعاة عقوبة الإعدام حماسة، وهم بذلك يناقضون يسوع المسيح ويعللون اعتقادهم بناء على تفسير خاطئ

للكتب المقدسة العبرية. "العين بالعين، والسن بالسن"، هو رد فعلهم الأكثر احتمالاً، وهو يغفل عن الحقيقة وهي أن هذا الحكم أعلنه موسى ليكون حداً، أي تحريم ضد أخذ العينين الاثنتين أو كل أسنان المسيء في تنفيذ العقوبة ضده. وكذلك، يمكننا أن نتذكر شرح المسيح أن موسى أعطى هذه النواحي من التوراة وبعض النواحي الأخرى منه، ومن جملتها الطلاق ليكيف "قسوة القلب" في مستمعيه.

وفي الإنجيل أمثلة عديدة للرحمة بوصفها بديلاً لحكم الإعدام المقضي به، مثلما هو الحال حين سمح الله لأول قاتل معروف، وهو قابيل، أن يعيش، وهدد بانتقام يصل إلى سبعة أضعاف ضد أي شخص يؤذيه. وهناك نص مقدس آخر مثير للاهتمام يوجد في حزقيال 33، وفيه يقول الله: "ليس بي سرور في موت الشرير، ولكن أن يرجع الشرير عن طرقه ويعيش". ولعل اكثر الأمثلة حيوية عن عفو الله ورد الحق هو الملك داود، وهو الذي ارتكب الزنى وهو محصن مع المرأة الجميلة باثشيبا ثم جعل زوجها بعدئذ، وهو يورايا يُقتل. وفي مثال مؤثر آخر، غفر المسيح لامرأة حُكم عليها بالرجم حتى الموت بسبب زناها وهي محصنة.

ويبدو منطقياً أن على جميع المسيحيين أن يقتدوا بمثال يسوع المسيح، ولكن هناك اختلاف لا يمكن تعليله بين معظم البروتستانت والكاثوليك. وقد اتخذت الكنيسة الكاثوليكية موقفاً حازماً ضد عقوبة الإعدام، وهي مقرة أن الحكومات ذات السيادة تمتلك الحق القانوني في أن تأخذ حياة شخص مذنب عقوبة له، ولكن إذا لم يكن هنالك أي بديل فقط. وقد كتب البابا جون بول الثاني: "يجب أن يتم تقويم طبيعة العقاب ومداه بعناية وأن يتم اتخاذ القرار بشأنه. ويجب الا يذهب إلى حد تنفيذ حكم الإعدام بالمسيء إلا في حالات الضرورة المطلقة،

وبكلمات أخرى، حين لا يكون ممكنناً الدفاع عن المجتمع بطريقة أخرى. واليوم، على كل حال، ونتيجة للتحسينات المستمرة في تنظيم النظام الجزائي، فإن مثل هذه الحالات نادرة جداً إذا لم تكن عملياً غير موجودة".

في عام 1999 في سانت لويس، وصف البابا عقوبة الإعدام بأنها "قاسية وغير ضرورية"، وفي العام نفسه، في الجمعة الحزينة، أصدر الأساقفة الكاثوليك في أمريكا المناشدة التالية:

"إن الاعتماد المتزايد على عقوبة الإعدام ينتقص منا جميعاً وهو علامة على نمو عدم الاحترام للحياة الإنسانية. ونحن لا نستطيع ان نتغلب على الجريمة بمجرد تنفيذ الإعدام بالمجرمين، ولا نستطيع أن نسترد حياة الأبرياء بإنهاء حياة المدانين بارتكاب جرائم القتل. إن عقوبة الإعدام تقدم وهماً مأساوياً وهو أننا نستطيع أن ندافع عن الحياة بأخذ الحياة. من خلال التعليم، ومن خلال الدعوة، ومن خلال الصلاة والتأمل في حياة المسيح، يجب علينا أن نلزم أنفسنا بشهادة مثابرة ومستندة إلى المبادئ ضد عقوبة الإعدام، وضد ثقافة الموت، ومن أجل إنجيل الحياة".

ربما كانت أقوى حجة ضد عقوبة الإعدام هي الظلم المفرط في استخدامها: فهي منحازة ضد الفقراء، والمعتوهين، والأقليات، وهي مصممة أو على الأقل مطبقة لحماية الضحايا من البيض. وليس مثيراً للدهشة، منذ إعادة فرض عقوبة الإعدام في عام 1976، ان 76 بالمائة من أولئك الذين حكموا بالإعدام، بما في ذلك في المحاكم الفيدرالية، كانوا أعضاء من جماعات الأقليات. والمثال النموذجي لذلك، هو أن التسعة والتسعين (99) قاتلاً الذين تم

تنفيذ حكم الإعدام فيهم في عام 1999. من اجل 127 عملية قتل للنفس البشرية، كان 104 من بين الضحايا من البيض! فليس من المتصور تقريباً أن نتخيل شخصاً ابيض غنياً ذاهباً إلى غرفة الموت بعد أن يكون قد تم الدفاع عنه في المحكمة من محامين تكاليفهم غالية، وخصوصاً إذا كان الضحية أسود أو هسبانياً (من أصول إسبانية من أمريكا اللاتينية).

ومع وصول اختبارات الدنا (دي ان ايه)، حديثاً، وُجِد ان العديد من الناس الذين كانوا في صف انتظار الموت كانوا غير مذنبين فعلاً. وأعلن حاكم إلينوي جورج ريان تأجيل تنفيذ احكام الإعدام حين علم ان ثلاثة عشر سجيناً مداناً كانوا أبرياء من الجرائم الكبيرة التي يحكم المدانون بها بالإعدام، وتم إطلاق خمسة منهم بعد ذلك إطلاقاً كاملاً بسبب اختبارات الدنا. ومنذ عام 1973، اطلق سراح 120 تقريباً من نزلاء السجون الأمريكية الذين كانوا محكومين بالإعدام واستبعدوا من صف انتظار الموت.

كتابي الأخير، المشاركة في الأوقات الطيبة، مهدى "إلى ماري برنس، التي نحبها ونعتز بها". وماري هذه امرأة سوداء رائعة، وكانت وهي تحت العشرين من العمر قد زارت مدينة صغيرة، واتهمت كذباً بالقتل وقام بالدفاع عنها محام معين قابلته لأول مرة في اليوم الأول من المحاكمة، وحينئذ نصحها بأن تجيب بأنها مذنبة، ووعدها بحكم خفيف. وبدلاً من ذلك حكم عليها بالسجن مدى الحياة، وبوصفها موثوقة فقد سمح لها أن تعمل خادمة في منزل الحاكم. كانت نابهة جداً جعلتني أطلب ان أُعَيَّن مسؤولا اميناً عليها بعد الإفراج عنها بشرط حسن السلوك، وعاشت ماري معنا طوال أربع سنوات في البيت الأبيض. ودلت إعادة فحص الدليل وإجراءات المحاكمة من قبل القاضي الأصلي للمحاكمة أن ماري

كانت بريئة براءة تامة ومنحت العفو. لقد كانت محظوظة. وكان يمكن بالسهولة نفسها أن ينفذ فيها حكم الإعدام. ولو كانت الضحية بيضاء، لما كنا عرفنا ماري برنس.

وكان يمكن لها على الأرجح ان تشارك مصير لينا بيكر. وهي امرأة سوداء أبقيت في العبودية رغم إرادتها وأسيء استخدامها من سيدها، وهو رجل أبيض. وفي أحد الأيام في عام 1945. حوكمت، وادينت من محلفين كانوا كلهم من البيض، وحكم عليها بالإعدام، بعد أن اعترفت أنها أطلقت عليه النار حين هاجمها بقضيب معدني وهددها بقتلها. وبعد إعادة فحص دقيقة للقضية، منحت العفو الكامل في شهر آب/اغسطس 2005، اي، بعد ستين سنة من موتها في الكرسي الكهربائي.

إن وقوفنا وحدنا من بين الأمم الديمقراطية العظيمة في فرض عقوبة الإعدام هو قرار أخلاقي آخر يجري إجبار الأمريكيين على مواجهته. ومع أن عقوبة الإعدام كانت مدعومة من غالبية قوية في الماضي، فإن الراي العام يتغير. وقد اظهر استطلاع حديث للراي ان حوالي ثلثي الأمريكيين يدعمون تأجيلاً لتنفيذ أحكام الإعدام بعد أن أعلموا أن اختبارات الدنا ودلائل أخرى قد أدت إلى إطلاق سراح العديد من نزلاء السجون الذين كانوا ينتظرون في صف الموت.

سؤال آخر موجه إلى المسيحيين: لو ووجه المسيح بهذا الخيار، فماذا كان سيفعل؟

* *

الفصل التاسع

هل يجب على النساء أن يكن خاضعات؟

مَنح التعديل الخامسَ عشرَ للدستور الأمريكي الرجال السود الحق في التصويت في عام 1870، بعد أربعة وتسعين عاماً من الإعلان أن "جميع الرجال خلقوا متساوين". وبعد خمسين عاماً تلت كان أن كسبت النساء الأمريكيات أخيراً الحق نفسه، وتم تحقيق بعض التقدم البطيء منذ ذلك الوقت، في العالم العلماني على الأقل. وقد اختار الرئيس فرانكلين دي. روزفلت أول امرأة لتشغل منصباً وزارياً، وقام رؤساء آخرون وقمت أنا باختيار نساء للقيام بأدوار كبيرة في وزاراتنا وفي موظفي البيت الأبيض. واستطعت أن أعين عدداً من القاضيات الفيدراليات أكبر من عدد اللواتي عينهن كل أسلافي مجتمعين، وهناك عدد متنام من النساء اللاتي يخدمن في مناصب الحكام، وفي مجلس النواب وفي مجلس الشيوخ، وفي مناصب المديرين المسؤولين التنفيذيين لشركات كبيرة، وهناك أمم أخرى متنوعة مثل الهند، وباكستان، وإندونيسيا، وإسرائيل، وبريطانيا العظمى، والفلبين، ونيكاراغوا شغلت فيها النساء مناصب الرؤساء ورؤساء الوزارات. وهذه الأمم تمثل مواطنين في غالبيتهم من الهندوس، والمسلمين، واليهود، والمسيحيين، ومن جملة هذه الأمم اثنتان من أضخم ثلاث ديمقراطيات على ظهر البسيطة.

وبالرغم من حقيقة هي أن يسوع المسيح كان أعظم محرر للنساء، فبعض القادة الذكور للدين المسيحي استمروا بالممارسة غير المبررة في التمييز الجنسي، والانتقاص من النساء، وحرمانهن من حقوقهن المتساوية في خدمة الله. وهذا الإصرار نفسه على إخضاع الزوجات للأزواج ووصم النساء بوصفهن دون الرجال قد تم تبنيه أيضاً من بعض الأمم الإسلامية. ولا مناص من ان هذا الإخضاع الديني المستمر كان له تأثير كبير في حرمان النساء من حقوقهن الأساسية داخل المجتمع العلماني في كل أنحاء العالم.

يعترف معظم علماء الإنجيل أن الكتب المقدسة كتبت حين كان تأثير الذكر سائداً في كل ناحية من نواحي الحياة. وحين بدا المسيح خدمته الرائعة، كانت معاملة النساء في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية وفي الأرض المقدسة هي ما يذكرنا بها ما لاحظناه حديثاً تحت نظام حكم الطالبان في أفغانستان. وكذلك في قضايا الزواج والطلاق. فقد كان ينظر إلى النساء على أنهن أمتعة شخصية، وكان عليهن الا يخالفن القرارات التي يتخذها آباؤهن أو أزواجهن. لا بل إن أرامل الرجال البارزين المحترمين لم يكن لهن إلا حقوق قانونية قليلة. وكان الرجال يستطيعون امتلاك العديد من النساء (الملك سليمان امتلك ثلاثمائة زوجة وسبعمائة جارية). وأما سلوك الزنى من المحصنات فكان يمكن معاقبته بالرجم حتى الموت.

هناك روايتان في سفر التكوين عن خلق الله للمخلوقات البشرية، وقد تبدوان متناقضتين إلى حد ما. وكان اليوم السادس حين قال الله، حسب الوصف الوارد في سفر التكوين 1 : 26- 27. "قال الله (دعونا نخلق الجنس البشري في صورتنا، وفق شبهنا)، ... وهكذا خلق الله الجنس البشري في صورته، وفي

صورة الله خلقهم، ذكراً وانثى هو خلقهم". وبعدئذ، في الفصل الثاني من سفر التكوين، خلق الله الذكر أولاً وقرر لاحقاً انه كان يحتاج إلى شريكة. "وهكذا جعل الله الرب نعاساً عميقاً يحل على الرجل، فنام، ثم اخذ واحداً من اضلاعه واغلق مكانه باللحم. والضلع الذي أخذه الله الرب من الرجل جعله امراة وأحضرها إلى الرجل ... ولذلك فإن الرجل يترك اباه وأمه ويتمسك بزوجته، ويصيران لحماً واحداً".

كلا هذين النصين المقدسين يؤكد بشكل مشترك ومتساو قيمة الذكر والأنثى، ولكن الكثيرين من الأصوليين المسيحيين يستخدمون الاختيار الثاني اساساً لمعتقدهم في تفوق الرجل الذي خلق اولاً، مقروناً بالزعم ان حواء يجب أن تعتبر وحدها مسؤولة عن "الخطيئة الأصلية". ليس هناك حاجة للجدل في هذه المسائل، لأن من الطبيعة البشرية أن تكون انتقائية وذاتية معاً في اشتقاق انسب معنى عن طريق الاختيارات الدقيقة من 30.400 آية او ما يقاربها من آيات الإنجيل.

هناك حقيقة واحدة لا تدحض بشأن العلاقة بين يسوع المسيح وبين النساء: فهو عاملهن بوصفهن مساويات للرجال. وهذه المعاملة كانت مختلفة اختلافاً مؤثراً عن العرف في تلك الأيام. ومع ان الأناجيل الأربعة كتبت من رجال، فهم لم يرووا أبداً اي مثل عن تغاضي المسيح عن التمييز الجنسي او عن الإخضاع الضمني للنساء. وفي تغيير جذري عن الأنساب الأولى، ضمّن متّى أربع نساء غير يهوديات في أسلاف المسيح وهن: تامارا، وراحاب، وروث، وباتشيبا. وإضافة إلى ذلك، فإن تعظيم ماري وعبادتها اللاحقة، وهي أم المسيح، مؤشر أكثر حيوية إلى المكانة الخاصة للنساء في اللاهوت المسيحي.

هناك أمثلة عديدة جداً من الخدمة الدنيوية للمسيح تستحق أن توصف هنا، ولكن مثالين أو ثلاثة منها وثيقة الصلة بالموضوع. فعلى الرغم من المنع السائد ضد أي تعامل مع النساء في العلن أمام الناس، فإن المسيح لم يكن لديه أدنى تردد بشأن التحادث في المجتمع بشكل جيد مع امرأة سامرية كانت منبوذة بين اليهود وبين قريناتها في الوقت نفسه، بسبب انتمائها العرقي وسلوكها الفاسق. وقبلت هي يسوعاً بوصفه المسيح المنتظر الموعود. وحملت هذه الرسالة وعادت بها إلى القرويين في بلدتها، وهذا أول مثال عن شاهد إنجيلي. وقد رفض يسوع أيضاً المعيار المزدوج في العقوبة الموقعة ضد زنى المحصنين والمحصنات، وذلك بأن منح الصفح والمغفرة معاً لامرأة مدانة، قائلاً ببساطة، "دعوا من كان بلا خطيئة فليرمِ الحجر الأول".

وربما يكون هناك ما هو أهم من ذلك وهو اختيار نساء ليسافرن في حاشية يسوع، مع قبول دعمهن الروحي والمالي ضمن خدمته. وقد يكون أقرب المؤتمنين على أسراره هي ماري أخت لازاروس التي زارها زيارات متكررة في بيت هني، وكانت على ما يبدو واحدة من قلة من الناس الذين فهموا أن المسيح كان سيصلب ويبعث. وكان لمريم المجدلية الشرف في الزيارة الجريئة لقبره الفارغ، ثم إن المخلص أمرها أن تخبر كل حوارييه، الذين كانوا يختبئون خائفين في مكان سري، بأن المخلص قد رفع من القبر.

وإنها لمفارقة مثيرة للسخرية أن النساء الآن يرحب بهن للدخول في كل المهن الكبيرة ومناصب أخرى من القيادة ولكنهن محرومات من الحق في خدمة يسوع المسيح في مناصب القيادة مثلما فعلن في أثناء خدمته الأرضية وفي الكنائس المسيحية الأولى. وهذه أيضاً قضية أخرى موضع نزاع تسببت في حدوث

انقسامات داخل ديننا. وفي الحقيقة، فإن القرار الذي اتخذ لزيادة المواقف المجحفة المستندة إلى الجنس هو واحد من الأسباب الأساسية التي جعلتني أقرر أن أقطع علاقتي مع الطائفة التي كنت موالياً لها في أول سبعين عاماً من حياتي.

والجهد الخاص الجاري حالياً من قادة المؤتمر المعمداني الجنوبي من أجل "الإبقاء على النساء في مكانهن" وهو جهد مستند إلى إصرار مضحك بأن "الرجل كان هو الأول في الخلق، وأن المرأة كانت الأولى في السقوط العَدْني". إضافة إلى قلة من الاختيارات التي اختيرت بعناية من رسائل القديس بطرس الموجهة إلى الكنائس الأولى. ويبدو من الواضح فعلاً، أن بعض الآيات المأخوذة من رسائل بطرس الموجهة إلى الكنائس الأولى، إذا عُولجت وحدها، تشير إلى حيدانه عن مثال اليسوع مع انحياز قوي ضد النساء، والتوجيه إلى أنهن يجب أن يعاملن بوصفهن مسيحيات من الدرجة الثانية، أي: يخضعن لأزواجهن، ويلبسن ويضعن قبعاتهن بتواضع، ويصمتن في الكنيسة.

ولست أدعي على كل حال أن الآيات المقلقة خاطئة أو أن هناك تناقضات بين الأقسام المختلفة من كلمة الله الأصلية الموحى بها. ومع ذلك، فإن من الضروري في بعض الحالات أن نقدر الظروف المحلية التي سادت بين مصلّي الكنيسة الأولى المضطربة وأن ندرس المعنى الدقيق للكلمات الإغريقية والعبرية. واحد الأمثلة الموضحة هو حين يقول بطرس: "لا أسمح لامرأة أن تعلم رجلاً أو أن تكون لها سلطة فوقه". فالكلمة الإغريقية من أجل معنى "يُعلِّم أو يمتلك سلطة" هو اوثنتين (AUTHENTEIN) وهذه هي المرة الوحيدة التي استخدمت فيها هذه الكلمة في العهد الجديد. وأنا لا أعرف اللغة الإغريقية، ولكن العلماء

يشيرون إلى أن هناك معاني أخرى مبكرة للكلمة ومن جملتها "القتل". و"الإنشاء". و"الهيمنة". و"الخلق".

كثيرون من العلماء يفسرون تعليمات بطرس إلى الكنيسة في كورنث على أنها وصفية لمشكلات خاصة داخل بعض جماعات المصلين، وتعبير عن الاهتمام من أجل "الإخوة والأخوات" الذين هم مرتبكون ومشوشون. وبالنسبة إلى العبّاد في مجتمعنا الحديث، فقد وجد من المريح تجاهل ملاحظات بطرس ذات الصلة بعصره، من مثل "اي امراة تصلي أو تتكهن وراسها غير محجب فإنها تخزي راسها، وإنه لشيء واحد وإنه الشيء نفسه مثل حلقها لراسها. وذلك لأن المراة إذا لم تحجب نفسها، فيجب عليها عندئذ أن تقص شعرها". (وهذا يجعل من الواضح، بهذه المناسبة، أن من المقبول بالنسبة إلى النساء أن يصلين وأن يتكهن إذا كانت رؤوسهن مغطاة). ومنع بطرس النساء من أن يقصصن شعورهن أو أن يلبسن الخواتم، أو المجوهرات، أو الملابس الثمينة. من الواضح لمعظم مسيحيي اليوم في العصر الحديث أن بطرس لم يكن يلزم بسياسات لاهوتية دائمة أو عامة.

وفي رسالة له إلى تموثي يعبر بطرس عن منع موجه ضد تعليم النساء للرجال، ولكننا نعلم، وهو أيضاً كان يعلم، أن تيموثي نفسه قد علمته أمه وجدته. ومن الصعب أيضاً أن نفهم كيف أن اقرب أصدقاء بطرس، وهي بريسيلا، مبجلة لأنها كانت قد علمت أبولوس، وهو واحد من المبشرين العظماء في ذلك اليوم، كي يستطيع أن يكشف بدقة أكبر أن يسوع كان في الحقيقة هو المسيح.

ولحل هذا الاختلاف الظاهر بين اليسوع وبين بطرس في تحديد مكانة النساء، أشير إلى قطعتين مقتبستين من كتابات بطرس. ففي رسالة له إلى

الغلاشيين ينص بطرس: "ولكن الآن وقد جاء الإيمان، فنحن لم نبق خاضعين لمن يفرض النظام، وذلك لأنكم جميعاً في يسوع المسيح أبناء الله من خلال الإيمان.... لم يبق هناك بعد الآن يهودي أو إغريقي، لم يبق هناك بعد الآن عبد أو حر، لم يبق هناك بعد الآن ذكر أو انثى، لأنكم انتم جميعاً واحد في يسوع المسيح". وإلى الرومان، أدرج بطرس في القائمة وشكر ثمانية وعشرين قائداً بارزاً من الكنائس الأولى، وكان منهم عشر نساء على الأقل:

> "ازكي لكم اختنا فوبي، شماسة من الكنيسة في سنكرية... حيوا بريسكا وأكويلا، اللتين عملتا معي في يسوع المسيح... وحيوا ماري، التي اشتغلت بجد كبير بينكم، حيوا اندرونيكوس وجونيا، قريبي اللذين كانا معي في السجن، وهما بارزان من بين التلاميذ، وكانا في المسيح من قبل أن أكون أنا... حيوا فيلولوغس،وجوليا، ونيروس وأخته أوليمباس، وكل القديسين الذين كانوا معهم".

ليس من المتصور بالنسبة إلي أن بطرس كان سيشجع ويهنئ النساء الملهمات اللواتي كن شماسات ناجحات، وداعيات، وكاهنات، وقديسات وأن يقتبس منه مع ذلك الذكور العصريون الغلاة في التعصب بوصفه السبب الإنجيلي لاستبعاد النساء عن قبول دعوة الله لخدمة الآخرين باسم المسيح. في الواقع، فإن بطرس لم يفصل نفسه عن الدرس الذي علمه يسوع: أن النساء يجب أن يعاملن على قدم المساواة في حقهن لخدمة الله.

يستطيع المسيحيون المخلصون أن يجدوا نصوصاً مقدسة كافية لتبرير اي جانب من الجانبين في هذا الجدل. والسؤال هو هل كنا نحن المؤمنين الإنجيليين في المسيح نريد أن نهجر مثاله ونستبعد صفاً ضخماً من الشريكات الإناث

اللواتي يحتمل وجودهن. والمخلصات إخلاصاً مساوياً ويستجبن لنداء الله للخدمة معنا في ترقية مملكة الله على الأرض؟

تُساء معاملة النساء إساءة كبيرة في بلدان عديدة في العالم. وصار تخفيف الضراء الواقعة بهن اقل احتمالاً بسبب الإخضاع الإجباري للنساء من الأصوليين المسيحيين. وما هو مخيب للآمال بالنسبة إلي على وجه الخصوص، هو القبول الوديع من الكثيرات جداً من النساء المسيحيات القويات لإخضاعهن ولدورهن المحدد.

* *

الفصل العاشر

الأصولية
في الحكومة

في صفوف القادة السياسيين الكبار لأمريكا أمثلة حية أخرى عن التهديدات الموجهة إلى فصل السلطات السياسي الدستوري الأساسي في بلادنا. وقد أظهر بعض المسؤولين المحافظين اكثر من غيرهم في واشنطن خيبة ظنهم باستقلال المحاكم القضائية فأقحموا أنفسهم في آخر لحظة في قضية تيري شيافو، وهي قضية خلافية إلى حد بعيد. بعد أن كان عشرون قاضياً تقريباً، ومعظمهم فقهاء بالقانون محافظون عيّنهم الجمهوريون، قد حافظوا طوال خمسة عشر عاماً على رفضهم لتمديد حياتها اصطناعياً.

وحين تحدث بيل فريست زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ اوضح بجلاء انه كان يتحدث بصفته جراح قلب، وأعلن لزملائه أنه أدان الإجماع القضائي "بالاستناد إلى استعراض شريط الصور الذي قضيت ساعة أو نحو ذلك انظر إليه في الليلة الماضية في مكتبي هنا في مبنى الكابتول. وذلك الشريط، بالنسبة إلي، صوّر شيئاً ما مختلفاً جداً عن الحالة النباتية المتواصلة". وكان هذا التشخيص مناقضاً لتشريح الجثة الميتة الذي أجراه الفاحص الطبي لاحقاً على السيدة شيافو، والذي قدم تقريراً بأنها كانت عمياء، وأن مخها كان "شاذاً بوضوح"، وحجمه أقل من نصف الحجم الطبيعي.

وقام زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب توم ديلي، بعد أن احتدم غضباً من القضاة، بإصدار تهديدات لفرض السيطرة التشريعية فوق محاكم الولاية والمحاكم الفيدرالية. وأمر بالتحقيق في مجلس الشيوخ عن القضاة وأصدر سلسلة من الإعلانات الحانقة: "الاستقلال القضائي ليس مساوياً للسيادة القضائية". "وهذه (الأحكام) ليست أمثلة للمجتمع الناضج، بل للهياج القضائي". وأضاف، "مجلس الشيوخ أهمل طوال العديد من السنوات مسؤولياته لجعل القضاء موضع محاسبة. ليس بعد الآن. لقد كان رد فعل الفرع التشريعي في معظم الأحوال هو أن يشتكي. هناك طريقة أخرى، أيها السيدات والسادة، وهي أن يعاد التشديد على سلطتنا الدستورية فوق المحاكم". وقال أيضاً: "نحن نعين المحاكم. ونحن نستطيع أن لا نعين المحاكم. نحن نملك سلطة المال".

وقُدم عدد من مشاريع القوانين في مجلس الشيوخ للتدخل مباشرة في الشؤون القضائية بعد أن قامت المحكمة العليا بشطب حكم الإعدام للأطفال، وفشلت في الموافقة على عرض الوصايا العشر في الممتلكات العامة، وأصدرت قراراً بتنفيذ حكم الإعدام بالمواطنين المكسيكيين في تكساس. وقدم الجمهوريون في مجلس النواب قراراً يعلن أن القانون الدولي يجب الا يؤخذ بالحسبان في تفسير الدستور. ومشروع قانون في مجلس الشيوخ يمنع المحاكم الفيدرالية من تطبيق التعديل الأول في مسائل خلافية تتصل بالفصل بين الكنيسة والدولة. وأحد أسس القانون الدستوري هو سلطة أمر الإحضار للمحاكم الفيدرالية لتقرر إن كان قد حكم بالموت على مدعى عليه فقير حكماً غير منصف في محاكم الولاية. وهناك حركة قوية في مجلس الشيوخ لتحويل هذه السلطة إلى وزير العدل، وهو المدعي العام الرئيسي في أمريكا!

حين قتل قاضٍ في غرفة محكمة في أطلنطا على يد مجرم غاضب وحين اغتيلت أم قاضية من شيكاغو وزوجها بسبب رفضها النظر في دعوى قانونية، قام جمهوري من تكساس وشرح في مجلس الشيوخ أن الإحباط "يتزايد ثم يتزايد إلى النقطة" التي يحدث فيها العنف ضد القضاة الذين "يتخذون قرارات سياسية وهم مع ذلك غير مسؤولين أمام الجمهور". ومع أنه هو نفسه كان قاضياً سابقاً، فقد اقترح أن الدور المحدود للمحكمة العليا يجب أن يكون "منفذاً للقرارات السياسية التي يتخذها ممثلو الشعب المنتخبون." ولقد كان من أجل تجنب هذا النوع من الإرهاب لهيئة القضاة أن فَصَّل آباؤنا المؤسسون الفروع الثلاثة للحكومة، مع تعيين القضاة الفدراليين مدى حياتهم والدعم الواسع المطلوب من أجل الموافقة على المعينين القضائيين الجدد.

هناك توافق وثيق الصلة بين هذا النمط الثوري الحديث في مجلس شيوخنا الأمريكي وأولئك الذين اختيروا ليخدموا في مناصب تنفيذية عالية. بعضهم حاز على الإعجاب وكان موضع ثقة هنا وفي الخارج معاً، ولكن تعيين آخرين خلق رد فعل معاكساً وكانت حالة من الحالات المثيرة المحيرة والموضحة في الوقت نفسه هي حالة رجل صريح لا يتحفظ في كلامه اسمه جون بولتون. وكان هو الاختيار المبكر في عام 2001 لمنصب وكيل وزارة الخارجية لشؤون ضبط التسليح. وحين كنت أقود بعثة من مركز كارتر إلى هافانا في العام التالي، أعلن بولتون بشكل كاذب أن صناعة الصيدلانيات الكوبية كانت متورطة في إنتاج أسلحة الدمار الشامل الحيوية. فعرض الكوبيون فوراً أن يسمحوا للعلماء الأمريكيين بتفتيش المنشآت، ولكن لم يكن هناك أي رد فعل من واشنطن. فحين لم يستطع أن يجبر محللي الاستخبارات أن يثبتوا تصريحاته، حاول بولتون أن يفصلهم أو أن يحولهم إلى مواقع أخرى. إن هذا العمل قد لخص التسييس الذي قام به صناع السياسة

في القمة للمعلومات الاستخبارية، وهو الذي قاد إلى الفشل الذريع بشأن المزاعم غير الصحيحة التي زعمت أن العراق كان يمتلك ترسانات ضخمة من أسلحة الدمار الشامل.

وفي وزارة الخارجية، عمل بولتون على أن يعكس راساً على عقب عقوداً من السياسات الأمريكية في عدم انتشار الأسلحة وضبطها، زاعماً أن نظام معاهدات الأسلحة الذي تأسس منذ الحرب العالمية الثانية، ومنها الاتفاقيات التي تفاوض عليها جميع رؤساء الولايات المتحدة ابتداء من دوايت إيزنهاور إلى جورج اتش. دبليو. بوش، قد قيدت قوة الولايات المتحدة وانتهكت السيادة الأمريكية من دون الحصول على منافع مساوية. ومن سوء الطالع أن رؤساءه في البيت الأبيض كانوا يشاركونه في هذا الاعتقاد وكان قد تم تبنيه بوصفه السياسة الأمريكية الرسمية.

وفلسفة بولتون وتصريحاته التي عبّر عنها علانية بشأن الأمم المتحدة كانت منذ زمن طويل مسألة اهتمام أو تندر مضحك، وكان اختياره ليكون سفير امتنا إلى الأمم المتحدة صدمة لكل واحد يحترم المؤسسة والغرض من عملها في السنوات الستين الماضية. وبخصوص الخضوع للاتفاقيات الدولية الموجودة، عبّر بولتون عن آرائه بوضوح: "إنها غلطة كبيرة بالنسبة إلينا أن نمنح أي صحة للقانون الدولي ولو كان قد يبدو أن من مصلحتنا القصيرة الأمد أن نفعل ذلك، والسبب هو أن الغاية التي يتغيّاها الذين يعتقدون أن القانون الدولي يعني شيئاً حقيقياً هي أنهم، على الأمد الطويل، يريدون أن يضيقوا على الولايات المتحدة".

وقد أصر على أن "الأمم المتحدة ذات قيمة فقط حين تخدم الولايات المتحدة خدمة مباشرة". وحين سئل عن المفاوضات بوصفها طريقة لحل النزاعات الدولية أجاب "أنا لا أقدم الجزر".

وقد ادان اختياره تسعة وخمسون من دبلوماسيي أمريكا المتميزين بسبب هذه المواقف المعروفة عنه جيداً، ولكنهم، على وجه الخصوص، تناولوا بإسهاب اداءه المنخفض انخفاضاً عميقاً في عمله مسؤولاً كبيراً لأمتنا عن ضبط الأسلحة. وقالوا إنه كان يمتلك "سجلاً استثنائياً" في معارضة الجهود الأمريكية لتحصين الأمن القومي من خلال ضبط الأسلحة.

والحقيقة المزعجة هي أن بولتون، في كل هذه المواقف، قد مثل تمثيلاً دقيقاً السياسات الخارجية الجديدة الثورية للولايات المتحدة. وجواباً على التعبير عن القلق الذي أبداه الدبلوماسيون، صرحت مجموعة من شاغلي الوظائف حالياً ومن المسؤولين الجمهوريين السابقين أن نقاد رأيه، في الحقيقة قد "ضُللوا" لأن وجهات نظره "كانت متطابقة" مع وجهات نظر الرئيس وأن "خلافاتهم على ما يبدو كانت مع رجل انتخب مرتين من الشعب الأمريكي ليصمم ولينفذ السياسات الأمنية، وليست خلافاتهم مع واحدٍ من أفعل وأوضح مسؤوليه في ترقية تلك السياسات". وحين لم يستطع الرئيس بوش أن يحصل على تأكيد لتسمية بولتون من مجلس الشيوخ، أرسله إلى الأمم المتحدة في تعيين تم في أثناء توقف جلسات مجلس الشيوخ.

وصار تعبير "المحافظون الجدد" مستخدماً استخداماً شائعاً لوصف أولئك الذين شكلوا الفلسفة الجديدة لحكومتنا. والمعنى المأخوذ من معجم قديم تماماً ولكنه تقليدي هو "ليبرالي سابق يتبنى المحافظة السياسية المعتدلة"، أو "قادم جديد إلى المحافظة". وكانت أول مواجهة لي مع التسمية حين اتهمتني سفيرة الرئيس ريجان إلى الأمم المتحدة، جين كيركباترك، وهي محافظة جديدة، بأنني قد حاولت ان "افرض اللبرلة ونشر الديمقراطية" على البلاد الأخرى. وسَخِرَتْ

من "الاعتقاد أن من الممكن تحويل الحكومات إلى الديمقراطية في أي زمان، وفي أي مكان، وتحت أي ظروف." وقالت إن الديمقراطية تعتمد "على ظروف اجتماعية، وثقافية، واقتصادية معقدة"، وتستغرق "عقوداً، إن لم تكن قروناً." وتابعت في تبجيل "الدكتاتوريات التقليدية المستبدة" مثل نيكاراغوا تحت حكم سوموزا، والفلبين تحت حكم ماركوس، وتشيلي تحت بينوشيه. وأتذكر أن واحدة من أولى المهام الدبلوماسية لكيركباتريك كانت مع الحكام المستبدين في تشيلي وفي الأرجنتين لتؤكد لهم أن سياستي الدخيلة في حقوق الإنسان لن تكون بعد ذلك الوقت مشكلة بالنسبة إليهم.

ومنذ ذلك الوقت، كنت محتاراً بشأن تعريف المحافظين الجدد، الذين قاموا على ما يبدو بإدانة الخطط السياسية لمعظم الرؤساء الآخرين، الديمقراطيين منهم والجمهوريين، ولم يكن لهم تحالفات دائمة مع الليبراليين أو مع المحافظين. ومع أن التعريف معقد وقابل للتغيير كما هو واضح فإن "المحافظين الجدد" الآن على ما يبدو يعتنقون التدخل العدواني والأحادي الجانب في الشؤون الخارجية، وخصوصاً لتعزيز النفوذ الأمريكي العسكري والسياسي في الشرق الأوسط.

يهيمن بعض المحافظين الجدد الآن على أعلى مجالس الحكومة، ويبدو أنهم عازمون على ممارسة الهيمنة الأمريكية في كل أنحاء العالم، وعلى تحسين الحرب الاستباقية بوصفها طريقاً مقبولة للوصول إلى هذه الغاية الإمبراطورية. وقبل ثماني سنوات من تولي ريتشارد ديك تشيني منصب نائب الرئيس أوضح هذه الفرضية في إستراتيجيته، "إستراتيجية الدفاع للتسعينيات من 1990". وإما قبل 9/11 أو بعدها في الحال، اختار هو وزملاؤه المقربون العراق ليكون أول هدف كبير، ليزيلوا على ما يظهر التهديد لإسرائيل ولجعل العراق يخدم بصفة قاعدتنا الدائمة عسكرياً، واقتصادياً، وسياسياً في الشرق الأوسط.

هذا الاعتماد على القوة العسكرية لتوسيع نفوذ أمريكا إضافة إلى الانحرافات الحديثة الأخرى عن القيم التقليدية قد خفض تخفيضاً مؤثراً جاذبية عروضنا السياسية والثقافية والدينية للعالم. ومع أن معظم الأمريكيين مقتنعون بتفوق هذه الصفات التي يتحلى بها مجتمعنا الغربي. فقد صار واضحاً على نحو متزايد أن ذلك الجهد الأخرق لفرضها على الشعوب الأخرى يمكن أن يكون معيقاً ويأتي بالنتائج المضادة.

بعض "المحافظين الجدد" والناطقين التاريخيين باسم القضايا المحافظة هم الآن يشجبون تلك التسمية بالكامل، زاعمين أنهم ليسوا محافظين جداً ولا مرتبطين بسياسات الحكومة المحلية والدولية الحديثة. بما فيها العجوزات المالية العالية، وإقحام الحكومة الفيدرالية في الشؤون الولائية والفردية، والمغامرات الإمبراطورية. لقد اخترت أن أستخدم "الأصولي" لوصف خليط من الخصائص، يقبل بعضها أن يعزى إلى "المحافظين الجدد" أو الجناح اليميني المتطرف، وأنا مدرك أنه لا يوجد تعريفات مقبولة على وجه العموم لهذه الكلمات الوصفية.

هناك كما هو واضح اختلافات مخلصة في الرأي داخل الحياة الدينية والسياسية لأمتنا، وهذا متوقع. إن الأثر المشترك غير المسبوق للأصولية في الدين والسياسة هو الذي ساعد على خلق الانقسامات المقلقة العميقة والمتزايدة بين شعبنا. إن هذا تحد أساسي سوف يتوجب على مواطني بلادنا أن يواجهوه وأن يحلوه، لكي يشكلوا قلب أمريكا وروحها في المستقبل.

أنا مقتنع أن أمتنا العظيمة تستطيع أن تحقق كل الأحلام المعقولة في التأثير الكوني إذا قمنا على النحو الصحيح باستغلال القيم المفيدة لإيماننا الديني ولمثلنا العليا التاريخية المتصلة بالسلام، وبالحرية الاقتصادية والسياسية، وبالديمقراطية، وبحقوق الإنسان.

الفصل الحادي عشر

تشويه سياستنا الخارجية

على الرغم من وجود عوامل سياسية أخرى عديدة تبعث على التعقيد، فإن اتجاه الأصوليين إلى اختيار قضايا عاطفية معينة غوغائية لتملق الجماهير ولتجنب المفاوضات مع المعارضين قد أثرت تأثيراً عكسياً على السياسة الخارجية الأمريكية. وأحد الأمثلة المشهورة هو أن بعض القادة السياسيين الأمريكيين قد تبنوا النظر إلى فيدل كاسترو بوصفه الشرير الإنساني المطلق، ورفعوا أمة كوبا الصغيرة العاجزة عسكرياً بوصفها واحداً من أعظم التهديدات لأمن أمتنا ولثقافتها.

كان هناك قلق مبرر. وكان ذلك في أثناء فترة قصيرة منذ أكثر من أربعة عقود مضت، حين أعلم الرئيس جون كينيدي أن الصواريخ السوفييتية يجري إرسالها إلى كوبا، وسميت "أزمة الصواريخ الكوبية" بالاسم الصحيح. ومنذ ذلك الوقت، صار التركيز المستمر على كوبا يبعث على السخرية ويعيق ويأتي بنتائج معاكسة. وتم فرض حظر تجاري عقابي على الشعب الكوبي الذي يعاني الآلام في الأصل، كما تم التضييق على حرية مواطنينا في زيارة كوبا والتجارة معها، وصار التعاون الثقافي والإنساني معها خارجاً عن القانون. وكانت النتائج المحسوسة الوحيدة لهذه السياسة هي الإضرار بشعب كوبا، وتحويل الكوبيين

ضد الولايات المتحدة، وتعزيز مكانة كاسترو التي لا يستحقها بوصفه داوود الصغير الذي يواجه جالوت في واشنطن مواجهة ناجحة، وإدامة استبداده السياسي، وحرمان الأمريكيين من حرياتنا الخاصة بنا.

مع حل أزمة الصواريخ، أزيلت في عام 1977 كل القيود التي كانت مفروضة على السفر كي يؤدي التزاور بلا عوائق من الكوبيين الأمريكيين والآخرين في النتيجة إلى مقابلات ودية واسعة وصداقات مع المواطنين الكوبيين المضطهدين وتحسين احتمال مطالبتهم بالحريات الممنوحة لهم بموجب دستورهم هم وقوانينهم. وبدأت أيضاً عملية تأسيس علاقات دبلوماسية، أو الموافقة على "أقسام المصالح" أو البعثات الرسمية، في واشنطن وفي هافانا. واستجابة للضغوط التي مارسها المنفيون الكوبيون المحاربون في فلوريدا، قام خلفائي في المنصب بعكس هذه القرارات، باستثناء أن المكاتب التي أسسناها في واشنطن وفي هافانا قد بقيت، وهي تخدم بصفتها طرقاً للتواصل، على الأقل.

في عام 2002، قررت أن أقبل دعوة من الرئيس فيدل كاسترو لزيارة بلاده، ولكن ذلك فقط بعد أن ضمن لي حق التحدث مباشرة ومن دون رقابة إلى الشعب الكوبي، من خلال التلفاز والإذاعة معاً. وقمت بذلك بالتحدث بلغتي الإسبانية المحدودة، مقراً بمنافع خدمات كوبا المتفوقة في مجال التعليم والصحة ولكن مع التشديد على الكيفية التي يجري بها انتهاك حرية الكوبيين وحقوقهم السياسية، وشجعت حركة منشقة قوية ومحترمة تعرف باسم مشروع فاريلا. وقد حصل أوزوولدو بايًا ساردينياس، وهو رئيس حركة التحرير المسيحية، على أكثر من عشرة آلاف توقيع على عريضة تقدم علانية إلى مجلس النواب الكوبي، مطالبين بحقوق الحرية المقررة في دستور الأمة. ومنذ زيارتي، ومن سوء الطالع،

عمل البيت الأبيض بشكل متنام على التضييق على حرية المواطنين الأمريكيين، لزيارة الكوبيين أو التواصل معهم، أو الاتجار معهم، وجرى أيضاً تشديد يمكن التكهن به ويتناسب مع الإجراءات المتخذة ضد الأصوات المعترضة في كوبا.

والمثال النموذجي للأثر الشخصي لهذه السياسات الأمريكية الحديثة هي حالة الرجل العسكري الأمريكي، الرقيب كارلوس لازو، الذي كان له ولدان تحت سن العشرين يعيشان في كوبا ولم يكونا يرغبان في أن يتبعا والديهما في الهجرة إلى الولايات المتحدة. وبعد عودة كارلوس من العراق. وكان قد شارك هناك في هجوم الفلوجة الذي كان ضارياً ومكلفاً بشكل خاص، سافر الرقيب إلى ميامي وقدم طلباً روتينياً لزيارة ولديه. وبموجب السياسة الجديدة، لم يسمح له بذلك وأخبر أن مثل هذه الزيارات العائلية لن تكون مباحة، إلا كل ثلاث سنوات على وجه الاحتمال. إن من المزعج أن ندرك أن الرقيب الأمريكي لازو كان يستطيع أن يزور ولديه لو أنه كان مواطناً لأي أمة أخرى في العالم.

إن السياسة الأمريكية نحو كل نصف الكرة الأرضية من جهتنا قد أسيء تشكيلها بسبب هذا الوسواس المستحوذ علينا. لقد صار من المستحيل تقريباً لأي دبلوماسي صاحب مسار وظيفي من أي نوع ولا يظهر التزاماً يقارب التعصب بعزل الشعب الكوبي أن يحصل على منصب عال في وزارة الخارجية، وهذه الفلسفة هي التي تتغلغل في السفارات الأمريكية في كل أنحاء المنطقة.

وطوال عدة سنوات، كان مركز كارتر منغمساً بعمق في أمريكا اللاتينية في جهود تهدف إلى تقليل المعاناة من الأمراض وإلى تعزيز حقوق الإنسان والحكومات الديمقراطية. وتضمّن نشاطنا مراقبة العديد من الانتخابات المضطربة. ونحن على اطلاع وثيق وعلى صلة بالحالة السياسية المحلية في عدد

من البلدان. إن نظام الحكم القمعي في هافانا ما يزال مرموقاً ومانعاً مقلقاً ضد الإصلاحات الديمقراطية. ولكن السياسات المشوهة لحكوماتنا في الأمم الأخرى تسبب موجة من عاطفة معادية لأمريكا وتسبب إطاحة واستبدال القادة الذين يظهرون انهم مرتبطون ارتباطاً قريباً مع واشنطن.

إن ثمانية من الرؤساء المنتخبين في أمريكا الجنوبية من الذين ينطبق عليهم هذا الوصف اجبروا على التنحي عن مناصبهم منذ عام 2000، وتم اختيار موجة من القادة اليساريين، على طول الطريق من تشيلي والأرجنتين في الجنوب إلى فنزويلا في الشمال، ومن جملتها الإكوادور، والبرازيل، وبوليفيا. إنهم الآن يحكمون ثلثي القارة. ويرجح أن يلعب رد الفعل هذا ضد السياسة الأمريكية دوراً كبيراً في الانتخابات القادمة في البلدان الأخرى ومنها المكسيك.

في شهر أيار/مايو 2005، تم انتخاب المرشح الذي أيده رئيس فنزويلا هوغو شافيز، وهو خوسيه ميغويل انسولزا الاشتراكي التشيلي، ليكون أميناً عاماً لمنظمة الدول الأمريكية، وهي المرة الأولى التي يتم فيها في اي وقت من الأوقات اختيار مرشح لم يكن مدعوماً من الولايات المتحدة.

والوسواس الذي استحوذ على إدارة بوش بشأن المحكمة الجنائية الدولية هو مثير إضافي للغضب. وطوال عدة سنوات، عمل مركز كارتر مع المسؤولين في واشنطن ومع القادة من امم أخرى عديدة لتطوير المحكمة الجنائية الدولية، والمصممة لمنع ولمعاقبة أعمال إبادة الجنس وجرائم الحرب المروعة مثل تلك التي حدثت في رواندا، ويوغوسلافيا، وكمبوديا، وسيراليون، ودارفور في السودان. ووقعت 139 امة على ميثاق المحكمة الجنائية الدولية في عام 2002، وكان الميثاق مصوغاً بعناية لمنع معاقبة الأمريكيين عن أعمال إبادة الجنس في ما وراء

البحار، شرط أن تقوم المحاكم الأمريكية بتولي النظر في أي جرائم من مثل هذا النوع. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة تحاول الآن أن تجبر الدول الخاضعة لها على أن تضمن حصانة شاملة لأفراد القوات المسلحة الأمريكية، ولموظفي المقاولين، وللسياح. وإضافة إلى بلدان في مناطق أخرى، فإن اثني عشر بلدا في أمريكا اللاتينية والكاريبي يجري حرمانها من العون العسكري ومن غيره، وهو ما يثير سخطاً عميقاً. ويضر بقدرتها على التعاون معنا وإرادتها لهذا التعاون بخصوص السيطرة على المخدرات، والهجرة غير المشروعة، والإرهاب.

وقد شكل العزوف عن التفاوض مع الأعداء قضية أخرى حساسة، وصعبة، وخطرة، وكنت مشتركاً في ذلك اشتراكاً مباشراً. في شهر حزيران/يونيو 1994 طردت كوريا الشمالية مفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية (آي إيه ئي إيه) وكانت تهدد بمعالجة الوقود المستهلك من المفاعل النووي القديم المهدأ بالغرافيت في يونغ بايون لتحويله إلى بلوتونيوم. وكان هذا العمل يستطيع أن يعطيهم القدرة على إنتاج أسلحة نووية. وكان تهديد الحرب واضحاً في شبه الجزيرة الكورية ومجلس الأمن في الأمم المتحدة كان يجري حثه من طرف الولايات المتحدة الأمريكية على فرض عقوبات شديدة على كوريا الشمالية.

وكان هناك إجماع عام، يشارك فيه الخبراء العسكريون الأمريكيون، وهو أن القوات المشتركة لكوريا الجنوبية والقوات الأمريكية تستطيع أن تلحق الهزيمة بكوريا الشمالية. ولكن كان من المعروف أن أكثر من عشرين ألف قذيفة وصاروخ يمكن أن تطلق بسرعة من كوريا الشمالية إلى سيئول المجاورة، في كوريا الجنوبية. وقدر القائد الأمريكي في كوريا الجنوبية، الجنرال غاري لوك، أن الخسائر الإجمالية سوف تتجاوز كثيراً خسائر الحرب الكورية السابقة.

واستجابة لدعوات عدة سنوات من الرئيس الكوري الشمالي كيم الثاني سونغ وللتعبيرات عن القلق العميق من القادة الصينيين، وبموافقة الرئيس بيل كلينتون، ذهبنا روزالين وأنا إلى بيونغ يانغ وساعدنا على تأمين موافقة من الرئيس كيم وبموجبها كانت كوريا الشمالية سوف توقف برنامجها النووي في يونغ بايون وتسمح لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالعودة إلى الموقع للتأكد من أن الوقود المستهلك لم يكن قد أعيدت معالجته. ووعدني قائد كوريا الشمالية أيضاً بأنه سيكون له مناقشات دبلوماسية كاملة مع رئيس كوريا الجنوبية، كيم يونغ سام، الذي قبل فوراً الدعوة التي سلمناها له. وقد مات كيم الثاني سونغ بعد ذلك بقليل، ولم يتم الوفاء بهذا الوعد بعقد مؤتمر القمة إلا في ما بعد من ابنه كيم جونغ الثاني.

ومتابعة لهذه الالتزامات، أكدت الولايات المتحدة وحلفاؤنا في ما بعد للكوريين الشماليين أنه لن يكون هناك أي تهديد عسكري لهم، وأن إمداداً من الوقود الزيتي سوف يستبدل بإنتاج الطاقة المفقودة حين يتم إنهاء الإنتاج النووي في يونغ بايون، وأنه سيتم بناء منشأتين حديثتين للطاقة الذرية، وأن قضبان وقودهما وعمليتهما ستكون تحت رقابة من المفتشين الدوليين.

واستمرت المراقبة للوقود المستهلك في يونغ بايون (وكان يقدر انه كاف لنصف اثني عشرية أو ما يقاربه من القنابل). ولكن الإنشاء الموعود لبديل المنشآت النووية تأخر. وعقدت مناقشات ثنائية واسعة بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية، وزارت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت بيونغ يانغ لتحل أي صعوبات. وبادر كيم داي جونغ مع انتخابه رئيساً لكوريا الجنوبية، إلى بذل جهد قوي للعمل مع رئيس كوريا الشمالية كيم جونغ الثاني ليعم السلام شبه الجزيرة

الكورية، وحقق من التقدم ما كان كافياً لينال به جائزة نوبل للسلام في عام 2000.

ومع مجيء إدارة جديدة في واشنطن في عام 2001، تغيرت السياسة كلها تغيراً مؤثراً. ووصمت كوريا الشمالية علانية بأنها جزء من "محور الشر". مع تهديدات مباشرة وضمنية بالعمل العسكري ضد الأمة المعزولة المصابة بالذُهان الهُذائي، وتأسست سياسة رسمية منعت أي مناقشات مباشرة مع الكوريين الشماليين لحل الخلافات. وألغيت شحنات الوقود الزيتي الموعودة، وألغي معها إنشاء الوحدتين البديلتين للطاقة النووية. ووجهت السخرية علانية لكلا القائدين الكوريين وجهودهما المستمرة للسلام بين الشمال والجنوب، وكان ذلك في اجتماع قمة في المكتب البيضاوي مع الرئيس الكوري الجنوبي كيم داي جونغ.

وفي رد فعل من غير روية، ولكن بطريقة يمكن التكهن بها، على هذه السياسة الأمريكية، أعلنت بيونغ يانغ أنها انسحبت من معاهدة منع انتشار الأسلحة، وطردت مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وعاودت معالجة قضبان الوقود في يونغ بايون، وانها كانت تطور وسائل نووية متفجرة. وادعت الولايات المتحدة أن اليوارنيوم كان أيضاً ينقى من اجل استخدامه المحتمل للأسلحة، ولكن الخبراء الصينيين والكوريين الجنوبيين عبروا عن شكوكهم حول دقة هذا التقرير. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن هذه القرارات الكورية الشمالية لتطوير اسلحة نووية، تشكل انتهاكاً جسيماً للاتفاقات السابقة وتهديداً جدياً للسلام وللاستقرار في المنطقة.

والعقبات الأولية للتقدم هي أن الولايات المتحدة طلبت طلباً ملزماً بأن تتخلى كوريا الشمالية عن كل النشاط النووي وأن تتخذ قراراً بأن تقبل أن

الاتصال بين بلدينا سوف يكون مقبولاً داخل منتدى فقط مشكل من ست أمم. في حين أصر قادة بيونغ يانغ على استئناف المناقشات الثنائية المباشرة. وعلى تصريح واضح من واشنطن بأن القادة الأمريكيين ليس لديهم "نية عدوانية" ضدهم. وأعلن المسؤولون في كوريا الشمالية في عام 2005 انهم قد اعادوا تزويد مفاعلهم الذري بالوقود في يونغ بايون مرة أخرى، لأول مرة منذ عام 2002. وهذا ما يعطيهم ثمانية آلاف أخرى من قضبان الوقود النووي يمكن أن تعالج لتصير مادة متفجرة.

ويصرح سيليغ هاريسون، الذي زار كوريا الشمالية تسع مرات، وأحدثها في شهر نيسان/ابريل عام 2005، بالقول إن:

"إن صعود (الكوريين) المتصلبين في سياساتهم هو النتيجة المباشرة لسياسة إدارة بوش المدفوعة إيديولوجياً نحو كوريا الشمالية، وهي سياسة يمكن أن تنعكس وتتبدل تماماً فقط إذا قامت الولايات المتحدة ببداية جديدة متوافقة مع مدخل الالتزام التصالحي الذي يجري اتباعه الآن من الرئيس الكوري الجنوبي روه مو هايون... وعلى أي حال، فمن الواضح بشكل متزايد أن الإدارة ارتكبت غلطة كارثية في شهر كانون اول/ديسمبر عام 2002 بإلغائها للتجميد النووي الذي حدث في عام 1994، مستخدمة الاتهام الخاص باليورانيوم مبرراً لها. وهذا ما أعطى المتصلبين المبرر لمعاودة معالجة البلوتونيوم، وخلق بذلك الأزمة الحاضرة".

ويقتبس هاريسون كلام المفاوض الكوري الشمالي الرئيسي، كانغ سوك جو، وهو المسؤول الرفيع المستوى نفسه الذي تفاوضت معه على النواحي الفنية في عام 1994، وهو يقول إن المحادثات المباشرة السرية لحل المأزق يمكن أن يبدأ

بتصريح رسمي يقول إن الولايات المتحدة "سوف تحترم سيادة الجمهورية الديمقراطية الشعبية لكوريا الشمالية ووحدة أراضيها وهي مستعدة للتعايش السلمي".

إن الموقف العسكري الأساسي مشابه ولكنه أسوأ مما كان عليه منذ عقد من الزمان: نحن نستطيع أن ندمر كل الأمة بقواتنا العسكرية الضخمة، ولكن من المرجح الآن، مع المتفجرات النووية، ان أكثر بكثير من مليون من الإصابات سوف تنتج عن ذلك في صفوف الكوريين الجنوبيين والأمريكيين.

وقد تسبب إعلان حديث عن انسحاب قوات الولايات المتحدة لمسافة أبعد عن المنطقة المنزوعة السلاح في إثارة قلق متزايد في كوريا الجنوبية من أن القادة المتصلبين في بيونغ يانغ وفي واشنطن قد يعجّلون بلا روية بنشوب النزاع المنذر بالتهديد. وكشف استطلاع عام للراي في شهر نيسان/ابريل عام 2005 عن ان 29.5 بالمائة من الكوريين الجنوبيين يعتبرون الولايات المتحدة أكبر تهديد لهم، مقارنة بنسبة 18.4 بالمائة سموا كوريا الشمالية. وفي صفوف الطلاب الجامعيين راى 50.1 بالمائة امريكا بوصفها العقبة الكبيرة للسلام في شبه الجزيرة.

ويمكن تقديم دعاوى قوية على كلا الجانبين عن هذه القضية الحاسمة المهمة، ولكن دبلوماسية حسن النية بين الولايات المتحدة وبين كوريا الشمالية ضرورية. وحتى الآن، تمخضت السياسة الأصولية الداعية إلى عدم التفاوض مع الذين نختلف معهم عن نتائج هي عكس المقصود في كوريا الشمالية. وربما أدت في النتيجة إلى أن يقوم نظام الحكم الشيوعي بإنتاج الأسلحة النووية بسرعة. وفي الوقت نفسه، اكتسبنا عداوة حلفائنا في الشرق الأقصى وقللنا نفوذ أمريكا

وقامتها في آسيا. ومن غير المرجح أن يتراجع الكوريون الشماليون ما لم تف الولايات المتحدة بمطالبهم الأساسية.

إذا كان الأمريكيون سوف يتفاوضون كما فعلوا في الماضي، فإن الإطار العملي البسيط لعقد الاتفاقية موجود. مع كون كل العناصر مؤكدة بالأعمال المتبادلة المشتركة مع تفتيشات دولية لا تتعرض للعرقلة:

- تعطي الولايات المتحدة تصريحاً مؤكداً عن "عدم وجود نية عدوانية" وتتحرك نحو إقامة علاقات طبيعية إذا كانت كوريا الشمالية تتخلى عن أي برنامج أسلحة نووية وتبقى في سلام مع جيرانها.
- ويتم الوفاء بالمقدمات الأساسية لاتفاقات عام 1994 مع تعاون كوريا الشمالية، واليابان، وكوريا الجنوبية، والولايات المتحدة، وروسيا، والصين.

وكان المؤشر الآخر إلى هذه السياسة الأصولية، بعدم التواصل مع الخصوم المحتملين، هو طريقة التعامل الأمريكية الحديثة مع سورية. ولكي نعزز السلام في الشرق الأوسط، وفي إحدى المناسبات، وللاستجابة لطلبات البيت الأبيض، زرنا روزالين وأنا، دمشق أولاً في عام 1983، وعدنا مرات عديدة. وكان لنا مناقشات طويلة ومفيدة في الغالب مع الرئيس حافظ الأسد. وكانت لنا الفرصة لنتعرف إلى عائلته. وشمل ذلك ابنه بشار الأسد، الذي خلف والده قائداً لسورية في شهر حزيران/يونيو عام 2000.

ومع وجود خطط للذهاب إلى الشرق الأوسط في شهر تموز/يوليو عام 2005 لمراقبة الانتخابات الفلسطينية، رتبت في الرحلة نفسها أن أزور قادة سورية، والأردن، ومصر. وكانت سورية قد أكملت سحب قواتها من لبنان، وكانت

مصر قد أعلنت خططاً لعقد شكل من الانتخابات الديمقراطية. وكانت غايتي هي أن أبلغ تحياتي الشخصية للقادة وأن أناقش مصالحهم المحلية والدولية المتغيرة. وكنت أود أيضاً أن أشجع مساندتهم لعملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين وأن أستكشف أي أفكار مساعدة أو مقترحات من أجل مقابلاتنا المخطط لها أن تعقد مع القادة الفلسطينيين. وكان الهدف المرادف هو أن أحصل على أفكار ثاقبة متبصرة قد تكون مساعدة لي في كتابة كتابي التالي، الذي أخطط أن يشمل التطورات في منطقتهم.

وكالمعتاد، ومقدماً قبل شهرين، أشعرت وزارة الخارجية والبيت الأبيض بخطط سفري، وتلقيت فوراً تقريباً دعوة من مستشار الرئيس للأمن القومي. وأعلمني أن سورية لم تتعاون في بعض القضايا التي تتصل بالحرب القريبة في العراق، وأن سياسة الولايات المتحدة كانت تقوم على تحديد كل الزيارات إلى دمشق ليكون ذلك وسيلة للضغط على الرئيس بشار الأسد. وبعد مناقشة حامية نوعاً ما، طلب رسمياً باسم الرئيس أن تلغى زيارتنا. وكانت هذه بالنسبة إلي خبرة غير مسبوقة، وأجبرت على الامتثال.

وإحدى الخلطات الغريبة للغاية التي تمزج الدين والحكومة هي ذلك التأثير القوي لبعض الأصوليين المسيحيين على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ويكاد يكون كل شخص في أمريكا قد سمع بسلسلة المتروكون من تأليف تيم لاهي وجيري بي. جينكينز، وهي اثنا عشر كتاباً حققت الأرقام القياسية في المبيعات لكل الأوقات. والمقدمة الدينية لهما تستند إلى اختيار حريص من آيات الإنجيل، ومعظم المختارات من كتاب سفر الرؤيا، وهو يصف سيناريو نهاية العالم. حين يعود المسيح، سوف يرفع المؤمنون الحقيقيون إلى السماء، وهناك مع

الله، سوف يراقبون تعذيب معظم المتبقين من البشر المتروكين في الخلف. وهذه الحادثة المتجاوزة سوف تكون فورية، وأما الزمان فلا يمكن التكهن به. وهناك ملايين، حرفياً من زملائي المعمدانيين وآخرين، يؤمنون بكل كلمة من هذه الرؤية، بالاستناد إلى تمجيد النفس للقلة المختارة، بالإضافة إلى الإدانة والهجر، في اثناء فترة "البلاء"، لأفراد الأسرة، وللأصدقاء، وللجيران الذين لم يتم اختيارهم للخلاص.

إن إقحام هذه المعتقدات في سياسات الحكومة الأمريكية هو الذي يشكل سبباً للقلق. فهؤلاء المؤمنون مقتنعون أن عليهم مسؤولية شخصية للتعجيل بهذا القدوم "للتصدع" في النظام لتتحقق نبوءة الإنجيل. ويدعو جدول أعمالهم إلى حرب في الشرق الأوسط ضد الإسلام (العراق؟) وإلى اخذ كل الأرض المقدسة بواسطة اليهود (احتلال الضفة الغربية؟)، مع الطرد الكامل لكل المسيحيين وغير اليهود الآخرين. وذلك ليتبعه قهر المنطقة على يد الكفار (أتباع المسيح الدجال)، ونصر نهائي للمسيح. وفي وقت التصدع هذا، سوف يتحول كل اليهود إلى المسيحية أو يحرقون.

بالاستناد إلى هذه المقدمات، كان بعض القادة المسيحيين في القمة في مقدمة المروجين لحرب العراق، وقاموا برحلات متعددة إلى إسرائيل، لدعمها بالأموال، وللعمل مع جماعات الضغط في واشنطن من أجل استعمار الأراضي الفلسطينية. وكان الضغط الشديد من اليمين الديني عاملاً رئيساً في القبول المستتيم من أمريكا للبناء الضخم للمستعمرات الإسرائيلية ولطرق المواصلات الرابطة بينها على الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية. وقد استغل بعض القادة الإسرائيليين هذه المساعدة في الوقت الذي يتجاهلون فيه البلاء النهائي المتوقع لجميع اليهود.

وهذا ما جلب تحولاً مؤثراً آخر عن المعارضة الأمريكية للنشاط الاستعماري الاستيطاني وهي المعارضة التي سادت في أثناء العقود الأربعة السابقة، ابتداء من الوقت الذي كان فيه دوايت آيزينهاور رئيساً وامتداداً عبر مدد رئاسة خلفائه، حتى عام 1993، حين أعطى الرئيس بيل كلينتون موافقة شاملة تقريباً لتوسيع الاستعمار الاستيطاني. وكان الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش قوياً بشكل خاص في معارضته لمستعمرات إسرائيلية محددة تقع بين القدس وبيت لحم، ووصل إلى التهديد بقطع المساعدة المالية إلى إسرائيل.

ومع أن بعض التعدي على الأراضي الفلسطينية يمكن تسويته في مفاوضات السلام المستقبلية، فإن الخطط الإسرائيلية الحالية، لاستبقاء مستعمرات واسعة الأثر في الضفة الغربية ولتوسيع جيب ضخم معروف باسم معاليه أدوميم من مكان عميق داخل الضفة الغربية على طول الطريق إلى القدس الشرقية، سوف يرجح أن تلفظ نعي الموت للآمال المعقودة على "خريطة الطريق من أجل السلام"، وهي حجر الأساس لسياسة الرئيس جورج دبليو. بوش الشرق أوسطية. وهذا ما سيكون مأساة للإسرائيليين وللفلسطينيين.

* *

الفصل الثاني عشر

مهاجمة الإرهاب
لا حقوق الإنسان

هذا الفصل كريه تستثقل النفس كتابته بشكل خاص، لأنه يتضمن بعض التقديرات المحرجة للحكومة التي قدتها ودافعت عن قيمها. إن مفهوم أن أمريكا تصون معايير أخلاقية وسلوكية متفوقة دفعتنا مباشرة بعد هجمات 9/11 إلى القيام بدور قيادي كوني في محاربة الإرهاب. وكانت أمتنا طوال مدة مديدة قد رفعت راية حقوق الإنسان لجميع الآخرين ليروا وليتبعوا، وهو دور كان قد وصف بأنه "دور كدور المسيح المخلص المنتظر الذي عين نفسه في شؤون العالم." ولاستعادة هذه القيم الوطنية ثم صونها. من المهم أن يفهم الأمريكيون التغيرات الثورية التي حدثت في السياسة التي نستخدمها للوصول إلى الغاية المهمة التي نهدف إليها من حماية النفس.

لقد ترعرعتُ في الجنوب العميق.[25] في منطقة كان فيها الرق عنصراً سائداً في الحياة طوال 250 سنة تقريباً حتى ألغي بالتصديق على التعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور الأمريكي في عام 1868 وعام 1870. ومع ذلك، ففي أثناء فترة صباي، استبدل العزل العنصري بالرق بالاستناد إلى قرار المحكمة الأمريكية العليا في 1896 الذي قضى بأن المعاملة على أساس "معزولون ولكن متساوون" للشعب الأسود كانت معاملة قانونية ومقبولة. وبفضل الشجاعة السياسية للرئيس هاري ترومان تم استئصال التمييز القانوني في

القوات المسلحة الأمريكية في عام 1948، ومن جملتها الغواصة التي كنت أخدم فيها، ثم في كل أمتنا في غضون العقدين التاليين بفضل حركة الحقوق المدنية التي رأسها مارتن لوثر كينغ الصغير، والقيادة القوية للرئيس ليندون جونسون.

ولكن هذا النصر للحقوق المدنية في الوطن لم يمنع أمريكا من قبول بعض أشد أنظمة الحكم الأجنبية وحشية ومساندتها، في نصف الكرة الأرضية في جهتنا، وفي المناطق الأخرى، وهي أنظمة خرقت الحقوق الإنسانية لمواطنيها خرقاً صارخاً. وأعلنت بصفتي الرئيس المنتخب الجديد أن حماية هذه الحقوق ستكون هي الأساس لسياسة بلادنا الخارجية، واتخذت إجراءات دؤوبة لتنفيذ هذا الالتزام. وكان باعثاً على الرضا أن نلاحظ موجة من الانتشار الكاسح للديمقراطية عبر نصف الكرة الأرضية في جهتنا وفي المناطق الأخرى، حين كانت الحقوق الأساسية للحرية محترمة.

في أثناء السنوات الأربع الأخيرة كان هناك تغييرات مؤثرة في سياسات أمتنا نحو حماية هذه الحقوق. وكثيرون من مواطنينا قبلوا هذه السياسات غير المسبوقة بسبب الخوف من الهجمات الإرهابية. ولكن الضرر الذي لحق بسمعة أمريكا كان ضرراً شديداً. كانت الولايات المتحدة سابقاً موضع إعجاب شامل تقريباً بوصفها الحامية البارزة لحقوق الإنسان، وأما الآن فصارت هدفاً من أول أهداف المنظمات الدولية المحترمة المعنية بشأن هذه المبادئ الأساسية للحياة الديمقراطية. وبعض أعمالنا مشابهة لأعمال أنظمة الحكم المسيئة التي كنا ندينها تاريخياً.

وبعد هجمات 9/11 بالغت حكومة الولايات المتحدة برد الفعل بقيامها باحتجاز أكثر من ألف ومائتي رجل بريء في كل أنحاء أمريكا، لم يسبق لأحد

منهم مطلقاً أن ادين باي جريمة لها علاقة بالإرهاب. واستبقيت هوياتهم سرية، ولم يعطوا أبداً الحق بسماع التهم الموجهة إليهم أو الحق بتلقيهم المشورة القانونية. وكلهم تقريباً كانوا عرباً أو مسلمين، وكثيرون اجبروا على مغادرة أمريكا.

ولتقنين مثل هذه الإساءات للحريات المدنية، سُنَّ قانون الوطني على عَجَل، مع وجود عدد من البنود تَحدَّدَ لها ميعاد لينقضي مفعولها في عام 2005. والقادة المعارضون لبعض بنوده هم من المحافظين جداً ومن الجمهوريين المعروفين جيداً وهم الذين نظموا مجموعات معروفة باسم وطنيون لاستعادة الزواجر والضوابط، ومؤسسة مجلس الشيوخ الحر للبحث والتعليم. وقد دعا الرئيس إلى توسيع القانون وجعله دائماً. ولكن "الوطنيين" المحافظين أنفسهم استنكروا مثل هذه البنود بوصفها تخويلاً للعملاء الفيدراليين بتفتيش بيوت الناس وأعمالهم سراً، وبمصادرة الممتلكات من دون أي تاريخ محدد أو من دون إعطاء أي إشعار بأن التدخل قد حدث، وبالقيام بجمع المعلومات الشخصية من دون إعطاء إشعار عن المواطنين الأمريكيين، ومن جملة ذلك التواريخ الطبية، وسحب الكتب من المكتبات، والبضائع التي اشتروها. وتستطيع الحكومة الآن أن تستولي على قاعدة معلومات كاملة، وعلى كل السجلات الطبية لمستشفى أو على كل الملفات لجماعة مهاجرة، حين تتفحص عن شخص واحد. ومع أن معظم الفقرات المتنازع عليها من قانون الوطني ليست مركزة على الإرهابيين المشكوك فيهم وإنما تنطبق على الجمهور العام، فإن قادة الحكومة قد نجحوا في تمديد العمل بهذه الفقرات أو جعلها دائمة.

وقد قبض على عدد كبير من الرجال ومن الشباب في الحرب في افغانستان وفي العراق وحولوا إلى سجن معسكر أمريكي في غوانتانامو في كوبا.

حيث تم حبس حوالي 520 من الناس من اربعين امة ومنعوا من التواصل مع الآخرين لمدة تزيد عن ثلاث سنوات، وتركوا كلهم تقريباً من دون مشورة قانونية ومن دون تهم موجهة إليهم. وقد اكد المسؤولون الأمريكيون أيضاً أن كثيرين من المساجين اسيء إليهم جسدياً.

وبعد أن زارت اللجنة الدولية للصليب الأحمر ستة سجون من خمسة وعشرين سجناً أمريكياً أو ما يقارب ذلك العدد قدمت تقريراً يسجل 107 من المعتقلين تحت سن الثامنة عشر، وبعضهم صغير يبلغ عمره ثمانية أعوام. وروى الصحفي سيمور هيرش في شهر أيار/مايو 2005 أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد تلقى تقريراً افاد بانه كان يوجد 800 - 900 "من الفتيان الباكستانيين الذين راوحت اعمارهم بين 13- 15 سنة في الحبس." وقد جمعت منظمة الصليب الأحمر الدولية، ومنظمة العفو الدولية، ووزارة الدفاع الأمريكية ادلة أساسية من أقوال الشهود عن تعذيب الأطفال. أكدها جنود شاهدوا الإساءة أو ساهموا فيها. وبالإضافة إلى الشهادة الشخصية من الأطفال حول سوء المعاملة الجسدية والعقلية، وصف تقرير من الجنرال جانس كاربنسكي، وهو الضابط المسؤول سابقاً عن سجن ابو غريب، زيارة قام بها إلى معتقل يبلغ من العمر احد عشر عاماً في زنزانة من المجمع كانت تؤوي سجناء خطرين للغاية. ويتذكر الجنرال أن ذلك الطفل كان يبكي. "وانه قال لي إن عمره تقريباً اثنا عشر عاماً." وانه "كان يريد فعلاً أن يرى امه. فهل يمكن التكرم بدعوة أمه." إن أطفالاً مثل هذا الذي يبلغ أحد عشر عاماً من العمر قد حرموا الحق في رؤية والديهم، أو رؤية محام، أو أي شخص آخر. ولم يخبروا بالأسباب التي اعتقلوا من أجلها. وقد قال متحدث باسم وزارة الدفاع للسيد هيرش إن "العمر ليس عاملاً مقرراً في الاعتقال."

وروى أطباء من حقوق الإنسان في شهر نيسان/ إبريل 2005 ان "الولايات المتحدة، منذ عام 2002 على الأقل، شاركت في التعذيب النفسي المنهجي" للمعتقلين في غوانتناموا وأن هذا "أدى إلى عواقب صحية مدمرة للأفراد الذين خضعوا للتعذيب". ورؤية السجناء للحياة لم تتحسن حين صرح وزير الدفاع أن معظمهم لن يطلق سراحهم ولو حوكموا في يوم ما ووجد أنهم أبرياء.

وقد أصدر الدكتور بيرتون جي. لي الثالث، وهو طبيب البيت الأبيض الشخصي للرئيس جورج اتش. دبليو. بوش، هذا البيان:

"ترافقت التقارير المقدمة عن التعذيب الذي مارسته القوات الأمريكية بدلائل تفيد أن أفراد الهيئة الطبية العسكرية قد لعبوا دوراً في هذه الإساءة وذلك طبقاً لتوجيهات الإرشاد الأخلاقي العسكري الجديدة التي تخول بالفعل أفراد المهن الصحية أن يتواطؤوا في سوء المعاملة للسجناء. إن توجيهات الإرشاد الجديدة هذه تشوه القواعد الأخلاقية التقليدية إلى ما وراء الحدود المعترف بها وذلك لتخدم مصالح المحققين، لا الأطباء والمعتقلين.... إن التعذيب المنهجي الذي تقره الحكومة ويتلقى العون والتشجيع من مهنتنا الخاصة، عمل غير مقبول. ويجب علينا، بصفتنا من المهنيين الصحيين، أن نساند الدعوات المتزايدة من أجل تشكيل هيئة مستقلة من الحزبين لتحقق في التعذيب الذي حدث في العراق، وفي أفغانستان، وفي خليج غوانتانامو وغير ذلك من الأماكن، ولنطالب باستعادة المعايير الأخلاقية التي تحمي الأطباء، والمرضين والممرضات، والعاملين الطبيين، والنفسين من التحول

إلى عاملين مسهّلين إلى الإساءة. إن أمريكا لا تستطيع الاستمرار في النزول إلى هذا الطريق. فالتعذيب يدل على الضعف، لا على القوة. إنه لا يظهر الفهم أو القدرة أو الشهامة. إنه ليس قيادة. إنه رد فعل من مسؤولين حكوميين اكتسحهم الخوف واستسلموا لسلوك لا يليق بهم ولا يليق بمواطنين من الولايات المتحدة."

إن الصور الفظيعة من سجن أبو غريب في العراق قد جاءت لبلادنا بفقدان الثقة بها. وهذا مثير للقلق على وجه الخصوص، نظراً إلى أن ضباط الاستخبارات الأمريكية قدروا للصليب الأحمر أن 70 إلى 90 بالمائة من المعتقلين في هذا السجن كانوا قد اعتقلوا خطأ. وروى مسؤولون عسكريون أن 108 من السجناء ماتوا في الحبس الأمريكي في العراق وفي أفغانستان وفي أماكن سرية أخرى منذ عام 2002 فقط، مع الإقرار بأن قتل النفس البشرية كان سبب الوفاة في 28 حالة على الأقل. والحقيقة التي تبين أن واحداً فقط من هؤلاء كان في سجن أبو غريب تشير إلى النمط الواسع الانتشار من الإساءة للسجناء، وهو بالتأكيد ليس محدوداً بالأعمال أو بالقرارات التي اتخذتها قلة فقط من الأشخاص المتطوعين المارقين.

وكان اللواء العراقي عبد حامد موحوش[26] قد حضر بنفسه طواعية للمسؤولين الأمريكيين في بغداد في محاولة منه لتحديد مكان أبنائه، ولكن اللواء اعتقل، وعذب، وحشر في داخل كيس نوم أخضر حيث مات من الصدمة والاختناق في 26 من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2003.

هذه التحقيقات السطحية تحت رعاية وزارة الدفاع جعلت من الواضح أنه ما من أحد من الضباط العسكريين من ذوي المستوى العالي أو المسؤولين

الحكوميين سيكون مسؤولاً وموضع حساب، بل ليس هناك أدنى شك في أن تصريحاتهم العامة وتوجيهاتهم الخاصة تلقي بالشك وأحياناً بالسخرية على تطبيق المعايير الدولية لحقوق الإنسان ومعاملة الأسرى.

وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 ومرة ثانية في شهر حزيران /يونيو 2005 قام مركز كارتر، وقد قلق قلقاً عميقاً بشأن الأثر العكسي لهذه السياسات الأمريكية الجديدة في أمم أخرى، باستضافة الحركات الرئيسية من المدافعين عن حقوق الإنسان والديمقراطية من بلاد كثيرة، في مؤتمرين. وكان زملائي في رئاسة الاجتماعات في كلا المؤتمرين هم المندوبين السامين للأمم المتحدة لشؤون حقوق الإنسان، بالإضافة إلى أن منظمات أخرى دولية لشؤون حقوق الإنسان لعبت دوراً رئيسياً في المناقشات.

وما علمناه في هذه الجلسات كان مزعجاً حقاً، وجاءت التقارير من العاملين النشيطين الشجعان والنشيطين الفاعلين اللاعنفيِّين من الذين عرضوا أنفسهم لمخاطرات كبيرة في ظروف خطرة لحماية حرية الآخرين وحقوقهم. وكثيرون منهم كانوا قد تعرضوا للسجن أو المضايقات الشديدة نتيجة لتحميلهم حكومات بلادهم المسؤولية وجعلها موضع محاسبة للمعايير الدولية لحقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية. وكانوا مقتنعين أنه كان هناك تغيير عمدي عالي المستوى، يستند إلى قاعدة واسعة، في السياسة الأمريكية للتخلي عن التزامنا الثابت الطويل الأمد بحماية حقوق الإنسان الأساسية داخل أمتنا وفي كل أنحاء العالم أو تخفيض هذا الالتزام. وروى المدافعون عن حقوق الإنسان ايضاً في عام 2003 ان عدداً كبيراً من الأشخاص المتهمين كان يجري إرسالهم من امريكا إلى بلاد اجنبية مختارة كان التعذيب فيها مقبولاً بوصفه وسيلة لانتزاع المعلومات.

وقد أنكر المسؤولون الرسميون الذين مثلوا حكومة الولايات المتحدة في هذا المؤتمر هذا الزعم إنكارا قوياً.

وكان المشاركون على اتفاق بوجه عام على أن السياسات الحديثة للولايات المتحدة كان يجري تبنيها وتشويهها من أنظمة حكم انتهازية لتخدم مصالحها الخاصة. وأخبرونا عن تراجع عام من حكوماتهم عن الالتزامات السابقة بحقوق الإنسان، وأكدوا أن هناك خطراً في تراجع الحركات الديمقراطية لما كانت عليه قبل عقود في بعض بلدانهم. وشرح المشاركون أن القادة القمعيين قد تجرؤوا في اضطهاد وإسكات المواطنين الصرحاء تحت مظهر محاربة الإرهاب، وأن هذا العذر كان يحرف الضغط القادم من الولايات المتحدة ومن القوى الأخرى بخصوص انتهاكات حقوق الإنسان. وكانت عاقبة ذلك أن كثيرين من المحامين، والأساتذة الجامعيين، والأطباء، والصحفيين قد ألصق بهم اسم الإرهابيين. وكان ذلك في الغالب لمجرد نقد سياسة معينة أو من أجل قيامهم بعملهم اليومي. وسمعنا عن حالات كثيرة تتصل بالمحامين الذين يحامون عن حقوق الإنسان الذين يجري اتهامهم بتحريض الإرهابيين وذلك ببساطة بسبب دفاعهم عن الأشخاص المتهمين.

وكانت هناك تقارير مقلقة إقلاقاً مساوياً تفيد أن حكومة الولايات المتحدة كانت تسهم في بعض الحالات إسهاماً مباشراً في تآكل حماية حقوق الإنسان، وذلك بتشجيعها للحكومات على تبني سياسات تراجعية في مكافحة الإرهاب تقود إلى تقويض المبادئ الديمقراطية وحكم القانون، وتذهب في الغالب بعيداً إلى ما هو أكثر من القانون الوطني في الولايات المتحدة.

وتشجّعنا جميعاً لأن أشد السياسات الأمريكية الجديدة وطأة وثقلاً كان يجري مناقشتها في مجلس الشيوخ ومن خلال نظام المحكمة الفيدرالية وسوف

تصحح في نهاية المطاف. ومع أن العديد من القضايا القانونية لم تصل بعد إلى مستوى الاستئناف النهائي لتكون واضحة. فإن معظم الحالات المحلية موضع النقاش قد تم حلها حلاً مرضياً. وقضت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في شهر حزيران/ يونيو 2004 ان المحاكم الفيدرالية الأمريكية "تملك السلطة القضائية للنظر في التحديات الموجهة إلى شرعية اعتقالات مواطنين أجانب أسروا في الخارج فيما يتصل بأعمال الحرب وحبسوا في خليج غوانتانامو."

وفي الوقت الذي لم يحصل فيه حتى الآن أي واحد من المعتقلين في غوانتانامو على مثل هذه المراجعة بسبب تشدد الحكومة. فإن عدداً صغيراً منهم زاره محامون يبحثون في إيداع مستندات استئناف لإحضار الأشخاص. وقد قللت الإدارة الأمريكية الخضوع لقرار المحكمة العليا إلى الحد الأدنى وذلك بتأسيس محاكم مراجعة لحالة المحارب لتقرر إن كان المعتقل "محارباً معادياً." وتتكون كل محكمة مراجعة لحالة المحارب من هيئة محلفين من ثلاثة ضباط عسكريين. وتعتمد اعتماداً مزعوماً على الدليل السري. لتقرر إن كان اسم "عدو محارب" يجب أن يبقى ملتصقاً بكل معتقل من المعتقلين. الذين لا يملك اي واحد منهم حتى الآن حق الوصول إلى المشورة القانونية لمساعدته. واستغرق ذلك سنتين ونصف السنة بعد وصول المعتقلين إلى هناك. ولكن القرار كان أول خطوة نحو إجبار الإدارة على استعادة حكم القانون إلى معاملاتنا مع الأجانب الموجودين في حبس أمريكي.

في معظم البلدان التي تمثلت في مؤتمراتنا لحقوق الإنسان. ومن جملتها ديمقراطيات غضة. لم تكن مثل هذه الزواجر والضوابط قد تطورت تطوراً حسناً جداً في النظام القضائي وهو ما يجعل المساءلة والرجوع عن السياسات المسيئة ونقضها في تلك الدول أقل احتمالاً بكثير من الولايات المتحدة.

وكان هناك موضوع آخر حظي بالاهتمام في صفوف الذين جاؤوا من أيرلندا الشمالية، وتركيا، وبورما، وكولومبيا، وإسرائيل، والأراضي الفلسطينية المحتلة، وأوزبكستان، ومن مجتمعات أخرى غلبت عليها النزاعات، وهو أن الاستخدام المبكر للقوة المسلحة والسياسة المعلنة عن الحرب الاستباقية قد أرسلت إشارة تفيد أن العنف قد صار بديلاً أكثر قبولاً بكثير جداً من المفاوضات السلمية في حل الاختلافات. وكان الإجماع العام لهؤلاء الخبراء في الديمقراطية والحرية هو أن السياسات المستندة إلى العنف تؤدي دائماً في النتيجة إلى دورة من العنف المتصاعد.

من الواضح أن أسرى الحرب هم من بين أكثر الناس عرضة للأذى. فهم ليسوا فقط تحت السيطرة الكاملة لآسريهم، بل إن من المرجح جداً في وقت النزاع أن تنعكس بغضاء ميدان المعركة ووحشيتها داخل جدران السجن العسكري. ومن العوامل الأخرى المعروفة معرفة جيدة هي أن السرية في وقت الحرب تستر في الغالب الأوامر والسياسات التي يتخذها الرؤساء وتستر الأعمال التي يرتكبها المرؤوسون، إضافة إلى أن بعض العناصر المتصلة بالبغضاء القومية والخوف يجري رفع شدتها بسبب نفسية الحرب.

وقد خَبِرَت أسرتي الخاصة أثر هذه العوامل حين وقع في الأسر خالي الأثير لدي توم غوردي، وكان ضابط صف في الأسطول، وعومل معاملة وحشية بصفته أسير حرب، وذلك بعد أن أسر في غوام من اليابانيين بعد شهر من الهجوم على بيرل هاربر في عام 1941. وبعد عامين جاء تقرير بموته ولكنه وجد حياً بعد استسلام اليابان، وكان وزنه خمسة وثمانين رطلاً، وقد أوهنته أربع سنوات من سوء المعاملة الجسدية والنفسية.

إن الانتشار الواسع لمثل هذه الإساءة لرجال الخدمة العسكرية المأسورين وللنساء العسكريات في أثناء الحرب العالمية الثانية هو ما استحث مجتمع الأمم ودعاه إلى الاجتماع لتحديد الضمانات الأساسية لمعاملة الأسرى المعاملة المناسبة تحديداً دقيقاً كاملاً. وهذه القيود نتيجة لمؤتمر عالمي عقد في جنيف، في سويسرا، عام 1949، وأعاد تعريف وتوسيع ما هو معروف باسم "مواثيق جينيف." ولم يسبق لأي قوة ديمقراطية أن وضعت وثاقة هذه الضمانات وصدقها وقابليتها للتطبيق الشامل موضع تساؤل، حتى وقت قريب، وحتى جاء ذلك من أمريكا! وبدلاً من الوفاء بأحكام القيود التاريخية، قرر قادتنا السياسيون أن ينتهكوها، مستخدمين العذر بأننا في حرب على الإرهاب. ومن الواضح أن مواثيق جينيف كانت مصممة بصورة مخصوصة لحماية أسرى الحرب، لا أسرى السلم.

ومع أن الجهود الناجحة التي بذلها مسؤولون كبار قد ضمنت أن تكون المسؤولية والعقاب محدودة بقلة من الأفراد العسكريين من المستوى المنخفض، فإن التغيرات الأساسية في سياسات حقوق الإنسان كانت قد نوقشت وتم تبنيها في البيت الأبيض، ووزارة العدل، ووزارة الدفاع، وترافقت مع مخالفة متقطعة في الرأي من وزارة الخارجية. وقد كشفت التقارير هذه الأنواع من التصريحات الرسمية:

> "إن الرئيس، بالرغم من القوانين المحلية والدولية التي تقيد استخدام التعذيب، يمتلك، بوصفه القائد العام، السلطة ليوافق على اي أعمال جسدية أو نفسية تقريباً في أثناء التحقيق، حتى حد التعذيب وشاملاً له."
>
> وزارة الدفاع

"في رايي، أن هذه الرؤية الجديدة (بعد 9/11) تؤدي إلى جعل القيود الصارمة لجينيف على معاملة أسرى الأعداء قيوداً عتيقة مهجورة وتؤدي إلى جعل بعض نصوصه غريبة."

المستشار القانوني للبيت الأبيض البيرتو غونزاليس،

وهو الآن النائب العام، المسؤول الرئيس عن تنفيذ القانون في الولايات المتحدة

وقد كشفت الأدلة اللاحقة أن القادة الأمريكيين، برغم الإنكار السابق في أثناء مؤتمرنا الأول لحقوق الإنسان، قد تبنوا سياسة مكملة تضمنت نقل أسرى إلى بلاد أجنبية، ومن جملتها مصر، والمملكة العربية السعودية، وسورية، والمغرب، والأردن، وأوزبكستان، وكان معظم هذه الدول قد أدين في التقارير السنوية لحكومتنا عن حقوق الإنسان لأنها تستخدم التعذيب عادة لانتزاع المعلومات، ومع أن هذه الممارسة لقيت معارضة من وزارة الخارجية، فقد تمت الموافقة عليها في أعلى المستويات من حكومة الولايات المتحدة. وهي معروفة باسم "تسليم مجرمين غير عاديين." وكانت الأعذار الرسمية هي أن الضحايا صنفوا "محاربين أعداء غير قانونيين" وأن أفراد قواتنا العسكرية وأفراد وكالة الاستخبارات المركزية "لا يعرفون على وجه اليقين" أن الضحايا المُسَلَّمين كانوا سيعذبون. ويقدر أعضاء في مجلس الشيوخ ومتخصصون قانونيون أن 150 أسيراً كانوا مشمولين في هذا البرنامج الاستثنائي. وأساليب التعذيب المستخدمة مرعبة لا يمكن وصفها تقريباً، وتشمل، كما روى سفير أمريكي في إحدى البلدان المستقبلة للأسرى، "الغلي الجزئي ليد أو لذراع،" مع القيام بغلي سجينين على الأقل حتى الموت.

ومن الحالات الكثيرة، حالة من القلة التي تم نشرها علانية تتصل بأسر المواطن الكندي، ماهر عرار، حين كان يغير طائرته في مطار كينيدي في نيويورك، وقد قيده عملاء أمريكيون، وحملوه إلى الطائرة النفاثة 5 لشركة غلف ستريم، وأخذ إلى سورية، وهناك أسيء له طوال عام قبل أن يطلق سراحه بعد أن تبين عدم وجود أدلة تدينه. وكان المسؤولون الأمريكيون يعرفون بما يجري، وكما صرحت وزارة الخارجية سابقاً حول الإساءات لحقوق الإنسان في سورية، فإن "الأسرى والمعتقلين السابقين رووا أن وسائل التعذيب شملت الصدمات الكهربائية، وقلع أظافر الأصابع، والإدخال القسري لأشياء في الشرج، والضرب، وأحياناً، حين يكون الضحية معلقاً من السقف، يقومون بالإفراط في مد العمود الفقري، واستخدام كرسي ينطوي للخلف لخنق الضحية أو لكسر عموده الفقري".

وبالإضافة إلى النواحي الإنسانية، فإن من المعروف معرفة جيدة أن السجين، وهو تحت التعذيب المبرح، سوف يوافق تقريباً على أي جريمة مقترحة. ومثل هذه الاعترافات، طبعاً، غير مقبولة في المحاكمات في الأمم المتمدنة. والغاية الأولية من التعذيب أو من التهديد بالتعذيب ليست الحصول على إدانات من أجل ارتكاب جرائم، بل هي لتوليد الخوف وإدامته. وقد وجد بعض قادتنا أن من السهل عليهم أن يتخلوا عن حقوق الإنسان لأولئك الذين يعتبرونهم دون البشر، أو "محاربين أعداء".

ومرة أخرى أقتبس من النائب العام الجديد لأمريكا، وهو البرتو غونزالس، وهو يقول: إن السياسة "تضع قيمة عالية على... القدرة على الحصول على المعلومات بسرعة من الإرهابيين المأسورين ورعاتهم لتجنب المزيد من الأعمال

الوحشية الموجهة إلى المدنين الأمريكيين.ˆ وهو يبرر التمديد للبرنامج الذي يسمح لعملاء وكالة الاستخبارات المركزية بالتعامل مع المتهمين المشتبه بهم في مواقع سجن أجنبي بالادعاء أن حظر ميثاق الأمم المتحدة للتعذيب وللمعاملة القاسية الأخرى أو غير الإنسانية أو المحقرة أو للعقوبة لا تنطبق على تحقيقات الأمريكيين مع الأجانب في ما وراء البحار. وطبقاً للنائب العام، يمكن حجز المساجين إلى أجل غير محدد من دون أي عملية قانونية ومن دون أي وصول لهم من الصليب الأحمر الدولي، برغم أن الولايات المتحدة قد صادقت على الاتفاقات الدولية التي تحرم مثل هذه المعاملة. وتروي جريدة نيويورك تايمز أن توجيهاً ما يزال سرياً يجيز هذه السياسة وكان الذي قد أصدره هو الرئيس بوش في عام 2001. واعلن الرئيس ايضاً ان اعضاء القاعدة والطالبان لم يكونوا مؤهلين ليستحقوا مكانة سجين حرب.

وكانت إحدى العواقب الخطيرة لهذه الإجراءات البغيضة هي السؤال ماذا نفعل بالسجناء المعذبين حين يثبت انهم أبرياء؟ هل يمكن لهم أن نطلق سراحهم وأن يُحرَّروا ليقدموا شهادة علنية عن الولايات المتحدة الأمريكية أو ليقوموا بإيداع ملفات دعاوى قضائية ضد بلادنا، كما سبق أن فعلت قلة منهم؟ وزيادة على ذلك، ولو كان السجناء محبوسين في سجن، فإن بعضهم قد صار مشكلات عامة بسبب الإرهابيين المعروفين الذين كانوا مشتركين فعلاً في هجوم 9/11 والذين طلبوا هؤلاء السجناء ليكونوا شهوداً. ومحاكمات هؤلاء المجرمين المعروفين قد ابقيت معطلة مؤقتاً لأننا لا نستطيع ان نسمح لمعتقلين سابقين او معتقلين ما يزالون في الحبس أن يشهدوا.

وبدلاً من تصحيحنا للمشكلة الأساسية، فإن المزيد المزيد من السجناء يجري احتجازهم، وصار الوصول إلى الحقائق عن معاملتهم أقل من السابق. وقال

تقرير نشرته في شهر آذار مارس 2005 حقوق الإنسان الأولى: إن عدد المساجين المحتجزين في رعاية الحبس القضائي الأمريكي في العراق وفي أفغانستان قد زاد، في أثناء الشهور الستة الماضية فقط، من ستة آلاف سجين إلى أكثر من أحد عشر ألف سجين، وإن مستوى السرية المحيطة بعمليات السجن الأمريكية قد اشتد.

ونظراً إلى أن التدقيق العام قد تركز على إساءة معاملة السجناء، فقد تم تحديد الإبلاغ التاريخي عن نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية إلى مجلس الشيوخ بمجموعة صغيرة من المشرعين. ويتطلب القانون أن يتم إشعار لجنتي الاستخبارات في مجلس النواب ومجلس الشيوخ بكل هذه النشاطات، ولكن البيت الأبيض ادعى أن البرنامج السري للحجز والسجن حساس جداً، ويجب ألا يكشف إلا لكبار الجمهوريين والديمقراطيين فقط في كل لجنة. ويمكن أن نتكهن، أن أعضاء اللجنة الآخرين قد اشتكوا بسبب استبعادهم، ولكن قدرتهم على تحدي السياسة تكمن فقط في التهديد بالامتناع عن التمويل، وهو عمل غير مرغوب فيه حين تكون القضية هي الأمن القومي.

وقد انتقد عضو مجلس الشيوخ الجمهوري جون ماك كين، وكان أسير حرب في فيتنام، الطريقة التي عاملت بها القوات المسلحة الأمريكية السجناء المحتجزين. واقترح هو، ورئيس لجنة القوات المسلحة جون وورنر، وأعضاء آخرون جمهوريون في مجلس الشيوخ تشريعاً يمنع القوات العسكرية الأمريكية من المشاركة في "المعاملة القاسية، أو غير الإنسانية، أو المحقرة، أو العقوبة" للسجناء المحتجزين، أو من إخفاء السجناء عن الصليب الأحمر، ويضع التشريع معايير موحدة للتحقيق مع أي شخص احتجزته وزارة الدفاع. وقد اقتبس هؤلاء

الشيوخ الجمهوريون الأقوياء، تعليقات من خمسة عشر ضابطاً عسكرياً من رتب عالية تفيد: "أن الإساءة إلى السجناء تؤذي قضية أمريكا في الحرب على الإرهاب، وتعرض للخطر أعضاء القوات المسلحة الأمريكية الذين قد يأسرهم العدو، وهي لعنة للقيم التي تمسك بها الأمريكيون بوصفها قيماً عزيزة طوال أجيال." وقال ماك كين: "العدو الذي نقاتله ليس لديه أي احترام للحياة الإنسانية أو لحقوق الإنسان. وهم لا يستحقون تعاطفنا. ولكن هذا الأمر ليس حول من هم. إنه حول من نكون نحن".

وقد بذل نائب الرئيس تشيني، ممثلاً لإدارة بوش، جهوداً نشيطة لإعاقة التشريع، وحذر البيت الأبيض من أن مشروع قانون ميزانية الدفاع البالغة 442 بليون دولار سوف يتعرض للنقض، مدعياً أنها "ستحدد صلاحية الرئيس في أن يحمي الأمريكيين حماية فعالة من الهجوم الإرهابي ويجلب الإرهابيين إلى العدالة". ومع ذلك، فقد أعلن البيت الأبيض، تحت الضغط في شهر آب اغسطس 2005 ان عدداً كبيراً من السجناء في غوانتانامو سيحولون إلى أفغانستان، والمملكة العربية السعودية، واليمن ودول إسلامية أخرى يكون فيها التدقيق من الهيئة التشريعية العليا في الدولة أقل بكثير في شدته.

حين كان يجري تأسيس أمتنا، قرر جورج واشنطن أن يؤسس في أمريكا سياسة مجدِّدة "سياسة الإنسانية". وفي عام 2003 كتبتُ رواية عن حربنا الثورية، بعد ست سنوات من الدراسة والبحث. وكان أحد أكثر اكتشافاتي بعثاً للصدمة هو أن الضباط البريطانيين أصدروا في الغالب أوامر بأن "لا رحمة تمنح" للأمريكيين الذين استسلموا في ميدان المعركة. وكانوا يعدمون بلا تمهل. وكان المثال الحي لهذا العمل في معركة برير كريك، في الشمال الشرقي من

جورجيا. حين صدر هذا الأمر مع تعليمات واضحة بأن أي جندي بريطاني يأخذ أسيراً حياً سوف يحرم من مؤونته من شراب الروم لمدة شهر. وقد أدان الجنرال واشنطن تلك الممارسة وأعلن طريقة للحرب أكثر استنارة. ومع أن بعض الأمريكيين الثوريين وُجِد مذنباً فيما بعد بارتكاب الوحشية نفسها. فإنهم كانوا بفعلهم ذلك ينتهكون توجيهات واضحة وضوحاً مطلقاً وجهت إليهم من قائدهم الأعلى.

وإنها لمأساة محرجة أن نرى تحولاً عن القيادة التاريخية لأمتنا بوصفها المدافع عن حقوق الإنسان، مع قيام مسؤولين كبار بالدفاع القانوني عن هذا التخلي. إن الشعب الأمريكي فقط هو الذي يستطيع أن يعيد توجيه التزامات حكومتنا القانونية، والدينية، والسياسية، نحو هذه المبادئ الأخلاقية القديمة التي لا تتغير.

* *

الفصل الثالث عشر

حماية ترساناتنا،
ولكن ترويج الانتشار

هناك اتفاقية دولية خاصة مصممة لمعالجة تحدي الاحتفاظ بالحد الأدنى من الترسانات النووية والحد من انتشارها وهي: معاهدة عدم الانتشار النووي. وقد ووفق عليها لأول مرة في عام 1970، ووافقت الآن مجموعة من 187 امة على أن تقبل شروطها، ومن جملة الموافقين القوى الخمس الكبيرة التي امتلكت أولاً ترسانات نووية. والغرض من المعاهدة هو: "منع انتشار الأسلحة النووية والتقانة النووية، وتعزيز التعاون في الاستخدامات السلمية للطاقة النووية، والعمل على إنجاح غاية المعاهدة في تحقيق نزع التسليح النووي ونزع التسليح العام والكامل." وهذا هو الالتزام الملزم الوحيد في عدم الانتشار بين دول السلاح النووي والأمم التي لا تمتلك أسلحة نووية.

وقد أسست المعاهدة نظام وقاية، ليكون إجراء لبناء الثقة، تحت مسؤولية الوكالة الدولية للطاقة الذرية، التي تمتلك السلطة لتقوم بتفتيشات للمنشآت النووية ضمن الدول الموقعة على المعاهدة. وترتقي المعاهدة بالتعاون في المشاركة في التقانة النووية السلمية في الوقت الذي توفر فيه حماية لمنع التحويل غير المناسب للمواد القابلة للانشطار من أجل استخدام الأسلحة. واحد بنودها الرئيسية استعراض لعمل المعاهدة في كل خمس سنوات، وقد ساعدنا لعقد

اجتماعات في مركز كارتر في وقت سابق لهذه التواريخ السنوية للإعداد للمؤتمرات الرسمية في الأمم المتحدة. وبالنسبة إلى المؤتمر في عام 2005، لم تكن غير مشاركة فيه إلا إسرائيل، وكوريا الشمالية، والهند، وباكستان. وثلاث من هذه الأمم معروفة بأنها تمتلك ترسانات نووية، وقد تكون كوريا الشمالية مالكة لمتفجرات غير مجربة.

ويوجد الآن 30.000 الف سلاح نووي تقريباً في كل أنحاء العالم، تمتلك منها الولايات المتحدة حوالي 12.000، وروسيا 16.000، والصين 400، وفرنسا 350، وإسرائيل 200، وبريطانيا 185، والهند وباكستان 40 لكل منهما. ويعتقد أن كوريا الشمالية تمتلك ما يكفي من الوقود النووي المخصب من أجل نصف اثني عشرية من الأسلحة.

وتوفر معاهدة عدم الانتشار النووي الندوة العامة الكبيرة التي تلتقي فيها دول العالم الداخلة في المعاهدة وتحاول أن تقلل التهديد النووي إلى الحد الأدنى، ولكن بسبب قرارات رئيس الولايات المتحدة وقلة آخرين من قادة العالم، ألقيت شكوك خطيرة على مستقبل معاهدة عدم الانتشار نفسها. وقد حذر تقرير حديث للأمم المتحدة تحذيراً مطلقاً فقال: "إننا نقترب من نقطة قد يصبح عندها تآكل نظام عدم الانتشار لا عودة عنه ويفضي إلى سلسلة متواكبة من الانتشار".

في رفض الولايات المتحدة او تهربها تقريباً من كل اتفاقات السيطرة على الأسلحة النووية التي جرى التفاوض عليها في أثناء الخمسين سنة الماضية، صارت هي الآن المذنب الأول في الانتشار النووي الكوني. وقد لخص وزير الدفاع السابق ماكنمارا مخاوفه في مجلة فورين بوليسي (السياسة الخارجية) في عدد

أيار/ حـزيران _مـايو /يونيـو 2005: "أنا أصف سـيـاسـة الأسلحـة النووية الأمريكيـة الجارية بأنها غير أخلاقيـة، وغير قـانونية، وهـي من الناحيـة العسكرية غير ضرورية وهي خطرة خطراً رهيباً."

ويصـر الموقـعـون على المعـاهدة، ومنهـم إيران، من الذيـن لا يمتلكون أسلحـة نووية على أن مـعـاهدة عـام 1970 تسـمح لهم ببناء منشـآت نووية طالما كـانت لأغراض سلميـة. وتملك الوكالة الدولية للطاقة الذرية المسؤولية لتفتيش هذه المواقع للتـأكد من أنهـا ليست مخصصـة لإنتاج الأسلحة. وهناك مجموعة كبيـرة من "الـدول الوسطى". وكلهـا تملك الموارد والقـدرة الفنيـة لتطوير أسلحـة نووية ولكنها اختارت أن تمتنع عن الالتحاق بهذا "النادي" الخاص المختصر.

وتشـمل مـجـمـوعـة الدول هذه البـرازيل، ومـصـر، وإيرلنـدا، والمكسـيك، ونيوزيلندا، وإفريقيـا الجنوبية، والسويد، وثمانيـة من أعضاء حلف الأطلسي، وفي مـركـز كـارتر، وكي نحـضّـر من أجل مـؤتمر 2005، عـبـروا عن غـاية أولى هـي: "ممارسة النفوذ على القـوى النووية كي تتخذ الخطوات الضرورية لحفظ معاهدة عدم الانتشـار". وهم يحتجون بأن الولايات المتحدة وبعض القوى النووية الأخـرى لا تسيـر في حياتهـا على مستوى التزامها بأن تكبح ترسـاناتها أو تخفض منهـا. ويستمر هذا المـأزق، مع المطالبـة الإضافيـة بالنظر في ترسـانة إسـرائيل وأخذهـا بالاعتبار. وحين قـدم هـذا التحـالف المكون من الدول القـادرة نووياً اقتـراحـاً دعـا فيه إلى مجرد القيـام بتنفيذ الالتزامات المنصوص عليها سـابقاً في معـاهدة عدم الانتشـار، قادت الولايات المتحدة بريطانيا وفرنسا في التصويت ضد القرار.

وقـدمت الوكالة الدولية للطاقة الذرية اقتـراحـاً يفـرض مـدة تأجيل لخمس سنوات على كل التخصيب الجديد لليورانيوم وعلى إعادة مـعالجة البلوتونيوم،

وهما المساران العاديان المؤديان إلى الأسلحة النووية، ولكن الولايات المتحدة التحقت مع إيران في معارضة مدة التأجيل بسبب ما فيها من "إمكانية إحداث اختلال في مشاريع الطاقة النووية".

وبرغم أهمية القضايا، فلا الرئيس، ولا وزير الخارجية، ولا أي واحد من كبار الوكلاء، حضر مؤتمر 2005 في نيويورك، ومع عدم وجود أي مسؤولين كبار هناك، تجنبت الولايات المتحدة إخضاع حكومتنا لحوار حول امتثالها لالتزاماتها الخاصة بموجب المعاهدة.

وكان أحد تحديات الانتشار النووي الذي واجهته بصفتي رئيساً قد جاء من الهند، التي سعت إلى الحصول على المواد النووية والتقانة المتقدمة من أجل "برنامجهم المدني للطاقة النووية" من دون الامتثال لمعاهدة عدم الانتشار. وبرغم علاقات الصداقة فيما عدا ذلك الموضوع، فقد رفضتُ هذا الطلب. وبعد أن غادرت المنصب، كانت الهند قادرة على التقدم بخططها وأجرت تجربة انفجارات نووية في عام 1998. إن الترغيب الرئيسي الذي يغري بعضوية معاهدة عدم الانتشار هو أن الأعضاء الممتثلين لها سيمتلكون الحق الحصري في الوصول إلى التقانة النووية الحساسة للغاية. وكذلك فإن الإجراء الإضافي الذي أضعف جهود عدم الانتشار جاء حين أعلن الرئيس بوش خططاً لرفع هذه القيود ولمنح هذا الامتياز للهند، التي كانت قد رفضت معاهدة عدم الانتشار. وهذا تحريض واضح للأمم الأخرى لتنتهك قيود المعاهدة.

وفي الوقت الذي يزعم فيه القادة الأمريكيون أنهم يحمون العالم من تهديدات الانتشار في العراق، وفي ليبيا، وفي إيران، وفي كوريا الجنوبية فإنهم لم يتخلوا عن قيود المعاهدة الموجودة فقط، بل شددوا على خطط لتجريب

أسلحة جديدة وتطويرها ايضاً. ومن جملتها الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية، والقنابل المخترقة للأرض، "مفجرة الملاجئ المسلحة تحت الأرض"، وربما بعض القنابل "الصغيرة" السرية الجديدة. وقد نكثوا أيضاً بوعود سابقة وعكسوا سياسية ثابتة من زمن طويل، بتهديدهم بالمبادرة إلى الاستخدام الأول للأسلحة النووية ضد دول غير نووية.

وبعد أن رفضت الولايات المتحدة القيود التي كانت مفروضة سابقاً من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية، كانت الولايات المتحدة قد أنفقت اكثر من ثمانين بليون دولار على "حرب النجوم"، وهو جهد ضعيف التبرير ومبذر لاعتراض ولتدمير هجوم صاروخي قادم عبر القارات، والتكاليف مستمرة بمعدل تسعة بلايين دولار في كل عام. هناك ثلاث خطط ممكنة سبق أن تم تقديرها، من أجل تدمير صاروخ معاد مباشرة بعد انطلاقه، قبل أن يضرب فعلاً مدينة امريكية، أو يضرب مكاناً ما في أثناء طيرانه (ويمكن الافتراض انه من الصين، أو كوريا الشمالية، أو روسيا) سينكشف المهاجم بأجهزة مراقبة موجودة في القمر الاصطناعي في قاعدة فضائية، أو بمنشأة رادار ضخمة في جزر الوت من الاسكا، أو على منصة عائمة ضخمة في البحر. وإضافة إلى ما تقدم، فإن الأساليب المعترضة قد تم تقويمها تقويماً جدياً وهي الأساليب التي تستخدم حزماً من اشعة الليزر القوية على الطائرات أو على الصواريخ الموجودة في صوامع من الأسمنت المسلح المصلّد في قواعد أرضية محيطة بالمدن الأمريكية الرئيسية من اجل الاعتراض في مرحلة الطيران الأخيرة أو في الاسكا أو مواقع أخرى من أجل الاعتراض في مرحلة منتصف ا لطيران.

هذه الجهود المعقدة التي تشبه أساليب روب غولد بيرغ[27] لنشر نظام مضاد للصواريخ قد تلقت دعماً قوياً من قوى عسكرية صناعية سياسية قوية

ومن قلة من المؤمنين الصادقين المقتنعين بأن أي جهد للدفاع، مهما يكن مكلفاً او غير قابل للتنفيذ، هو جهد مبرر. سواء أكان ذلك في أثناء الحرب الباردة مع السوفيت أم كان ضد الهجمات الإرهابية، في الأزمنة الأحدث. وعلى أي حال، فهم يزعمون أن جهودنا المعلنة سوف ترهب الخصوم. والراي الغالب لدى العلماء والخبراء العسكريين المسؤولين وغير المنحازين هو أن الافتراضات الأساسية في هذا الموضوع والأولويات فيه خاطئة.

وقد فشلت الاختبارات المتكررة للاعتراض التي قام بها العسكريون الأمريكيون، ولو حين كان مسؤولونا يعلمون بدقة متى كان يجب انطلاق الراس الحربي المجرب؟ واين سيكون مُحرِّكه؟ وهذه هي ابسط الظروف الممكنة. مع انه من المعروف جيداً أن أي هجوم حقيقي سيكون من دون إنذار وسيكون الراس الحربي مصحوباً بعدد من وسائل التضليل التي ستضلل معترِضاتنا.

وعلى أي حال، فإن من غير المرجح إلى حد بعيد أن يستطيع بلد فقير نامٍ أن يصمم، ويطور، ويجرب، وينشر رؤوساً حربيةً نووية وصواريخ عابرة للقارات معاً ليضرب بها الأسلحة من دون أن يصير العالم كله عالماً بهذه القدرة. وستكون ابسط تقانة يمكن استخدامها، هي وضع راس حربي على صاروخ قصير المدى او صاروخ كروز وإطلاقه عن بُعد مئات قليلة من الأميال قبالة الشاطئ. وهناك مئات من مثل هذه المركبات متوافرة في السوق الدولية، ومنها صواريخ سكود العراقية المعلن عنها إعلاناً واسعاً. وفي كل واحد من هذه السيناريوهات سيكون مرجحاً إلى حد كبير تحديد المهاجم، وتدميره.

لا بل إنه من الأسهل لدولة مارقة او لمنظمة أن تصنع سلاحاً نوويا او كيماوياً او حيوياً صغيراً قذراً وتهربه من غير أن يكتشف إلى داخل ميناء

نيويورك او اي ميناء بحري امريكي كبير آخر في حاوية شحن او في إحدى عشرات السفن التي تدخل في كل أسبوع من دون تفتيش جدي. ومثل هذا السلاح يمكن ايضاً أن يحمل في شاحنة ويسحب إلى مدينة داخلية قبل تفجيره. وقد يكون من الصعب أو من المستحيل التحقق على وجه اليقين من هوية المهاجم.

إن الإنفاق غير المبرر للموارد وسوء استخدام الأسبقيات يبدو تهوراً. ولكن العواقب الكونية اخطر بكثير جداً من ذلك. وحين أعطى القادة الأمريكيون الإعلان الرسمي إلى روسيا في عام 2001 باننا كنا سننسحب من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ، كان يمكن التكهن بأن روسيا سترد بإعلان خطط لتحديث قواتها النووية من دون اعتبار للمعاهدات الموجودة عن السيطرة على الأسلحة.

ونهاية سياسة امريكا "لا للاستخدام الأول" للأسلحة النووية قد أثار رد فعل كان يمكن التكهن به نوعاً ما لدى الأمم الأخرى. واعلن اللواء الصيني زهو تشينفهو في شهر تموز/يوليو 2005 ان حكومة الصين كانت واقعة تحت ضغط داخلي لتغيير سياستها بشان "لا للاستخدام الأول". وقال: "إذا قام الأمريكيون بتقريب صواريخهم واتصالاتهم الموجهة بالمواقع إلى منطقة الهدف على الأرض الصينية، فأنا اعتقد اننا سيتوجب علينا أن نرد بالأسلحة النووية".

وحتى وقت حديث، كافح كل الرؤساء الأمريكيين منذ دوايت أيزنهاور أن يحددوا ويخفضوا الترسانات النووية. وحاول بعضهم اكثر من بعضهم الآخر. وإلى حد ما أعلم، ليس هناك اي جهود حالياً من اي قوة من القوى النووية لإنجاز هذه الأهداف الحاسمة، مع وجود غايات إلزامية وتحقق إلزامي. إن

العالم يضج بحاجته الماسة إلى قيادة إيجابية من واشنطن، وهناك بعض الخطوات المهمة التي يمكن اتخاذها.

ويجب أن نتذكر أن الترسانات النووية الهائلة التي تمتلكها الولايات المتحدة وروسيا ما تزال موجودة، ولم يبذل إلا جهد ثنائي صغير لتخفيض هذه الأسلحة غير الضرورية، مع التحقق الإلزامي لمثل هذه الاتفاقيات وفك الأسلحة الخارجة من الخدمة والتخلص منها. ومع استمرار وجود الترسانات الضخمة اليقظة التي تستجيب لأدنى استثارة على الزناد، تصبح المحرقة الكونية ممكنة الآن تماماً، من خلال أخطاء أو سوء تقدير، مثلما كانت في أثناء أعماق الحرب الباردة.

يحتفظ الروس بأكداس ضخمة من الأسلحة النووية والمواد النقية الصالحة من أجل بناء أسلحة أخرى. وسوف تتخذ الدول المارقة ومثلها الإرهابيون أي خطوات تمكنهم من الحصول على هذه المنتجات القيمة المحروسة حراسة مسترخية. في عام 1991، رعى عضوا مجلس الشيوخ الأمريكي سام نن وريتشارد لوغار تشريعاً ساعد على تمويل الالتزامات التي التزمت بموجبها الولايات المتحدة وروسيا أن تشتركا في التخلص المناسب من هذه الأكداس، ولكن هذا البرنامج الحكيم والفعال يتعرض للخطر بسبب نقص حديث في التمويل الكافي وعدم القدرة من الحكومتين على الموافقة على الوصول إلى المواقع الروسية وعلى المسؤولية إذا سار شيء سيراً خاطئاً.

وهناك أيضاً فرصة مهمة للتقدم في داخل حلف الأطلسي، الذي يحتاج إلى إزالة التشديد على دور أسلحته النووية وأن يدرس وضع نهاية لنشرها في أوروبا الغربية. وحلف الأطلسي، برغم توسعه المؤثر نحو الشرق، ما يزال يحتفظ بالأكداس نفسها وبالسياسات التي كانت لديه حين كان الستار الحديدي يقسم القارة وكان العديد من أعضائه الجدد أهدافاً ممكنة لصواريخنا النووية.

وهناك التزام دولي تاريخي آخر يجري التخلي عنه وهو التحديد الموضوع على المزيد من تجربة الأسلحة النووية الموجودة وعلى تطوير أسلحة جديدة. في شهر آب/اغسطس 1957، اعلن الرئيس أيزنهاور اقتراحاً لحظر المزيد من تجارب المتفجرات النووية، وتم إحراز تقدم متعثر منذ ذلك الوقت. وفي الوقت الذي كنت فيه رئيساً، كانت هناك حدود كونية صارمة على تجربة أي متفجرات فوق 150 كيلو طن، وهو الحد الذي كان في ذلك الوقت أصغر ما يمكن مراقبته. وفي وقت لاحق، صار من الممكن تقانياً الكشف عن متفجرات صغيرة جداً، وتم تطوير معاهدة حظر شامل للتجارب النووية. ووقّعتها وصادقت عليها روسيا، وفرنسا، والمملكة المتحدة، ووقّعتها ولكن لم تصادق عليها كل من الصين والولايات المتحدة. ومع أن الرئيس كلينتون وقع على المعاهدة وتعهد بأنها لن تنتهك، فإن احدث ميزانية امريكية تشير، وذلك لأول مرة، إلى قائمة من التجارب الأمريكية المحتملة التي ستنتهك المعاهدة.

والتحول الجذري الآخر في السياسة والذي يسبب القلق في صفوف أقرب حلفائنا أيضاً هو تحرك أمريكا نحو نشر أسلحة مدمرة في الفضاء. لقد حرّمت معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية الأسلحة الموضوعة في الفضاء، ولكن تخلّي حكومتنا عن المعاهدة في عام 2002 فتح الباب على هذا المشروع المزيل للاستقرار إلى أقصى حد. والعقيدة الجديدة لوزارة الدفاع تعرف غايتنا في الفضاء بأنها "الحرية في أن نهاجِم، والتحرر من أن نهاجَم". والغاية هي ضرب أي هدف على الأرض في غضون خمس وأربعين دقيقة. وكما وصَفت القوات الجوية الأمريكية إحدى الطرق، التي تسمى "قضبان من عند الله" فإنها تقذف باسطوانات من المعادن الثقيلة لتضرب هدفاً بسرعة سبعة آلاف ومائتي ميل في الساعة، ولها قوة تدميرية تعادل قوة سلاح نووي صغير. ومع أنه لم

يُكشف عن اي توجيه رئاسي رسمي حتى الآن. فإن وزارة الدفاع قد صرفت من قبل ذلك بلايين الدولارات لتطوير مثل هذه الأسلحة والتخطيط لنشرها. وأعلنت الحكومة في شهر حزيران/يونيو 2005 خططاً لبدء إنتاج البلوتونيوم-238. وهي مادة مشعة إشعاعاً شديداً تستخدم حصرياً تقريباً مصدراً للطاقة للمركبات الفضائية.

ليس هناك إلا القليل من الشك في أن وجود معاهدة كونية لحظر أسلحة الفضاء سوف تترك أمريكا أكثر أمناً من القرار الأحادي الجانب لوضع أول الأسلحة في الفضاء (وبالتأكيد لن تكون الوحيدة).

لا بل إن خلافات حادة. داخل حكومتنا، قد كشفت عما يجب عمله لبعض المكونات الرئيسة لقائمة موجوداتنا النووية القديمة. فمن بين ما يقارب خمسة آلاف رأس حربي نشيط معروفة أنها موجودة في ترسانتنا القومية، فإن السلاح الرئيسي المنتشر الآن في الغواصات هو الذي يسمى دبليو 76. والذي تلقيت عنه إيجازاً كاملاً حين كنت رئيساً. وكان هذا السلاح قد صمم في أثناء الحرب الباردة ليكون أصغر وأقوى ما يمكن. داخل غلاف رقيق وسريع العطب. والمناقشة الحالية تدور حول إعادة تجديد الرؤوس الحربية القديمة أو استبدال نموذج جديد بها. وفي معالجة هذه القضية، سيكون هناك ضغط كبير من اجل التخلي عن الحظر الكوني على التجارب النووية تخلياً كاملاً. وهو ما يسرع في قيام سباق جديد للتسلح لأن الأمم الأخرى سوف تتخذ الإجراء نفسه بكل تاكيد تقريباً.

الانتشار النووي مصدر متزايد لعدم الاستقرار في الشرق الأوسط وفي آسيا. وقد أخفت إيران مراراً نواياها في تخصيب اليورانيوم في الوقت الذي

تزعم فيه أن برنامجها النووي للأغراض السلمية فقط. وهذا التفسير سبق أن أعطي من قبل من الهند، ومن باكستان، ومن كوريا الشمالية، وقاد إلى برامج أسلحة في كل الدول الثلاث. وفي الوقت الذي تتحرك فيه إيران ذاهبة في المسار نفسه، فإن الجهد الدبلوماسي المباشر من الولايات المتحدة مع دولة من "محور الشر" جهد لا يمكن أن يتصوره العقل. ويجب على القادة الأمريكيين أن يعتمدوا على الوسطاء الأوروبيين وعلى تهديدات بالعمل العسكري، مع وجود مفاهيم ضمنية عن الدعم لو قامت إسرائيل بضرب المنشآت النووية لإيران.

وفي الوقت نفسه، فإن مكانة أسلحة إسرائيل غير المنضبطة وغير المراقبة يغري قادة في الدول المجاورة، في إيران، وفي سورية، وفي مصر، وفي دول عربية أخرى للالتحاق بمجتمع السلاح النووي.

والحقيقة هي أن التهديد الكوني للانتشار موجود، وأن الأعمال التدميرية للعديد من الدول غير النووية، وربما لبعض الجماعات الإرهابية ايضاً، سوف يعتمد على نقص القيادة في صفوف أولئك الذي كانوا يمتلكون من قبل ترسانات قوية ولكنهم لا يمتلكون الرغبة في ضبط انفسهم. وسواء احببنا أم لا، فإن امريكا تقف في الطليعة في اتخاذ هذا القرار الأخلاقي العظيم. وبدلاً من أن نضرب نحن المثل الذي يحتذى من الآخرين، يبدو أننا نختار الانتشار.

* *

الفصل الرابع عشر

عبادة أمير السلام، أم الحرب الاستباقية؟

كان الشعب الأمريكي، طوال شهور بعد الهجوم الإرهابي الرهيب في عام 2001، غارقاً يومياً تقريباً في مزاعم من المسؤولين الحكوميين الكبار يدّعون فيها أننا كنا نواجه تهديداً مدمراً من اسلحة التدمير الشامل العراقية أو من ملاكات (كوادر) كبيرة كذلك ومنظمة تنظيماً حسناً من إرهابيين مختبئين في بلادنا. ولكن، وكما اكد حلفاؤنا الأجانب تأكيداً قوياً وكما اكد اعضاء رئيسيون في إدارات استخباراتنا، لم يكن هناك أي خطر أبداً موجه إلى الولايات المتحدة من بغداد. وكان واضحاً أنه مع وجود عقوبات الأمم المتحدة، والتفتيش الكثيف على الأسلحة، والتفوق العسكري الأمريكي الكاسح، فإن أي حركة حربية من صدام حسين ضد جار، أو عرض علني لأسلحة الدمار الشامل، أو تقاسم مثل هذه التقانة مع منظمات إرهابية كان سيشكل عملاً انتحارياً للعراق. وكانت برامج العراق للأسلحة قد تناقصت إلى حد العجز قبل أن تُشن الحرب لاستئصال تلك البرامج.

لو أن صدام كان قد امتلك فعلاً ترسانة ضخمة من الأسلحة النووية، أو الحيوية، أو الكيماوية، لكان الغزو الأمريكي عندئذ قد أدى في النتيجة إلى مئات آلاف الضحايا، ولكان الكثيرون منهم من القوات الأمريكية. وليس هناك أي دليل

على أن القادة البريطانيين أو الأمريكيين كانوا قد توقعوا حقاً أو استعدوا لهذه الإمكانية المحتملة. ونحن لا نستطيع أن نتجاهل تطور مثل هذه الأسلحة في أي أمة يمكن أن تكون معادية أوفي أي منظمة معادية. ولكن العمل العسكري الأحادي الجانب المستند إلى استخبارات خاطئة أو مشوهة عن عمد ليس هو الجواب.

وكذلك حين كنت فتى صغيراً، كان طموحي أن أذهب إلى الكلية البحرية الأمريكية في أنابوليس، لأصير ضابط بحرية، ولأكرس مسيرة عمري للدفاع عن بلادي وعن مبادئها في كل مكان حول العالم. وغادرت سلاح تدريب الضباط الاحتياط الخاص بالأسطول متجهاً إلى أنابوليس في عام 1943 وتابعت هذه الخدمة المهنة باستمرار حتى استقلت من خدمتي في عام 1953 . وباستثناء الجنرال دوايت أيزنهاور، فقد قضيت في الخدمة العسكرية العاملة عدداً من السنوات أكثر من أي رئيس آخر منذ عهد أولئك الذين خدموا جنرالات في الحرب بين الولايات. ومع أني مستعد لأقدم حياتي إذا كان ذلك ضرورياً بصفتي ضابط غواصة، فقد التحقتُ مع ضباط آخرين ورجال آخرين في الالتزام المشترك بأن القوة الظاهرة لأمريكا وثبات أمريكا سيكونان رادعاً للحرب، وبأننا نحن كنا الناس الذين يصونون السلام. ولم أشعر قط أن إخلاصي للخدمة العسكرية كان خرقاً لإيماني بيسوع المسيح، أمير السلام.

وفي وقت لاحق، حين كنت رئيساً في أثناء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي، وُجِهتُ بالمسؤولية المهولة حقاً المتمثلة في حماية أمتي ومصالحها الكونية. وكنت على علم أنني ألعب الدور الرئيسي في منافسة شديدة بين الحرية والشيوعية في كل ركن من العالم تقريباً، وأدركت أن أي خطوة تزل بها القدم

كانت تستطيع أن تسرع في إشعال محرقة نووية. فبالإضافة إلى قاذفاتنا البعيدة المدى والصواريخ الهائلة العابرة للقارات الموجودة في قواعد على الأرض، كنا قد طورنا أسطولاً من الغواصات التي كانت منتشرة انتشاراً ثابتاً في البحر وكانت منيعة تقريباً على أي هجوم سوفييتي استباقي. وكنا نمتلك القدرة، مع وجود رؤوس حربية متعددة على الصواريخ المحمولة على سفينة واحدة، على تدمير كل مدينة كبيرة في الاتحاد السوفييتي كله.

وكانت إحدى الحقائق التي كان علي أن أقبلها من أول يوم لي في المنصب هي أن الرؤوس الحربية النووية المعادية العابرة للقارات، سوف تحتاج، بعد أن يتم إطلاقها، إلى ست وعشرين دقيقة فقط لتصل إلى واشنطن، وإلى نيويورك، وإلى الأهداف الأمريكية الأخرى.وفي أثناء هذه الفترة الوجيزة، كانت مسؤوليتي الوحيدة بصفتي القائد العام أن أتخذ القرار بشأن ردنا عليها.

لم يكن هناك أبداً أي وسائل فعالة لتدمير صاروخ عابر للقارات وهو قادم، وكانت معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ بين دول السلاح النووي قد منعت منعاً محدداً محاولات تطوير مثل هذا الدفاع. تحت تلك الظروف، كانت الخيارات الوحيدة هي أن تطلق هجوماً معاكساً، أو أن تقبل الضرر المرعب من دون رد. وكان خياري واضحاً وهو أن أتجنب إمكانية وقوع هذا السيناريو، الذي كان يعرف اختصاراً باسم مناسب له وهو كلمة MAD ماد (مجنون)، حسب الحروف الأولى من كلمات اسمه بالإنجليزية وهي التدمير المتبادل المحقق (mutual assured destruction)، وذلك بإقناع السوفييت بقدرتنا وعزمنا على الرد، ومن خلال الدبلوماسية الفعالة لصون السلام ولحماية المصالح الأمريكية.

إنني أعتز بلوحة قدمها إلي احد أعضاء الوزارة في اليوم الذي غادرت فيه المنصب، وعليها اقتباس من توماس جيفرسون:

يواسيني أن أتأمل في

أن قطرة دم واحدة لمواطن واحد

لم ترق بسيف الحرب

في أثناء مدة إدارتي

وكما وصفت في الفصل السابق، فإن السياسة الأمريكية الحالية تهدد فاعلية الاتفاقات الدولية التي سبق أن فاوض عليها كل الرؤساء السابقين تقريباً مفاوضة شاقة. لا بل ربما كان أكثر الأمور إزعاجاً من حيث هو تهديد لصون الاستقرار الكوني، هو التبني غير المسبوق لسياسة الحرب الاستباقية. وهذا القرار الحديث ليس تحولاً جذرياً فقط عن السياسات التاريخية للولايات المتحدة بل هو انتهاك أيضاً للقوانين الدولية التي سبق لنا أن تعهدنا باحترامها. إن ميثاق الأمم المتحدة يمنح الأمم المستقلة الحق الذاتي للدفاع عن النفس منفردة أو مجتمعة، ولكن في حالة الهجوم المسلح عليها فقط. ومع تجاهل أقرب حلفائنا، أعلن رئيسنا قراراً بأن الولايات المتحدة سوف تتصرف بوصفها القانون الذي يحكم انفسنا بأنفسنا وسوف تشن هجمات عسكرية استباقية، في الوقت الذي ترفض فيه معيار أن "الحرب هي الملاذ الأخير".

قال دانييل ويبستر في عام 1837 (وهو الرجل الذي سيسمى بعد أربع سنوات وزيراً للخارجية) يجب أن يكون هناك "ضرورة للدفاع عن النفس وأن تكون... فورية، وكاسحة، ولا تترك خياراً للوسائل، ولا لحظة للتروي". وأقر وزير الخارجية السابق، هنري كيسنفر، وهو عادة مؤيد قوي لسياسة الإدارات

الجمهورية، أن سياسة الحرب الاستباقية سياسة ثورية و"تتحدى النظام الدولي".

إن وصم الأمم الأخرى بأنها تشكل "محور شر" قد وضع عليها علامة بوصفها أهدافاً ممكنة واغلق في الوقت نفسه الأبواب المعتادة لحل الخلافات الثنائية معها من خلال الوسائل الدبلوماسية. ولعل ما هو أكثر مدعاة للقلق الفوري والخطير، هو أن تبني هذه السياسة المتطرفة قد بدد التعاطف معنا بالإجماع تقريباً والتعهدات بالمساندة التي جاءت لنا بعد الهجوم الإرهابي في 2001، والآن تتركنا هذه السياسة وحيدين نسبياً في جهدنا الطويل الأمد الحاسم لاحتواء التهديد بالإرهاب وتخفيضه.

لقد صار واضحاً بعد قليل من الانتخابات الرئاسية في عام 2000 أن بعض قادتنا السياسيين الجدد كانوا عازمين على مهاجمة العراق. وبالمزاعم الكاذبة والمشوهة بعد 9/11، ضللوا مجلس الشيوخ الأمريكي والجمهور الأمريكي وقادوه إلى الاعتقاد أن صدام حسين كان مسؤولاً بطريقة ما عن الهجوم الجبان على أبراج التجارة العالمية ووزارة الدفاع. وأن العراق كان يطور أسلحة نووية ووسائط أخرى من أسلحة الدمار الشامل وأنه كان يشكل تهديداً مباشراً لأمن امريكا.

ومع أن الخداع في هذه التصريحات قد انكشف لاحقاً، فقد سبق السيف العَذَل، وكان معظم مواطنينا الواثقين مساندين للحرب. وعملت المزاعم المبالغ فيها عن الكارثة القادمة من أسلحة الدمار الشامل غير الموجودة على المحافظة على المخاوف حية. مع قيام نائب الرئيس ديك تشيني مراراً وتكراراً بالتصريح ببيانات كاذبة، من مثل، "بدلاً من فقدان آلاف الأرواح، فقد نفقد عشرات الآلاف، أو حتى مئات الآلاف من الأرواح في يوم واحد من الحرب". وساندته

مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس بالإشارات المرعبة إلى الغيوم الفطرية الشكل فوق مدن أمريكا، وذهب وزير الخارجية كولن باول إلى الأمم المتحدة ليقدم بيانات ململمة غير صحيحة إلى العالم. واعترفت الإدارة لاحقاً أن معلوماتها كانت خاطئة، ولكن مصادر الاستخبارات كوفئت، ولم تعاقب.

مع قليل من العجب نجد أن المواطنين الأمريكيين الخائفين ومعهم أعضاء مجلس الشيوخ ساندوا، طوال بضعة أشهر على الأقل، الحرب غير الضرورية على رغم السياسة التاريخية لأمتنا التي تعتمد على الدبلوماسية بدلاً من القتال لحل النزاعات وعلى رغم التزام المسيحيين بعبادة يسوع المسيح بوصفه أمير السلام. وبالنسبة إلي شخصياً وإلى معظم الأمريكيين الآخرين، فإن هذا الالتزام بالسلام وبالدبلوماسية لا يتضمن مسالمة عمياء او شاملة. هناك أوقات تكون فيها الحرب مبررة، وقد تم طوال قرون عديدة رسم المعايير الأخلاقية للعنف ووصفها بعناية.

وحين صار واضحاً أكثر فأكثر أن قادتنا كانوا سيهاجمون العراق، قررت أن أكتب مقالة لصحيفة نيويورك تايمز شرحت فيها الحد الأدنى من المتطلبات اللازمة من أجل الذهاب إلى الحرب. واستخدمت الحجج الأساسية نفسها التي عالج بها القادة المسيحيون (من أمثال القديس أوغسطين حوالي 400م والقديس توماس الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي) هذه المسألة بوضوح تام قبل الف وستمائة عام على الأقل، وكلهم أسندوا آراءهم إلى كتاب العهد الجديد المقدس.

وقد كتبت هذه الكلمات في 3 من شهر آذار/مارس 2003، لتكون مقالة مقابلة للافتتاحية، من دون أن أدرك أن القادة الكبار في الولايات المتحدة وفي

بريطانيا العظمى كانوا قد اتفقوا على غزو العراق منذ عام سابق تقريباً لهذه المقالة:

"حرب عادلة، أم حرب غير عادلة؟"

"إن تغييرات عميقة جرت وتجري في السياسة الخارجية الأمريكية، وهي تنقض الالتزامات الثابتة التي التزم بها الحزبان والتي كسبت العظمة لأمتنا طوال أكثر من قرنين. وهذه الالتزامات كانت مبنية على مبادئ دينية أساسية، واحترام للقانون الدولي، وتحالفات أسفرت عن قرارات حكيمة، وانضباط مشترك. إن عزمنا الواضح على شن حرب على العراق، من دون مساندة دولية، هو انتهاك لهذه المقدمات.

"وبصفتي مسيحياً ورئيساً تعرض إلى استفزازات حادة من الأزمات الدولية، فقد صرت على اطلاع كامل على مبادئ الحرب العادلة، وإنه لمن الواضح أن هجوماً أحادي الجانب على العراق من الناحية الجوهرية لا يفي بهذه المعايير. وهذه تقريباً قناعة شاملة للقادة الدينيين، مع الاستثناء لقلة من المتحدثين من المؤتمر المعمداني الجنوبي المتأثرين تأثراً عظيماً بالتزامهم بإسرائيل وهو الالتزام المستند إلى لاهوت(الأيام الأخيرة) قبل يوم القيامة.

"المعيار الأبرز للحرب العادلة هو أنها يمكن أن تشن بوصفها الملاذ الأخير فقط، وبعد أن تكون كل الخيارات غير العنيفة قد استنفدت. ومن الجلي أن البدائل الواضحة موجودة، مثلما اقترحها قادتنا نحن ووافقت عليها الأمم المتحدة. وأما الآن، ومع أن أمننا

القومي غير مهدد مباشرة، وعلى رغم المعارضة الكاسحة من معظم الشعوب والحكومات في العالم، فإن الولايات المتحدة تبدو مصممة على تنفيذ عمل عسكري ودبلوماسي غير مسبوق تقريباً في تاريخ الأمم المتمدنة. والمرحلة الأولى من خطتنا للحرب المعلن عنها على نطاق واسع هي ان نطلق 3000 قنبلة وصـــاروخ على السكان العراقيين العزل نسبياً الذين لا يمتلكون اي دفاع عن أنفسهم وذلك في غضون ساعات قليلة من غزو سيكون الغرض منه هو إحداث أضرار كبيرة للشعب وتدمير معنوياته إلى الدرجة التي ستجعله يغير قائده البغيض، والذي سيكون من المرجح إلى أبعد حد مختبئاً وآمناً من القصف الهائل.

"يجب على الأسلحة المستخدمة في الحرب أن تميز بين المحاربين وغير المحاربين. إن القصف الجوي المديد، ولو كان يتم مع الدقة المتناهية، يسفر دائماً عن "أضرار مصاحبة" كبيرة. ويشكو القائد الميداني الأمريكي، الجنرال فرانكس، مقدماً من أن الكثير من الأهداف العسكرية موجودة قرب المستشفيات، والمدارس، والمساجد، والبيوت الخاصة.

"يجب أن يكون العنف المستخدم في الحرب متناسباً مع الإصابات المتكبدة. وعلى رغم جرائم صدام حسين الخطيرة الأخرى، فإن جهود الأمريكيين لربط العراق مع الهجمات الإرهابية في 9/11 لم تكن مقنعة.

"يجب على المهاجمين أن يمتلكوا السلطة الشرعية التي أذن بها

المجتمع الذي يعترفون أنهم يمثلونه. وكان يمكن للتصويت الموافق بالإجماع الذي تم في مجلس الأمن على استئصال أسلحة الدمار الشامل العراقية أن يكون ما يزال موضع احترام، ولكن غاياتنا المعلنة الآن تهدف إلى تغيير النظام وتاسيس سلام أمريكي في المنطقة، وربما احتلال البلد المقسم عرقياً لمدة قد تطول إلى عقد من الزمان. ونحن لا نملك سلطة دولية من أجل تحقيق هذه الأغراض. وقد قاوم الأعضاء الآخرون في مجلس الأمن حتى الآن التأثير الاقتصادي والسياسي الضخم الذي تقوم واشنطن بممارسته، ونحن نواجه باحتمال الفشل في الحصول على الأصوات اللازمة أو بحق الاعتراض (الفيتو) من روسيا، أو فرنسا، أو الصين. ومع أن تركيا قد تكون ما تزال تُستدرَج بالمكافآت المالية الهائلة وبالسيطرة الجزئية المستقبلية على الأكراد والزيت في شمال العراق، فإن مجلس نوابها الديمقراطي أضاف صوته على الأقل إلى التعبيرات عن القلق التي عمت كل أنحاء العالم.

ويجب أن يكون السلام الذي يراد تأسيسه تحسيناً واضحاً على ما هو موجود. ومع أن هناك رؤى من ترياق السلام والديمقراطية في العراق، فإن من الممكن تماماً أن تؤدي تبعات الغزو العسكري الناجح إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، وأن يقوم الإرهابيون الذين أثارهم الغزو بالانتقاص من السلامة الشخصية لشعبنا ولأمن أمتنا. وإضافة إلى ذلك، فإن تحدي المعارضة العالمية الكاسحة سوف يهدد بتصدع عميق ودائم للأمم المتحدة بوصفها مؤسسة قابلة للحياة من أجل السلام العالمي.

"... إن التعاطف القلبي الصادق والصداقة التي قدمت لنا بعد الهجمات الإرهابية في 9/11، حتى من أنظمة الحكم التي كانت معادية لنا سابقاً، قد تبددت إلى حد كبير، والسياسات الأحادية الجانب المتزايدة والمتسلطة أوصلت بلادنا إلى الحضيض من مستواها من عدم الثقة والعداء الدوليين في ما تذكره الذاكرة. وسوف نهبط أكثر من ذلك بالتأكيد في مكانتنا إذا أطلقنا حرباً تتحدى معارضة الأمم المتحدة تحدياً صريحاً. وأما متابعة استخدام حضورنا والتهديد بقوتنا العسكرية لإرغام العراق على الامتثال لكل قرارات الأمم المتحدة، مع وضع الحرب خياراً أخيراً، فسوف تعزز مكانتنا بصفتنا حامياً للسلام وللعدل".

وعلى رغم هذا البيان السابق للحرب الذي جاء وكأنه يعلم الغيب على نحو مأساوي ومعه بيانات أخرى مثله، فإن الولايات المتحدة رفضت القيود الدولية على استخدامها للقوة وغزت العراق بقوة عسكرية كاسحة. ولم يكن هناك أدنى شك حول نتيجة النزاع، وذلك نظراً إلى وجود قيود دولية شديدة دامت طوال أكثر من عقد من الزمان على حصول العراق على معدات أسلحة متقدمة، ولأن العراقيين كانوا يصرفون سنتاً واحداً فقط، مقابل كل ثلاثة دولارات في ميزانية أمريكا العسكرية. وكان سوء الحكم المأساوي قد تمثل في أن قواتنا العسكرية الشجاعة كانت ذاهبة إلى ما صوروه لها استقبالاً حاراً من العراقيين المحررين. وبدلاً من ذلك، فقد تكبدنا على الأقل خمسة عشر ألف إصابة، ومن جملتها أكثر من ألف وسبعمائة قتيل، و93 بالمائة منهم منذ سقوط بغداد.

وكان العدد المتوسط للضحايا الأمريكيين العسكريين كل شهر هو ثمانية وأربعين قبل اعتقال صدام حسين، ثم زاد بعدئذ إلى ثمانية وسبعين في الشهر.

ومن الغريب أن وسائل الإعلام الجماهيرية تبدو متبلدة الإحساس نحو الإصابات. وقد اعترف محقق شكاوى الجمهور في صحيفة الواشنطن بوست، على سبيل المثال، قائلاً: "بين 1 من شهر نيسان/إبريل و23 من شهر حزيران/يونيو، في الوقت الذي كنت أكتب فيه هذا الكلام، مات 193 من أعضاء القوات المسلحة الأمريكية في العراق. ولم يكن هناك عنوان رئيسي واحد، في الصفحة الأولى لصحيفة كبيرة يشير إلى أنها التقطت هذا الكلام حين كان يتكشف أو أجملت الحديث عنه إلى أي نقطة".

وكان واحد من أغرب القرارات التي اتخذتها حكومتنا هو تحديد معرفة الأمريكيين بالخسائر. فنادراً ما يذكر الجرحى أو يزارون من قادتنا. ويُعمل كل شيء ممكن لمنع أي نظر عام إلى التوابيت التي تعود إلى محفظة الموتى في الولايات المتحدة في قاعدة دوفر الجوية في ديلاور. ورُفِعَت قضايا قانونية نيابة عن الأمهات والزوجات اللواتي حُرِمنَ من السماح لهن بلقاء جثث القتلى من أعضاء أسرهن في دوفر أو في القواعد العسكرية الأخرى.

لقد اتخذنا نحن وحلفاؤنا البريطانيون قراراً رسمياً بأن نمتنع عن تعداد الموتى من المدنيين أو تقدير أعدادهم. وهناك مساحات واسعة في الأرقام المنشورة. روت مجلة طبية بريطانية محترمة، هي لانسيت، أن قوات الحلفاء (وخصوصاً القوات الجوية) قد قتلت مائة ألف من العراقيين غير المقاتلين. والتقديرات الوحيدة من المصادر الأمريكية الرسمية هي حوالي أربعة وعشرين ألفاً، ومحدودة فقط بأولئك الذي ذكروا في وسائل الإخبار الغربية. الأرقام الفعلية تقع في مكان ما بين هذين الطرفين.

وإضافة إلى العراقيين الذين قتلوا في أثناء العمليات العسكرية الأمريكية، مات المدنيون العراقيون وضباط الشرطة بمعدل أكثر من 800 في الشهر بين

شهر آب/ اغسطس 2004 وشهر ايار/مايو2005، طبقاً للأرقام المعلنة في شهر حزيران/يونيو2005، من وزارة الداخلية العراقية، مع تزايد معدل الموت بعد انتخابات كانون ثاني/يناير.

وبغض النظر عن الأرقام الدقيقة للإصابات، هناك حقيقتان أساسيتان يجب أن نتذكرهما، وهما: الحرب كانت غير عادلة وغير ضرورية، وقواتنا المسلحة في العراق تستحق شكراً وإعجاباً فوق العادة لشجاعتها الخاصة وفعاليتها. والحقيقة هي أن الولايات المتحدة، على خلاف ما يكون عليه الحال في اثناء أزمان أخرى من التهديد القومي أو الأزمة، ليست في حالة حرب. ويتركز عبء النزاع كله، إلى درجة غير عادية، على مجرد أفراد عسكريين قلة وعلى عائلاتهم، ومن دون أن يكون هناك اي تضحية مالية او انزعاج في صفوف 99.5 بالمائة من الشعب الأمريكي. كان خمسمائة ألف من القوات العسكرية قد اشتركوا في حرب الخليج الأولى في تحقيق الغاية المحدودة وهي إخراج العراقيين من الكويت، ولكن ما يعادل ثلث تلك القوات فقط في هذه المرة هي القوة التي ارسلت مراراً لتتغلب على أمة كبيرة ومعقدة ولتستولي عليها.

الذين بقوا على قيد الحياة يتلقون الثناء الذي يستحقونه بجدارة. ولكن أسرتنا دخلت في نوع مختلف من النزاع حين غادر ابننا الكبير الكلية للتطوع للخدمة في فيتنام. كانت تلك مغامرة أمريكية غير شعبية للغاية. وأتذكر حين كان جاك يأتي في إجازة عسكرية لفترات قصيرة، كان موضع سخرية من أقرانه وزملائه السابقين في الدراسة لكونه غراً وساذجاً، وفضل الا يلبس البزة العسكرية. وبعد عدة سنوات بعد أن انتهت حرب فيتنام كُرّم هؤلاء الشباب الشجعان اخيراً بوصفهم ابطالاً.

والسؤال الأساسي الذي يجب أن يسأل هو: "هل خفضت الحرب العراقية تهديد الإرهاب؟"من سوء الطالع، أن الجواب هو: "لا". ونحن لم نفقد فقط التعاطف الذي كان بالإجماع تقريباً والمساندة التي عرضت علينا في كل أنحاء العالم بعد هجوم 9/11، بل هناك أدلة مباشرة أيضاً أن الحرب العراقية قد زادت التهديد الإرهابي. وقد صرح بورتر غوس، وهو مدير وكالة الاستخبارات المركزية، في شهادة له أمام مجلس الشيوخ بالقول: "إن المتطرفين الإسلاميين يستغلون النزاع العراقي من أجل تجنيد جهاديين جدد معادين للولايات المتحدة... وهؤلاء الجهاديون الذين يبقون على قيد الحياة سوف يغادرون العراق وقد تمرسوا بالخبرة وركزوا على أعمال الإرهاب في المناطق الحضرية".

ولتأييد رأيه روى المركز القومي الأمريكي لمكافحة الإرهاب أن عدد الحوادث الإرهابية الدولية قد زاد بأكثر من ثلاثة أضعاف في عام 2004. ونمت الهجمات "المهمة" ذات المغزى إلى أكثر من 650 هجوماً، زيادة عن رقم قياسي سابق كان حوالي 175 في عام 2003. وزادت الحوادث الإرهابية في العراق أيضاً زيادة مؤثرة من 22 هجوماً إلى 198 هجوماً، أو ما يعادل تسعة أضعاف مجمل العام السابق، بعد تسليم الولايات المتحدة السلطة السياسية إلى حكومة عراقية مؤقتة. من الواضح أن الحرب قد حولت العراق إلى أفضل مركزٍ تدريب إرهابي في العالم، وربما يكون أخطر من أفغانستان تحت نظام حكم الطالبان. وإضافة إلى ذلك، فبدلاً من تمكننا من استخدام العراق قاعدة دائمة نستطيع منها أن نضغط على إيران وسورية، هناك على ما يبدو موالاة متزايدة بين الحكومة العراقية التي تتطور وبين جيرانها الشيعة الأصوليين، وهو الأمر الذي قد يقوي الموقف الإستراتيجي الإيراني تقوية كبيرة في الشرق الأوسط.

إن تبني الحرب الاستباقية بوصفها سياسة أمريكية قد أجبر الولايات المتحدة على أن تتخلى عن المعاهدات الموجودة وعن التحالفات الموجودة بوصفها قيوداً غير ضرورية على حرية قوتنا العظمى للتصرف تصرفاً أحادي الجانب. وهناك عاقبة خطيرة أخرى لهذه السياسة وهي احتمال قيام أمم عدوانية أخرى بتبني السياسة نفسها في الهجوم لإطاحة قادة يرون أنهم غير مرغوب فيهم.

حين نظمت الولايات المتحدة ونسقت الخطوة الأولى نحو الديمقراطية المحتملة في العراق في مطالع عام 2005، كان هناك مظاهرة مؤثرة من الشجاعة والالتزام للحرية حين قام عدد ضخم من المسلمين الشيعة والأكراد بالذهاب إلى التصويت في الانتخابات في وجه التهديد الذي أطلقه المنشقون السنة والجماعات الإرهابية. وأما الخطوات التالية المتوجهة نحو كتابة الدستور ثم تشكيل حكومة تمثيلية بعدئذ فهي خطوات ما تزال من غير الممكن التكهن بها في الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، ولكن هناك قلق كبير حول تعاون السنة وحول المدى الذي ستكون القوانين الدينية مهيمنة فيه. فالأحزاب الدينية الشيعية الحاكمة تطالب بأن تصير نصوص من القرآن، تدعى الشريعة، هي السلطة العليا في قضايا الزواج، والطلاق، والميراث. وستكون مفارقة ساخرة، إذا ضاعت حقوق النساء المهمة التي بقيت موجودة برغم حكم صدام حسين وفقدت تحت الحكومة الجديدة "الديمقراطية" التي ترعاها الولايات المتحدة وتحميها.

وسيكون إنجازاً وجيهاً إذا أمكن تحقيق النجاح. على رغم الأمور غير المتيقنة وعن الزيادة في حمية الإرهابيين، فإن هذا الجهد الرامي إلى جلب الديمقراطية إلى العراق يستحق مساندة العالم.

وليس هناك من شك في أن على الولايات المتحدة أن تنجز أهدافها الأساسية قبل سحب قواتنا من العراق، ولكن تلك الأهداف لم يسبق لها أبداً أن رُسمت رسماً واضحاً. ومن المرجح أن الضغوط السياسية الموجهة من جمهور أمريكي خاب فأله ستكون عاملاً كبيراً في وضع الأهداف في حدها الأدنى وفي وضع الجدول الزمني لانسحاب القوات الأمريكية. يجب علينا أن نزود الشعب بالماء، وبالصرف الصحي، وبالاتصالات، وبالكهرباء، وبالقدرة على إنتاج زيتهم وتسويقه. ويجب أن يمتلك العراقيون قوات أمن على درجة الكفاءة نفسها التي كانت للقوة التي سرحناها، لتدعم حكومة مستقرة وديمقراطية.

والسؤال الأساسي الذي سيقرر النتيجة النهائية هو أيصرُّ القادة الأمريكيون على وجود القواعد العسكرية الدائمة والعلاقة الاقتصادية المهيمنة في البلاد، أم سيعلنون بوضوح أننا لا نملك أي خطط لإدامة حضور دائم لمصلحتنا الخاصة؟

ومعظم العرب في المنطقة، ولدرجة تبعث على الدهشة والانزعاج، لا يتفقون مع تقديري المفضل للجهد الديمقراطي. ففي استطلاع محترم أجرته الزغبي الدولية في مصر، والمملكة العربية السعودية، والمغرب، والأردن، ولبنان، والإمارات العربية المتحدة ونشر في شهر آذار/مارس 2005، أن اغلبية ساحقة من العرب لا تصدق أن السياسة الأمريكية في العراق كان الباعث عليها نشر الديمقراطية في المنطقة، وهم يعتقدون أن الشرق الأوسط صار أقل ديمقراطية بعد حرب العراق وأن العراقيين صاروا أسوأ حالاً مما كانوا عليه قبل النزاع. والمعدلات الإجمالية للموافقة مع الولايات المتحدة كانت بنسبة منخفضة غير مسبوقة وصلت إلى 2 بالمائة في مصر، و4 بالمائة في المملكة العربية السعودية، و11 بالمائة في المغرب، و14 بالمائة في الإمارات العربية المتحدة، و15 بالمائة في الأردن، مع نسبة عالية تصل إلى 20 بالمائة فقط في لبنان.

كانت هذه هي البلاد العربية التي لها أقرب الروابط التاريخية مع أمريكا. فأكثر من ثلاثة أرباع العرب المجيبين اعترفوا بالمساندة للمبادئ الديمقراطية للحكومة، ولكنهم أدانوا الهجوم على العراق إدانة شديدة وأدانوا الانحياز الواضح من الولايات المتحدة ضد حقوق الفلسطينيين. وعلى الرغم من جهودنا الديمقراطية المثيرة للإعجاب، فهذه ليست فأل خير لسياساتنا في المنطقة.

وكما وصفتُ سابقاً، فإن إحدى خصائص الأصوليين هي انهم يتخلون عن المناقشات أو المفاوضات لحل الخلافات. ويفسرون هذا الأسلوب بوصفه علامة ضعف في التمسك بمبادئهم. وأكثر ما ينم عن التمييز بين الجمهوريين والديمقراطيين هو تفضيلهم بين طرق حل القضايا الدولية الخلافية، الاعتمادَ على القوة أو الدبلوماسية.

إن أمتنا منقسمة انقساماً واضحاً حول الرد الأساسي على التحديات الدولية التي تواجهنا. ومن المفترض على نطاق شامل أن أرض الوطن الأمريكية لن تكون ابداً آمنة أمناً كاملاً، وانه سيكون هناك تهديد دائم من الإرهاب، ومن المرجح انه سيأتي من منظمات ضعيفة نسبياً ولن يكون لها أمل في تحدي اي وجه من وجوه قوتنا العسكرية الكاسحة.

ما هي افضل ردودنا؟ أمن الأفضل أن نعتز بدورنا التاريخي بصفتنا الحامي العظيم للحقوق الإنسانية، أم أن نتخلى عن معاييرنا المحلية والدولية العالية في الرد على التهديدات؟ أمن الأفضل ان نقيم مثالاً حازماً في تخفيض الاعتماد على الأسلحة النووية والمزيد من انتشارها، أم أن نصر على حقنا (وعلى حق الآخرين) في استبقاء ترساناتنا، وتوسيعها. ونقوم من اجل ذلك بإلغاء اتفاقيات السيطرة على التسليح التي جرى التفاوض عليها طوال عدة عقود أو الانتقاص

منها؟ أنحصل على أفضل خدمة بتبني السلام بصفته أسبقية قومية، ما لم يكن أمننا مهدداً تهديداً مباشراً، أم بإعلان حق كامل بمهاجمة الأمم الأخرى أحادياً لتغيير نظام حكم كريه فيها أو لأغراض أخرى؟ هل التصريح بالقول: "أنتم إما معنا وإما علينا" أفضل؟ وهل يتفوق على تشكيل الأحلاف المستندة إلى فهم واضح للمصالح المشتركة؟ وحين تكون هناك اختلافات جدية مع الأمم الأخرى، أيكون من الأفضل أن نسمح بالمفاوضات المباشرة لحل المشكلات، أم أن نصم أولئك الذين يختلفون معنا بوصفهم منبوذين دولياً، ونرفض أن نسمح بمثل هذه المناقشات؟

لقد سبق لسياسات حكومتنا أن أجابت من قبلُ عن معظم هذه الأسئلة. وهي سياسات محمولة على المقدمات الأساسية للأصولية ولم يتضح بعد إن كان الشعب الأمريكي موافقاً.

* *

الفصل الخامس عشر

أين التهديدات الكبيرة للبيئة؟

لقد كان تعزيز أمريكا للبيئة وحمايتها واحداً من أكثر الالتزامات التي سادت واجمع عليها الحزبان على مدى 150 سنة مضت. وكان هذا يتضمن تشكيل متنزهاتنا العامة القومية ومناطق البراري، وحمايتها، وتوسيعها، والمبادرة إلى سن القوانين من أجل التأكد من نقاء الهواء والماء، وتقوية هذه القوانين، وبذل الجهود لحماية المواطنين في كل البلاد من تهديدات التلوث والنفايات السامة. وكان أول متنزه عام قومي، وهو يلوستون، قد تأسس في عهد إدارة يوليسيس اس. غرانت. ووسع تيودور روزفلت وخلفاؤه من بعده هذا النظام، ووقع ريتشارد نيكسون تشريعاً يضع مستويات عالية من النقاء للهواء وللماء.

وحين وصل كيان الدولة إلى الاسكا، أدرك الرئيس دوايت ايزنهاور أن مساحات شاسعة من الأرض كانت هناك وكانت تحتاج إلى التخصيص بين الولاية والحكومات الفيدرالية، وبين الإسكيمو، وبين الأمريكيين الأصليين الآخرين، وبين بعض المصالح الخاصة. واستطاع مجلس النواب أن يعالج إحدى القضايا الحساسة على وجه الخصوص، بإصدار تشريع يوصي بأن يبقى 9 ملايين فدان من الأرض البكر، على طول الشاطئ الشمالي من الاسكا، محمية على حالتها الأصلية حماية دائمة من اي تطوير تجاري. وحين استطاع عضوان من مجلس

الشيوخ عن الاسكا ان يعيقا عمل مجلس الشيوخ. حقق الرئيس أيزنهاور غايته بأن أسس المحمية القطبية للحياة البرية القومية "لغرض حفظ الحياة البرية الفريدة، والبراري ولأغراض ترفيهية" . وبقيت حالة أراض شاسعة أخرى في الاسكا من غير تسوية.

كانت هذه هي الحالة التي ورثتها بعد واحد وعشرين عاماً تالية. وقد تطلب حل المسائل المعقدة والخلافية ذات الصلة بتوزيع الأرض عمل اربعة أعوام كاملة من إدارتي وتآلفاً بين الحزبين في مجلس الشيوخ. ولكننا في النهاية شكلنا قانون حفظ أراضي المصلحة القومية في الاسكا، والذي وزع كل الأراضي المتوافرة. وبعملنا هذا، كنا قادرين على أن نضاعف حجم نظام متنزهاتنا العامة القومية وأن نصل بمناطق برارينا إلى ثلاثة أضعاف.

ومشروع القانون الذي أصدره مجلس النواب تضمن توصيتي بالأسبقية لحفظ منطقة أيزنهاور، ومن جملتها كل فدان من الملاذ القطبي للحياة البرية القومية الموجود حالياً. ولكن مرة أخرى قامت معارضة أخر دقيقة من أعضاء مجلس الشيوخ من الاسكا. والمتأثرة تأثراً بالغاً بصناعة الزيت، وأعاقت تلك المعارضة مشروع القانون لئلا يتضمن منح الملاذ المكانة الكاملة التي تتمتع بها البراري. ونجحنا في تضمين مطلب يستدعي صدور قانون جديد بشكل كامل من مجلس الشيوخ إذا كان يجب في اي وقت أن تُفتح المنطقة للحفر من أجل الزيت. وكان افتراضنا الطبيعي هو أنه سيكون من المستحيل عملياً لكلا المجلسين النواب والشيوخ ولأي رئيس أن يتفقوا على نهب المنطقة.

وقد تحقق ذلك التوقع في أثناء السنوات الخمس والعشرين التي تلت، وذلك بالاستناد إلى مقدمتين أساسيتين: الأولى، هي أن الملاذ موطن لا يتعرض

للإزعاج لحياة برية من نوع عالمي واضح، ومتعدد الوجوه، وموطن لقيم البراري. وهذا هو على وجه الدقة السبب نفسه الذي نحمي من أجله المتنزهات العامة في يلوستون ويوسميتي. والثانية، هي أن القادة السياسيين الأمريكيين المتورين كانوا يعرفون أن مستقبل امتنا في الطاقة لا يتوقف على تخريب البيئات الطبيعية البكر الأصلية بل على بدائل من الكفاءة هي أكثر جدوى بكثير وسوف تعطينا استقلالاً اكثر يقيناً ودواماً من الزيت الأجنبي.

وهذه المنطقة الثمينة هي القلب البيئي لملاذ يرتبط بملايين من الفدادين الإضافية من موطن الحياة البرية المحمية في الركن الشمالي الغربي من كندا. والحياة البرية الغنية بالألوان التي تزدهر هنا في موطنها البري هي سرينغتي في شمال أمريكا، وهي التي أشعلت الحب الداخلي في شعبنا لتراثه الطبيعي.

وقد كنا، روزالين وأنا، محظوظين حظاً وافراً لنركع على التندرا من هذا السهل الساحلي حين كانت عشرات الآلاف من أيائل الرنّة تمر حولنا في هجرتها الخالدة إلى الأراضي الحيوية للتوالد والحضانة، وهي المنطقة نفسها المستهدفة الآن من أجل تطوير الزيت. وقد راقبنا قطيعاً من ثيران المسك يدور حول صغاره ليحميها. ولكننا كنا نعلم أن سلوكها الدفاعي لن يحمي الصغار من التطوير الصناعي. والشيء نفسه يصدق على الدب القطبي وعلى ملايين الطيور المائية المهاجرة التي تبني أعشاشها على هذا الساحل من التندرا. هذا هو بيتها في البراري.

واخيراً بدا في شهر آذار/ مارس 2005 ان صناعة الزيت تسود. وذلك حين سيطر حزب سياسي واحد على البيت الأبيض وعلى كلا المجلسين النواب والشيوخ. واستخدمت مناورة تشريعية من أجل ربط الشرط المدمر بمشروع

قانون ميزانية كان عصياً منيعاً على معارضة أعضاء مجلس الشيوخ الذين يحاولون حماية الملاذ. وما يزال هناك بعض الأمل. ولو تمت الموافقة أخيراً على هذا التشريع، بالا تقوم شركات الزيت المسؤولة بخيانة الشعب الأمريكي بالحفر عن الزيت هناك. وأنا، بصفتي مستهلكاً للمنتجات البترولية، سأجعل آخر خيار لي في حاجتي إلى مُوَرِّد أي شركة من شركات الزيت تلك التي كانت تحفر في ملاذنا، وقد يكون هناك عدة ملايين آخرين من دعاة حفظ البيئة لهم الميل نفسه.

تستهلك أمتنا سبعة بلايين برميل من الزيت سنوياً، ولو أن الملاذ وفر المليون المأمولة من البراميل في اليوم، فإن الزيادة السنوية الضئيلة في الإمداد المحلي لن تقلل تقليلاً مهماً اعتمادنا على الزيت الأجنبي. وفي أحسن الأحوال، طبقاً لما رآه الخبراء المختلفون للطاقة، فإن الملاذ سوف يغل أقل من إمداد عام من الزيت للولايات المتحدة.

إن السعي إلى أن نصير أقل اعتماداً على الزيت الأجنبي هو هدف قيِّم، ولكن هناك طرق دائمة وأفعل إلى حد بعيد لتحقيق هذه الغاية. إن الكفاءة المتوسطة للسيارات الأمريكية كانت 12 ميلاً فقط لكل جالون حين صرت رئيساً، وقد عملت مع صانعي السيارات ومع مجلس الشيوخ لتنفيذ التزام بزيادة الكفاءة، في خطوات مقررة، لترتفع إلى 27.5 ميل لكل جالون. ومنذ أن غادرت المنصب، تم تخفيض هذه المتطلبات دورياً، من خلال منافذ للتهرب دبرت بمكر وعناية، وهبطت الكفاءة ثانية. إن السيارات تستخدم الآن 40 بالمائة من زيت أمتنا، وقوة الأحصنة للمحرك المتوسط للشاحنات وللسيارات الرياضية العامة قد تضاعفت منذ عام 1980، وزادت أوزانها بألف رطل تقريباً. والسيارات الرياضية العامة وعربات هامر التي تزن ضعفي هذا الوزن مستثناة من تنظيمات الكفاءة.

ومأساة اتخاذ القرار بالإضرار بملاذ الاسكا هي أن الزيت المنتج من المنطقة حين يصل إلى ذروة الإنتاج، بعد خمسة عشر إلى عشرين عاماً، سوف يساوي الكمية التي يمكن أن تُوَفَّر إذا طلبنا أن تكون الكفاءة في "الشاحنات الخفيفة" (والسيارات الرياضية العامة) هي الكفاءة نفسها كما في السيارات العادية (عشرون ميلاً في الجالون). والوصول إلى الهدف الذي وضعناه في عام 1980 سوف يسفر عن وفورات أكثر بكثير. وربما لم يكن مثيراً للدهشة، أن تكون الضغوط السياسية من صناعة الزيت ومن صانعي السيارات قد سادت على هذه القضية، وأن السيارات المسرفة في استهلاك البنزين قد صارت منتجاً كبيراً في بلادنا. هذا القرار الحكومي الأحمق ضد اقتصاد الوقود قد يكون ضربة خطيرة طويلة الأمد لصناعة السيارات الأمريكية في تنافسها مع السيارات الأكفا المصنوعة في اليابان وفي أوروبا في الوقت الذي ترتفع فيه لا محالة أسعار الوقود في المستقبل.

والحاجة المحزنة الأخرى في بلادنا هي الصيانة الدورية لمتنزهاتنا العامة القومية. فمنذ أن تم سن مشروع قانون أراضي الاسكا منذ ربع قرن مضى، اضاف مجلس الشيوخ اكثر من 80 متنزهاً عاماً إلى النظام الموجود، الذي مجموعه 388 متنزهاً، ولكن لا الرؤساء ولا اعضاء مجلس الشيوخ قدموا الأرصدة الكافية للمحافظة عليها وصيانتها. وقد جعل الحاكم جورج دبليو. بوش هذه القضية قضيته المركزية في جدول أعماله البيئي في أثناء الحملة الرئاسية عام 2000، منتقداً أسلافه نقداً شديداً لسماحهم بالمنتزهات العامة ان تتضاءل وتذوي. وتعهد أن ينفق بليون دولار في السنة من النقود الجديدة طوال خمس سنوات ليفي بالاحتياجات المستحقة منذ مدة طويلة للصيانة، ثم قدرت بعد ذلك بمبلغ 4.9 بليون دولار. ولم يكن في المتناول من هذه الكمية إلا 18 بالمائة فقط،

وقدّرتْ إدارة البحث في مجلس الشيوخ وهي غير حزبية في عام 2005 ان المبلغ المتراكم المتأخر هو 7.5 بليون دولار. إن الفشل في تصحيح هذه الغلطة هو فشل واضح من الحزبين.

وفي وقت واحد تقريباً مع قانون حفظ أراضي المصلحة القومية في الاسكا في عام 1980 جاء إكمال العمل في ما كان معروفاً باسم تشريع الرصيد الأعلى. وكنت منذ مدة طويلة قلقاً حول انبعاث المواد السامة من بعض الشركات غير المسؤولة، وعملت مع مجلس الشيوخ المكون من الحزبين وأسسنا متطلبات قانونية تقضي بأن مثل هذه النفايات يجب تخفيضها تخفيضاً شديداً وأن يطلب من أولئك المسؤولين أن يمولوا تنظيف رواسبهم السامة. وكذلك، فإن ضريبة إضافية صغيرة على الشركات الكيماوية الملوّثة اسست رصيداً دائماً لتغطي النفقات المستقبلية. والآن، مع قدوم إدارة جديدة في واشنطن، فإن جماعات الضغط الممثلة للصناعة كانت قادرة على أن تسود مرة ثانية، حين تم التخلي عن مبدأ "الملوِّثون يدفعون". وأجبر دافعو الضرائب على دفع ما يصل إلى حوالي 80 بالمائة من تكاليف التنظيف في عام 2004. وسوف يتحملون الفاتورة الإجمالية في العام المالي 2005. وليس هناك إلا حافز مالي قليل ليحفز الشركات، التي لا ضمير لها ولا ترعى أي حرمة، على العمل على تحديد تفريغ النفايات السامة.

أحد القرارات التي كانت غاية في إثارة الجدل، وموضع إدانة شاملة هو القرار الذي اتخذه القادة الأمريكيون الكبار في السنوات القريبة ويتصل برفض المشاركة في الاتفاقية الدولية التي تم التفاوض عليها تفاوضاً مجهداً بفرض السيطرة على الغازات المنبعثة من الصوبات الدفيئة،والتي تسبب زيادة في درجة حرارة الكرة الأرضية. وقد صار من المعروف على نطاق واسع أن الغازات التي

تأتي من صنع الإنسان. ومعظمها أكاسيد، ترتفع إلى طبقة الغلاف الزمهريري (ستراتوسفير) وتخلق غطاء مشابهاً للقبة اللدائنية (البلاستيكية) أو الزجاجية التي تحيط بالصوبة الدفيئة. وتدخل أشعة الشمس، ويتم الاحتفاظ بكمية زائدة من الحرارة بدلاً من تبديدها من جو الأرض.

إلى حد ما أعلمه، صارت هذه القضية موضع مناقشة جادة في الوقت الذي كنت فيه رئيساً، حين بدأ العلماء في الإدارة القومية للمحيطات والمناخ وفي الأكاديمية القومية للعلوم يعبرون عن قلقهم حول الآثار السلبية لتنامي ثاني أكسيد الفحم في الجو. وكانت المشكلة خطيرة جداً إلى درجة دعت مستشاري العلمي، الدكتور فرانك بريس، إلى أن يطلب من الأكاديمية القومية أن تقوم بدراسة القضية، وتم تشكيل لجنة متميزة في مركز وودز هول للبحوث في ماساشوسيتس في صيف عام 1979 . وتوصل العلماء في الخلاصة إلى أن حرارة الكرة الأرضية سوف تزيد حوالي خمس درجات فهرنهايت حين يتضاعف مستوى ثاني أكسيد الفحم. وأضاف التقرير الرسمي المرفوع إلي، "لقد حاولنا، ولكننا لم نقدر، أن نجد أي آثار مادية قد تكون أغفلت أو قُدرت دون قدرها يمكنها أن تخفض الاحترار".

وتحذيرات العلماء تتحقق ويحدث ما كان متوقعاً. وهناك الآن ذوبان ضخم للأنهار الجليدية في الجبال وللجليد في المناطق القطبية. ومستوى البحار يرتفع. وهناك حالات شاذة بارزة ملحوظة في سلوك الأنواع الحساسة وقابليتها للحياة. ويحدث هذا بسرعة فعلاً، ومن المتوقع، على سبيل المثال، أن تختفي كل التشكيلات الجليدية القديمة الموجودة في المتنزه العام القومي للنهر الجليدي اختفاء تاماً مع حلول عام 2030. وقد كنا، روزالين وأنا، في الاسكا حديثاً

للاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لقانون حفظ أراضي المصلحة القومية في الاسكا ورحبت بنا عناوين رئيسية عن الانقراض الممكن للدببة القطبية. مع مقالات عن غرق قرى الإسكيمو بسبب فقدانها للدروع الجليدية وارتفاع مستويات البحر. وقد زرنا أحد الأنهار الجليدية في منطقة كيناي فيوردز، وكانت تذوب ذوباناً سريعاً.

وكلا الرئيسين جورج اتش. دبليو. بوش وبل كلينتون ساعد في التفاوض على بروتوكولات كايوتو، والمصممة لتأسيس التزام في كل أنحاء العالم للسيطرة على تلوث الجو وتقليل تنامي الغازات التي تعتبر سببَ الاحترار الكوني. وتاريخ هذا الجهد هو مؤشر مزعج آخر على التغير الحديث في قيم أمتنا القومية. فمع حلول عام 1988، كان المجتمع الدولي قد صار مهتماً اهتماماً عميقاً حول هذه المشكلة، وتشكلت لجنة دولية تعنى بتغير المناخ. وبعد عامين من التحليل العلمي الكثيف، صدر تقرير ينص على أن الكرة الأرضية كانت تسخن وأن النشاط الإنساني هو الذي يسبب هذا التسخين.

وفي عام 1992، اجتمعت أكبر مجموعة من قادة العالم في التاريخ في ريو دو جانيرو، في البرازيل، فيما صار يعرف بقمة الأرض. ودعا الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش ورؤساء آخرون العالم إلى تثبيت انبعاثات غاز الصوبات الدفيئة مع حلول عام 2000 ليستقر عند مستوى الحد الذي بلغه الانبعاث في عام 1990،وعلى وجه الخصوص ثاني أكسيد الفحم. وصادقت الولايات المتحدة وأمم أخرى على هذا الميثاق، وبذلك تكون المعاهدة ملزمة قانونياً للدول المشاركة. وقد تفاوض الرئيس بوش، وهو أمر عظيم الأهمية، على اتفاقية تسمح للدول النامية بأن تكون مستثناة من القيود، نظراً إلى أن الدول الصناعية هي المسهمة

إسهاماً غامراً بالانبعاثات المزعجة. وتم الاتفاق، زيادة على ذلك، ان تقوم الأطراف المشاركة في المعاهدة بالاجتماع سنوياً لتقدير المعرفة العلمية الإضافية حول أسباب الاحترار الكوني وجديته.

وبعد خمس سنوات من الدراسة الإضافية، صدر تقرير ثان أكد أن "التوازن في الأدلة أشار إلى تأثير إنساني يمكن تمييزه على نظام المناخ الكوني" وأضاف أن "تغيير المناخ مثل خطراً على الإنسانية". ونتائج البحث الخطيرة هذه أدت إلى عقد مؤتمر في عام 1997 للأمم المشاركة في كايوتو، في اليابان، وتم فيه وضع الالتزام بتخفيض مستوى عام 1990 من انبعاثات غاز الصوبات الدفيئة الكلية بنسبة 5 بالمائة بين عام 2008 وعام 2012. وقد قرر كل بلد موقع على هذا البروتوكول تخفيضه الطوعي الخاص به، وكان التزام ألمانيا عند نسبة 25 بالمائة، وبريطانيا العظمى بنسبة 15 بالمائة، وتعهدت الولايات المتحدة بنسبة تخفيض أكثر تواضعاً هي 7 بالمائة.

وفي الوقت الذي استمر فيه القادة القوميون في القيام بدراستهم المكثفة ومفاوضاتهم، فقد أعلن الرئيس جورج دبليو. بوش الذي تولى مقاليد السلطة حديثاً أن التخفيضات الإلزامية لاتفاقية كايوتو في غازات الصوبات الدفيئة والجدول الزمني القصير ستكون مكلفة أكثر مما يجب وغير حكيمة في الوقت الذي تواجه فيه الولايات المتحدة مشكلات الطاقة. ووافق، مع ذلك، على الاستمرار بالعمل مع القادة الآخرين في الإعداد من أجل مؤتمر دولي وفق جدول مواعيد طويل الأمد يعقد في بون، في ألمانيا. وهناك توصلت قوى العالم إلى اتفاقية تاريخية قبل الفجر تماماً في يوم 29 تموز/ يوليو 2001، ولكن القائد الأمريكي الجديد كرر رفضه لجميع الالتزامات السابقة من أمتنا. إن مائة

وثمانين بلداً (أي، العالم كله باستثناء الولايات المتحدة ودولة واحدة أخرى) وافقت على قواعد تنفيذ بروتوكول كايوتو. وعلى رغم المعارضة الأمريكية. فقد تم تبني شرط ينص على أن الاتفاقية تصير نافذة المفعول حين يتم تبنيها رسمياً من بلدان تكون مجتمعة مسؤولة عن 55 بالمائة من الانبعاثات الكونية من الصوبات الدفيئة. وقد تم الوصول إلى هذا الحدث الهام حين صادقت روسيا على الاتفاقية، بعد تسعين يوماً. وصار بروتوكول كايوتو قانوناً دولياً في 16 شباط/ فبراير 2005.

وفي شهر نيسان /إبريل 2005، نُشِر تقرير محدد في مجلة العلم من مجموعة من العلماء، قادهم جيمس إي. هانسن، وهو عالم في المناخ في إدارة الطيران والفضاء الأمريكية (ناسا)، وهو تقرير لا بد أن يبدد كل الشكوك حول تنبؤات تغيير المناخ. فبعد دراسة دامت لخمس سنوات واستخدمت أكثر من ألفي محطة مراقبة حول الكرة الأرضية، قرر العلماء أن درجات الحرارة سوف تستمر في صعود بطيء ولو تم فوراً تغليف غازات الصوبات الدفيئة. وسوف "تتحرك خارج السيطرة" إذا لم يتخذ إجراء تصحيحي قوي. ومن الممكن أن تحدث في هذا القرن زيادة تصل إلى 10 درجات فهرنهايت. وبالاستناد إلى البرهان العلمي الإضافي للمشكلة الطويلة الأمد، التزمت هولندا بتخفيض الانبعاثات بنسبة 80 بالمائة، والتزمت المملكة المتحدة بتخفيض نسبة 60 بالمائة. والتزمت ألمانيا بتخفيض 50 بالمائة في السنوات الأربعين القادمة.

إن إصرار قادة حكومتنا على حقهم المستمر في تجنب قيود الانبعاث قد صارت إحدى نقاط التجمع السائد للغاية من الناس حول العالم والذين يدينون الولايات المتحدة ورفضها للمعايير البيئية. وقد قال روبرت ميي، وهو واحد من

علماء بريطانيا العظمى الرئيسيين ورئيس الجمعية الملكية، إن إدارة بوش تقاوم "الحقيقة العلمية" وهي تحاول أن تفرض من أعلى "أيدلوجية أصولية واحدة على بقية الدول الثماني الكبيرة".

وينطبق هذا النمط من اللامبالاة أو التجاهل على بيئة أمريكا نفسها. فبموجب الشروط الأصلية، فإن التشريع الذي مثل نقطة تحول في التعامل مع الهواء والماء النظيفين، ومع التعدين، والرعي، وعلم الغابات، والنفايات السامة، ومع حماية الأنواع المعرضة للخطر كان قد أعيد إقراره بانتظام، مع وجود معايير أعلى من السابق يتوقع أن تفرض في كل خطوة كلما تحسنت التقانة. ومع هيمنة الجمهوريين المناوئين للبيئة على اللجان الرئيسية في مجلس الشيوخ، فإن جميع القوانين ذات العلاقة قد فات موعد استحقاقها لإعادة الإقرار منذ مدة طويلة وليس هناك سوى حماسة ظاهرة ضئيلة من البيت الأبيض او من أي مصدر آخر لمعالجة هذه القضايا.

وبدلاً من زيادة المعايير ورفعها، فإن المقترحات الحديثة من الإدارة سوف تسمح لمعامل الطاقة القديمة التي تحرق الفحم بأن تتجنب إنشاء ضوابط للتلوث حين تقوم بالإصلاح أو التحديث، وسوف تأذن بانتهاكات المعايير الصحية المتعلقة بالسخام وبالدخان المختلط بالضباب في أن تستمر حتى عام 2015 أو لأطول من ذلك، وسوف تسمح بضعفين من ثاني أكسيد الكبريت وبضعف ونصف من أكسيد الأزوت (النتروجين) وذلك لمدة هي أطول بعقد من الزمان مما هو موجود في قانون الهواء النظيف الموجود. وسوف يسمح واحد من مقترحات مجلس الشيوخ الجمهوري للمجتمعات التي يأتي هواؤها الملوث من مناطق تبعد عنها مئات الأميال أن تؤخر الوفاء بمعايير الجودة القومية للهواء لمدة عشر سنوات، أو

إلى أن يُنظف جيرانهم الذين تأتي الريح من ناحيتهم، هواءهم الخاص بهم. وهذا القانون الذي تسانده الصناعات الملوّثة مساندة قوية، يستطيع أن يخلق لعبة لا تنتهي من التلاوم وأن يكون نكسة خطيرة أخرى لقانون الهواء النظيف.

لقد كان هذا التخلي عن العديد من العناصر الحاسمة بالنسبة إلى حفظ النوعية البيئية هو النمط السائد في السنوات الأربع الماضية.

هناك مناقشات حزبية قوية وهي في الأغلب مقسومة بالتساوي حول بعض القضايا الكبيرة، ولكن هذه الحالة ليست موجودة في حماية نوعية بيئتنا. فبعض الجمهوريين البارزين قلقون قلقاً عميقاً بشأن عدم اهتمام قادة حزبهم بالاحترار الكوني وبقضايا أخرى. وحين سئل عضو مجلس الشيوخ جون ماك كين عن سياسات الرئيس وبعض زملائه في مجلس الشيوخ قال: "ليس هناك تبرير يبرر عدم اتخاذ إجراء الآن، ولكن أمامنا واجب صعب في إقناع الإدارة. وموقف البيت الأبيض بخصوص تغيير المناخ هو موقف مخيب للآمال على نحو مزعج. ومن سوء الطالع، أن المصالح الخاصة تحكم في واشنطن، في مقاطعة كولومبيا، وجماعات الضغط الكبيرة، ومن جملتها المنافع، تستحوذ على سلطة ضخمة في الكابتول هيل". وأضاف يقول: "هل نحن مقبلون على تسليم أطفالنا وأحفادنا عالماً مختلفاً اختلافاً ضخما عن العالم الذي نسكنه الآن؟" إن مجلس الشيوخ الأمريكي الذي يقوده الجمهوريون، قاوم المعارضة الشديدة من البيت الأبيض واصدر قراراً غير ملزم في شهر حزيران/ يونيو 2005 يفضل فيه برنامجاً للسيطرة الإلزامية على انبعاث الغازات التي تسهم في الاحترار الكوني.

وكما هو الحال مع صانعي السيارات الأمريكية، فإن الصناعات الكبيرة لبلادنا والتي تتعامل مع إنتاج الطاقة ومع المعدات البيئية ستكون في ظرف غير

موات في الأسواق العالمية إذا لم تتكيف مع هذه القيود المفروضة على الاحترار الكوني. وفي الحقيقة، فإن شركة جنرال إلكتريك وأخريات غيرها قد أعلنت خططاً لمساندة الامتثال لشروط معاهدة كايوتو. وعلى رغم معارضة الحكومة الأمريكية، فإن التقانة النظيفة هي موجة المستقبل.

وتكشف استطلاعات الرأي كشفاً غامراً أن الأمريكيين يساندون الشروط التي تحفظ نوعية الهواء والماء، وتضبط التلوث، وتحمي الحياة البرية، وتتوسع في أراضي المتنزهات العامة وحفظها. وتصمد هذه القناعات الحازمة حتى حين يتضمن السؤال فرض زيادات ضريبية محددة مطلوبة للتمويل. وفي استفتاءات عامة من هذا النوع أجريت في ثلاث وأربعين ولاية في أثناء السنوات العشر الماضية وافق المصوتون على 1065 إجراء لحماية الطبيعة وما فيها من أصل 1376 من الإجراءات.

وهناك عواقب جيوسياسية للسياسات الجديدة لحكومتنا. نظراً إلى أننا مستمرون في مكافأة الدول الأجنبية غير الديمقراطية والغنية بالزيت ونظراً إلى أننا مستمرون في استبقاء اعتمادنا عليها، وزيادة أثر الصوبات الدفيئة مع عوادم المصانع والسيارات، ومواجهة تنافس سياسي واقتصادي لا مناص منه مع الصين ومع البلدان الأخرى النامية نمواً سريعاً وهي تلطف عطشها المرتفع ارتفاعاً شديداً إلى الزيت من المصادر نفسها. وتعمل الآن في العالم حوالي 800 مليون سيارة. ويقدر أن هذا الرقم سوف يزداد مع النمو ومع التطور الاقتصادي في الصين والهند، عاماً بعد عام، ليصل إلى 3.25 بليون سيارة في غضون الأربعين سنة القادمة. إن من حسن الوعي أن نتصور هذا الأثر المتصاعد على بيئة الكوكب الأرضي.

إن أفضل رد حتى الآن على هذه الحالة هو الكفاءة العالية كثيراً في استهلاك الوقود لمصانع الطاقة وللسيارات، إضافة إلى استخدام مصادر أخرى للطاقة لمصانع الطاقة الكهربائية. والوقود النووي خيار واعد، وإن كان محدوداً. فحوالي 20 بالمائة من كهرباء الولايات المتحدة الآن تأتي من 103 من المفاعلات النووية التي تعمل، ويمكن لهذا الرقم أن يزداد. وقد حسنت التقدمات التقنية السلامة تحسيناً مؤثراً. ويمكن تقليل مشكلة منتجات النفايات النووية. وقد حضرتُ حديثاً إدخال غواصة إلى الخدمة تحمل اسمي، بعد خمسين عاماً من قيامي بالمساعدة في تطوير أول السفن النووية. في ذلك الوقت كان يجب استبدال قلوب المفاعل في غضون ثلاثة أعوام، ولكن قضبان الوقود في الغواصة الجديدة سوف تدوم لمدة خمسة وثلاثين عاماً على الأقل، أو لمدة حياة السفينة كاملة.

إن أمريكا هي الملوِّث الأول للعالم إلى حد بعيد. وإن تخلي حكومتنا عن مسؤولياتها هو خطوة مأساوية أخرى أيضاً في سلسلة من الأعمال التي ابتعدت عن الحماية التاريخية التي أجمع عليها الحزبان للبيئية الكونية. إن قيامنا المناسب بعالم الله هو التزام أخلاقي شخصي وسياسي.

* *

الفصل السادس عشر

أكبر تحد للعالم
في الألفية الجديدة

هناك عهد ديني غامر، يتجاهله الأصوليون في الغالب، وهو تخفيف البلوى عن أولئك الذين يعيشون في عوز. ويروي جيم ووليس، محرر مجلة سوجورنرز (قصيرو الإقامة)، أنه قام هو ومجموعة من الطلاب الآخرين في كلية لاهوت بالبحث في الإنجيل ليجدوا كل آية أشارت إلى الثروة والفقر. وتأثروا حين اكتشفوا أن آية من كل ست عشرة آية في العهد الجديد، وآية من كل عشر آيات في الأناجيل الثلاثة، وآية من كل سبع آيات في إنجيل لوقا أشارت إلى المال أو إلى الفقراء. وفي الكتب العبرية المقدسة، لم تذكر إلا الوثنية فقط مرات أكثر من العلاقة بين الأغنياء وبين الفقراء.

ونحن حين نتلو صلاة الرب ونصلي من أجل مملكة الله لتنزل على الأرض، فنحن نطلب نهاية للظلم السياسي والاقتصادي داخل أنظمة الحكم الدنيوية. وفي الحقيقة، فإن كل أنواع الإيمان الديني الكبيرة شكلتها عهود نبوية للقيام بالعدل، وحب الرحمة، وحماية الأرامل واليتامى والعناية بهم، والاقتداء برحمة الله للفقراء وأهل الابتلاء. ومن الواضح أن المعاملة الملائمة للفقراء يجب أن تكون ذات أسبقية عالية للغاية في صفوف أولئك الذين يشكلون السياسات الأمريكية. وفي الحقيقة، فإن هذا المعيار قد يكون هو القابل غاية القابلية

للقياس الدقيق، لكي يمكن عمل المقارنة المباشرة بين أولئك الذين يتظاهرون بأنهم يتبنون القيم الأخلاقية الأساسية لأمتنا.

وكنت قد دعيت، مع اقتراب عام 2000، لأتحدث في منتدى كبير وطلب مني أن أعالج هذه المسألة: "ما هو أكبر تحد للعالم في الألفية الجديدة؟" وكانت مهمة مثيرة للاهتمام. وأجبت، بقليل من الشك، إن أكبر تحد نواجهه هو الصدع المتزايد بين الأغنياء والفقراء في سكان الأرض. فليس هناك عدم مساواة كبيرة بين الطرفين فقط، بل إن الفجوة بينهما تتوسع توسعاً مطرداً. ففي بداية القرن السابق، كانت البلاد العشرة التي تعتبر أغنى الأمم أثرى بتسع مرات من البلاد العشرة التي تعتبر أفقر الأمم. وفي عام 1960 كانت النسبة 30: 1 وفي بداية هذا القرن، كان متوسط الدخل للفرد في أغنى عشرين دول هو 27.591 دولارا، وكان في أفقر الدول 211 دولاراً، بنسبة 131: 1!

وإنه لمصدر فخر لنا أن تمتلك الأسرة المتوسطة في الولايات المتحدة دخلاً يصل إلى حوالي 55.000 دولار في السنة، ولكن يجب علينا أن نتذكر أن أكثر من نصف سكان العالم يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، وأن 1.2 بليون نسمة من الناس يجب عليهم أن يبقوا على قيد الحياة على نصف ذلك المبلغ. تخيلوا للحظة أننا نملك دولاراً واحداً فقط في اليوم، للطعام، وللمسكن، وللملابس. ولن يتبقى هناك، كما هو واضح، أي شيء للرعاية الصحية أو للتعليم، وسيكون من العسير علينا الاحتفاظ باحترام الذات أو بالأمل في مستقبل أكثر إشراقاً.

جميع قرائي الأمريكيين تقريباً وأسرتي الخاصة هم من بين أولئك الذين يمتلكون دخولاً كافية، ولكن قلة قليلة جداً منا أحاطوا علماً واطلعوا على أحوال

الفقراء. وفي أثناء العقدين السابقين، مثلنا زوجتي وأنا، مركز كارتر في زيارات إلى أكثر من 120 بلداً لكي نعرف من هي شعوب هذه البلاد؟ وما هي أفضل السبل من أجل الوفاء ببعض احتياجاتهم؟ ولدينا الآن برامج في 65 بلداً. وليس مثيراً للدهشة أن يكون 35 منها في جنوب الصحراء الإفريقية. ونحن نتذكر دائماً أن في الإعلان العام لحقوق الإنسان واحداً من الضمانات لجميع الأفراد، وهو مستوى كاف من المعيشة للصحة ولصلاح الحال للأفراد ولأسرهم.

في خطابي الذي ألقيته في بداية الألفية، لخصت بضعة مقترحات للوفاء بهذا المستوى من المعيشة، ومن جملتها زيادة مساعدة التطوير مع شروط أقل، والتسامح بالديون الأجنبية لأفقر الأمم في العالم. والبحث عن حلول سلمية حين يكون هناك تهديدات للسلام، والسعي إلى معرفة الفقراء، وإعطاء الشعب السلطة والمسؤولية عن قضاياه الخاصة، وتعزيز التعاون بين المانحين، والاعتراف بالأثر الحتمي للفقر المدقع على الحقوق الإنسانية، والعنف، وقابلية التأثر والتجنيد للقيام بالأعمال العنيفة.

وقد أظهرت برامج مركزنا أن الفقراء للغاية قد برهنوا، بالاستخدام الحكيم للموارد ولو كانت محدودة، على ذكاء يلفت الأنظار، وعلى تجديد، وفاعلية. يوجد 150 فقط من العاملين في مركز كارتر، وفي جملتهم العاملون في الحدائق وموظفو الاستقبال، إضافة إلى خبراء منتشرين في القرى الإفريقية، ولذلك فإن علينا أن نعتمد على الناس الآخرين لنضخم فاعلية عملنا. وبالنسبة إلى معظم المشاريع، أقوم أنا بالتفاوض مقدماً على عقد مع كبار القادة في البلاد. وهم يوافقون عادة على أن نقوم نحن بتقديم خبير أجنبي واحد. والمواطنون المحليون، الذين ندربهم، هم الذين يجب أن يؤدوا الواجبات الضرورية ويجب أن تدفع لهم حكوماتهم عن ذلك العمل. وقد وجدناهم مخلصين جداً وقديرين.

وفي تعليمنا للمزارعين الأفارقة أن ينتجوا حبوب طعام أكثر (وبالمقام الأول الذرة، أو الأرز، أو القمح، أو الدخن الهندي، أو الذرة الصغيرة الحب) كان مستوى مساهمتنا في العادة في كل بلد في أثناء مواسم الإنتاج العشرين الماضية، مقتصراً على حوالي ستين ألف أسرة. وكان ذلك في الغالب بتكلفة سنوية لا تزيد على 10دولارات للأسرة الواحدة. وكانوا يتعرفون على أفضل بذور متوافرة مناسبة لموقعهم على خطوط الطول والعرض، ثم يتعلمون كيف يزرعون في صفوف وفق خطوط المناسيب (الكنتورية)، وأن يسيطروا على الأعشاب الضارة، وأن يحصدوا في أفضل زمان، وأن يخزنوا المحصول الذي جمعوه، وأن يستخدموا ما يكفي من الأسمدة المخصبة لصيانة خصوبة التربة. ومع استمرارهم في استخدام الأدوات اليدوية البسيطة والعمل اليدوي، فهم قادرون مع ذلك على مضاعفة إنتاجهم مرتين أو ثلاث مرات.

وقررنا كذلك أن نساعد في استئصال مرض مقعد يدعى دودة غينيا (التنِّينات)، وقد أصاب الناس في كل التاريخ المسجل. فالفلاحون، الذين يعتمدون من أجل الحصول على مياه الشرب على البِرَك التي تمتلئ في موسم المطر، يرتشفون مع الماء بيض الدودة التي تنمو في الماء الراكد. وبعد عام، تنمو البيضة داخل الجسم لتصير دودة تصل إلى طول حوالي ثلاثين إنشاً. وتقوم بعدئذ بالوخز في الجهة الداخلية من الجلد، وتشكل تقرحاً واسعاً يدمر النسيج العضلي وتصيب المريض بالعجز من الألم الشديد. وتستغرق الدودة شهراً لتبرز، وتضع عدداً لا يحصى من البيض حين يخوض المريض في بركة ليحصل على المزيد من الماء أو لتخفيف آلامه.

ورأينا، روزالين وأنا، لأول مرة مصابي دودة غينيا في قرى صغيرة ومعزولة في غانا، وكان ثلثا الناس فيها مصابين بالديدان البارزة من أجسادهم. وبعضهم

لم يكن قادراً على أن يجر نفسه من كوخه إلى أرض القرية العامة ليشارك في تحيتنا. والحالة التي إن أنس لا أنساها كانت حالة فتاة شابة جميلة كانت الدودة تبرز من حلمة ثديها واكتُشفت فيها لاحقاً إحدى عشرة دودة أخرى تبرز من أماكن مختلفة من جسدها.

ووجدنا 3.5 مليون حالة من المرض في 23.000 الف قرية في الهند، وباكستان، واليمن، وثماني عشرة دولة في جنوب الصحراء الإفريقية، وبدأنا الواجب البطيء المنهجي في تعليم الناس في كل قرية مصابة الخطوات الضرورية لحماية أنفسهم. فقد كانوا يستطيعون تنقية كل شربة ماء (من خلال قماش خاص قدمته شركة ديو بونت) واستئصال البيض من بركهم الراكدة بالمبيد الحشري، أو بتأمين الماء من بئر عميقة. فإذا قام كل قروي بفعل ذلك لمدة عام وبقي الناس المصابون بعيدين عن مصادر الماء، فإن البرك لن تتلقى بعد ذلك أي بيض جديد ولن تحضن المرض، وتتكسر بذلك دورة المرض انكساراً دائماً. وكانت نتيجة التزام الناس رائعة على نطاق واسع، ولم يبق الآن إلا نصف من 1 بالمائة من الحالات التي كانت موجودة، ونحن الآن قادرون على أن نركز على الحالات المتبقية في قرى مصابة قليلة فقط.

وقام مركز كارتر، لمنع فقدان البصر بسبب عمى النهر(داء كُلَّابِيَّات الذَّنَب)، بمعالجة أكثر من 10 ملايين نسمة من الناس في إفريقية وفي امريكا اللاتينية في اثناء عام 2004 بدواء مجاني قدمته لنا شركة ميرك وشركاه. ومع أن المشكلة في إفريقية كانت أعمق تمكُّناً بكثير وأشد إلحاحاً منها في مواقع أخرى، إضافة إلى قيام الحاجة إلى جرعات سنوية متكررة، فقد وجدنا أن معالجتين في كل عام تعطيان لأكثر من 85 بالمائة من السكان المصابين كانتا ستستأصلان

المرض استئصالاً كاملاً من ذلك القسم من العالم. وهذه غاية نتوقع أن نصل إليها في عام 2007.

ومن بين المشاريع الصحية الأخرى التي يقوم بها مركز كارتر، مشروع السيطرة على التهاب الملتحمة في العين (التراخوما) وهي تثير اهتماماً خاصاً. فهذا المرض عدوى تسببه العين الوسخة، وهو السبب الأول للعمى الذي يمكن منع حدوثه. وحين نظرنا في البداية من مسافة إلى أطفال قرية قبائل ماساي أو دنكا ظننا أن الأطفال في هذه القرية كانوا يضعون نظارات على عيونهم، ولكن مع الاقتراب منهم أدركنا أن الذي على عيونهم كان حلقات من الذباب الأسود الذي يحيط عيونهم بشكل دائم تقريباً للحصول على الرطوبة، وحين يصاب الجفن العلوي من العين بالتهاب الملتحمة فإنه يدور إلى داخل العين وتضرب أهداب العين بالقرنية وتجرحها كلما طرفت العين، وهو ما يسبب العمى. وكنتُ قد عرفتُ حالات قليلة من هذا المرض حين كنت طفلاً في جورجيا الجنوبية الغربية، حين كانت قلة قليلة جداً من جيراننا الفقراء المعدمين تنعم بوجود كنيف (مرحاض) خارج البيت مثل الذي كنا نمتلكه في الفناء الخلفي من بيتنا، وكان الذباب كثيراً.

وقدمنا أقراصاً من المضاد الحيوي (وفرته شركة بفايزر)، وتعليماً عن تغسيل الوجه وكيفية إجراء جراحة بسيطة للجفون، ونصائح بشأن نظافة القرية لتقليل غيمة الذباب. وكانت العادة المعتادة هي أن يبول الناس ويتغوطوا على الأرض القريبة من بيوتهم وحولها، مثلما كان ذلك يتم في بقية أنحاء العالم في السنين الخوالي. ومنذ ثلاث سنوات فقط، بدأنا نعلم القرويين كيف يحفرون حفرة في الأرض، ويضعون حولها آجراً من الطين أو حلقة من الإسمنت، ويبنون حولها أي نوع من الستارة.

وقد أخذتنا الدهشة من استجابة الناس لهذه الكنف الجديدة. وخصوصاً في إثيوبيا، وذلك حين علمنا أن الاندفاع الرئيسي للبناء جاء من النساء. والسبب في ذلك هو أن الرجال كانوا يقضون حاجتهم عادة في أي وقت من النهار وبشكل علني، وأما بالنسبة إلى النساء فقد كان هذا الامتياز نفسه ممنوعاً عليهن إلا في الليل. وقد دبت الحياة الآن في تحرير النساء، وتم بناء 89.500 كنيف في منطقة واحدة من إثيوبيا في أثناء هذه الفترة القصيرة من الزمن!

والغرض من هذه الحكايات هو أن نشدد على الحاجات الإنسانية العميقة التي توجد لدى الفقراء المعدمين من الناس، وعلى حماستهم واستجاباتهم الفعالة حين يعطيهم (الأغنياء) فرصة متواضعة لتحسين حياتهم.

إن مجتمعنا كله يسير نحو الانقسام بشكل متزايد، لا بين الأبيض والأسود بالضرورة، أو الهسباني، بل هو في المقام الأول انقسام بين الأغنياء والفقراء. وكثيرون منا لا يعرفون ولو شخصاً فقيراً واحداً. وإذا كان لدينا خادمة أو عامل في ساحة الدار، فليس من المحتمل أن نذهب إلى بيتهم ونتناول فنجاناً من القهوة في مطبخهم او ان نعرف اسماء ابنائهم دون العشرين. او، لا قدر الله، ندعوهم ليأتوا إلى بيتنا او ناخذ أطفالهم إلى لعبة بيسبول مع اطفالنا. والذين منّا يقبلون المسيح مخلصاً يشمل الجميع هم أيضاً ميالون ميلاً شديداً إلى العيش حياة منفصلة ويتجنبون إقامة علاقات شخصية متماسكة مع جيرانهم. وكنا، روزالين وانا، متاثرين تأثراً شديداً متساوياً بهذا الإخفاق.

كانت إحدى الطرق الطبيعية للغاية في الوصول إلى الناس المعوزين هي التي أتت من خلال مؤسسة بيت للإنسانية، وهي تقع قيادتها على بعد عشرة أميال فقط من بيتنا. وقد صارت هذه مظهراً معروفاً معرفة جيدة مثيرة للدهشة في

سنواتنا بعد البيت الأبيض، مع أننا كنا نرسل فقط بعض الرسائل لجمع التمويل ونقود مجموعة من المتطوعين لمدة أسبوع واحد في كل عام لبناء البيوت في مكان ما من العالم. لقد فعلنا هذا طوال أكثر من عشرين عاماً في المناطق المعزولة (غيتو)، وفي المدن الريفية، وفي الأرض المخصصة للأمريكيين الأصليين في الولايات المتحدة، وكذلك في المكسيك، وكندا، وكوريا، والفلبين، وهنجاريا، وجنوب إفريقية. ونحن نخطط لبناء بيوت في الهند في عام 2006.

ونحن نعمل جنباً إلى جنب مع العائلات الفقيرة التي ستكون قادرة على امتلاك بيوتها لأن (مؤسسة بيت للإنسانية) تتبع تعاليم الإنجيل في تحريم أخذ الفوائد الربوية. وكانت هذه فرصة، ممتعة وتسر القلب بالنسبة إلينا وإلى كثيرين غيرنا، لكي نضع إيماننا الديني موضع ممارسة عملية، وهي تُظهر إظهاراً حياً أيضاً أهمية الوصول إلى الناس المعوزين وصعوبة ذلك.

وأتذكر دائماً صورة مرسومة في واحدة من صحف "أخبار بيت للإنسانية". وهي صورة لمنظر عمومي شامل لقرية، ربما كانت قد أخذت من طائرة تطير فوق المنطقة. بعض الناس يلعبون التنس، وبعضهم يركبون الدراجات، وآخرون في السيارات، أو يعلمون في المدارس، وربما كان بعضهم الآخر يحرث بالجرارات، وكلهم توجد فوق رؤوسهم فقاعات، وعليها السؤال: "ماذا يستطيع شخص واحد فقط أن يفعل"؟ وحين نتعاون نستطيع أن نُشكِّل، من الإسهامات الفردية الصغيرة من العناية، والصداقة، والتسامح، والحب، وكل منا مختلف عن جاره القريب، فيلقاً، لا بل جيشاً يمتلك قدر ة كبيرة.

ومع كل النوايا الطيبة والكرم الموجود في صفوف المواطنين الأمريكيين، فإن كمية المساعدة الأجنبية التي تذهب من حكومتنا إلى الفقراء ما تزال ضئيلة

ضـالة تثير الإحـراج. والكثيـر من العـون الأجنبي من حكومـتنا يذهب، كـمـا هـو مـتـوقـع، إلى الأمم الصـديقـة وإلى الحلفـاء العـسكريين. وتقـوم واشنطـن كـذلك بتحديد أنواع كثيـرة أخرى من المسـاعدة بكل أنـواع القيـود السيـاسيـة. وإنه لأمـر مؤلم للنفس أن نرى أمتـنا العظيمـة تتخلف وتقـصـر في التـزامـهـا في المشـاركة بنصيب محترم من ثروتنا مع المعدمين للغاية من سكان الأرض.

ومنذ نهاية الحرب الباردة، حين كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يتنافسـان لتقـديم المعونة إلى أفقـر الأمم في العـالم لحثهـا على الانضـمـام إلى المدارات السياسية والعسكرية لكل منا حصرياً، كانت بلادة الإحساس نحو هذه الحاجات الإنسانية فشلاً يجمع عليه الحزبان..

في شـهـر آذار/مـارس 2002 مـثلت مـركـز كـارتـر في مـؤتمر دولـي في مونتيرري، في المكسيك، عقدته الأمم المتحدة لمعالجة المشكلات المتصلة بالفقر الشـديد ووفـيـات الأطفـال. وشـارك في المؤتمر عـدد كـبـيـر من كـبـار القـادة السياسيين شخصياً، ومنهم رئيس الولايات المتحدة، وتعهدوا بتقديم زيادة كبيرة في الأرصدة اللازمة لمواجهة "تحدي الألفية". وكثيرون منا اهتزوا فرحاً من هذه الالتزامات، ولكن هناك إحساس بخيبة الأمل الآن بأداء أمريكا.

مشاركة الثروة مع أولئك الذين يتضورون جوعاً ويعانون معاناة لا ضرورة لها هي قيمة تقاس بها القيم الأخلاقية للأمة. وهناك موقف غريب ومثير للإزعاج نوعـاً مـا في بلادنا. فالأمـريكيـون راغـبـون في أن يكونوا كـرمـاء في مـسـاعـدة الآخرين، وهم يعتقدون أن حكومتنا تعطي ما يصل إلى 15 بالمائة من ميزانيتنا الفيدراليـة في شكل إعانة أجنبيـة. ولكننا، في الحقيقـة، أبخل أمـة من الأمم الصناعية كلها. إننا نخصص حوالي واحد من ثلاثين من القَدْرِ الذي يعتقد أنه

مخصص عموماً. ودخلنا القومي الإجمالي هو حوالي 11 تريليون دولار. ونتقاسم منها مع الأمم الفقيرة ستة عشر سنتاً من كل 100 دولار من الدخل القومي.

وحين يُواجه الكثيرون من الأمريكيين المطلعين اطلاعاً حسناً بهذه الحقائق المحرجة يجيبون بأننا كرماء تماماً في الاستجابة للكوارث، من مثل ما جرى حديثاً من اضرار في آسيا من الأمواج البحرية الزلزالية البركانية (تسونامي). وهذا صحيح، وهي خاصية مثيرة للإعجاب في مواطنينا. ولكن معظم الناس لا يدركون أن التعامل مع المعاناة الدائمة هو على المستوى نفسه من الأهمية التي نواجه بها الكوارث. كانت هناك حوالي 200.000 وفاة في إحدى عشرة أمة ضربتها موجة المد، ولكن هناك 165.000 يموتون من الملاريا، و140.000 يموتون من الإسهال، و240.000 يموتون من الإيدز في كل شهر! إن حوالي 2.5 دولار من كل مواطن امريكي واوروبي في العام تستطيع أن تشن حرباً كونية فعالة ضد الملاريا.

وهذه الأرقام المنخفضة المثيرة للإزعاج حول العون الأجنبي هي أيضاً أرقام مضللة، لأنها تتضمن المساعدة الخاصة المقدمة إلى البلاد "الإستراتيجية" (والكثير منها متوسطة الدخل ولكنها تعتبر من الشركاء السياسيين القيمين). ونصيب جيد من عوننا الأجنبي هو من فائض الحبوب التي لا يمكن أن تباع في الولايات المتحدة. (وحوالي نصف تكاليف هذه الحبوب الغذائية هي من أجل النقل). لا بل إن النزر اليسير المتبقي من المال لمثل هذه البرامج مثل التعليم، أو الصحة، أو الإسكان، أو النظافة العامة نادراً ما يذهب إلى السكان المحليين أنفسهم، ولكنه يذهب في معظمه إلى المستشارين الأمريكيين الذين عينوا أنفسهم في الأمم المحتاجة.

في شهر حزيران/يونيو 2005، اعلن الرئيس بوش خطة لتقديم 1.2 بليون دولار من أجل حملة تدوم خمس سنوات لمكافحة الملاريا في خمسة عشر بلداً يسكنها 175 مليون نسمة معرضين للخطر. وسيكون هذا إسهاماً كبيراً، إذا تم الوفاء بالوعد. إن ادعاءات الكرم شائعة كثيراً على مستوى الوطن وفي الخارج معاً، ولكن معظم الالتزامات السابقة تخلى عنها البيت الأبيض، أو قطعها مجلس الشيوخ، أو تعثرت ووقفت في التعقيدات الإدارية، وهذا ما جعل القليل من المساندة هي التي تصل فعلاً إلى الناس المحتاجين.

وبعد مؤتمر مونتيرري في عام 2002 مباشرة، أعلن الرئيس جورج دبليو. بوش رصيداً للوفاء بالتزام تحدي الألفية بقيمة 5 بلايين سنوياً من أجل معونة التطوير. ولكن بعد ثلاث سنوات لاحقة كان مبلغ 400.000 دولار فقط هو الذي وزع (وهو اقل من 1 بالمائة) فعلاً. والمثال الآخر هو الإعلان الرسمي من واشنطن عن واحد من إنجازاتها المهمة للغاية: وهو أن اكثر من إحدى واربعين الف ضحية للإيدز في بوتسوانا قد تلقوا علاجات تمد بأعمارهم من الولايات المتحدة. وكان كبار المديرين في برنامج العلاج في بوتسوانا غاضبين جداً، وأعلنوا أن اي نقود أمريكية لم تصل وقالوا عن المزاعم الأمريكية إنها كاذبة. وتمويه فاحش للحقائق. والرقم الأدق عن عدد المرضى في بوتسوانا الذين وضعوا على قائمة العلاج بفضل المساعدة الامريكية هو صفر.

إن ميزانية الولايات المتحدة السنوية للعون الخارجي من أجل مكافحة الملاريا كانت، على سبيل المثال، 90 مليون دولار. ولكن 95 بالمائة من هذا المال يجري صرفه على المستشارين واقل من 5 بالمائة يجري صرفها على الناموسيات، والأدوية، ورش المبيدات الحشرية لمكافحة المرض. وقد شكا عضو مجلس الشيوخ

سام براونباك، وهو محافظ جمهوري من كنساس، من هذه السياسة. وقدم مشروع قانون لإرغام الإدارة على صرف نصف ميزانيتها لمكافحة الملاريا على المعالجة. وأشار براونباك إلى أن قائمة الحكومة من المقاولين، الموجودة على موقعها في الشبكة العالمية للمعلومات لم تتجدد طوال أربع سنوات. وقال عضو مجلس الشيوخ إنه تلقى "وصفاً غامضاً وحساباً لا يجتمع" فقط، وطالب بتدقيق حسابات مالية يقوم به مكتب محاسبة الحكومة.

وطبقاً لما يقوله جيفري ساخس، مدير مشروع الألفية في الأمم المتحدة، والذي أنشئ من أجل تنفيذ الوعود التي أعطيت في مونتررري، فإن العون الأمريكي السنوي لإفريقية جنوب الصحراء كان حوالي 3 بلايين دولار في عام 2003، ومنه" 118 مليون دولار فقط تركت للولايات المتحدة للعمليات داخل البلاد وللدعم المباشر للبرنامج الذي تديره الحكومات الإفريقية والمجتمعات الإفريقية، و18 سنتاً فقط لكل واحد من 650 مليون نسمة في أمم منخفضة الدخل، من أجل الاستثمارات في الصحة، والتعليم، والطرق، والطاقة، والماء والنظافة العامة والمؤسسات الديمقراطية في المنطقة".

قدَّر مشروع الألفية أن الأرصدة اللازمة للوفاء بالالتزامات للناس المحتاجين ستبلغ أربعة وأربعين سنتاً في كل 100 دولار من الدخل القومي الإجمالي في عام 2006 وتزداد لتصل إلى حوالي سبعين سنتاً في عام 2015. ولوضع هذا في منظور، فإن الزيادة في الصرف الدفاعي منذ عام 2001 فقط كانت 1.70 دولار في كل 100 دولار من الدخل القومي الإجمالي، في حين أن تخفيضات الضريبة (ومعظمها للأمريكيين الأغنياء) قد وصلت إلى 3.30 دولار في كل 100دولار من الدخل القومي الإجمالي.

أما الدول الكريمة دائماً وهي بلجيكا، والسويد، والبلاد المنخفضة، واللوكسمبورغ، والدنمارك، والنرويج فقد تجاوزت الرقم المتوقع عام 2015، ووافقت إيطاليا، وفرنسا، والمانيا، وإنجلترا، على الوفاء بالهدف نفسه. ولا مناص من أن يتضح فشلنا في الوفاء بالمسؤوليات وضوحاً متزايداً للناس في الأمم الأخرى، ويتوقع لهذه الاختلافات أن تصير معلنة أكثر فأكثر، بل ربما تصير مصدراً للنقد أو الإدانة في الأعوام القادمة، وذلك بدلاً من تصوير أمريكا بوصفها أمة قوية تمتلك قيماً أخلاقياً قوية. وفي المدة الحديثة القريبة، التحقت حكومتنا مع الأمم الأخرى في الإعلان عن التسامح بالدَّين الطويل الأمد، ولكنها سوف توازن حصتها من هذه التكلفة بقطع المعونة الأخرى. وليس هناك أدنى شك في أن شعب بلادنا، مع القيادة القوية من واشنطن، سوف يستجيب بكرم أكبر.

إن الاختلاف المتنامي تنامياً حاداً بين المعاملة النسبية من حكومتنا للأغنياء وللفقراء في بلادنا الخاصة بنا هو اختلاف ظاهر ظهورا أكبر للمواطنين الأمريكيين. فأمتنا قد صار فيها اختلاف واسع للغاية في الدخل، وهذا التفاوت ينمو نمواً سريعاً. وأحد المؤشرات على هذا التفاوت هو الفجوة الموجودة في معدل الدخول بين الخُمْس الأعلى والخُمْس الأدنى من سكان الأمة، وهو معدل يبلغ أربعة لواحد في اليابان، وسبعة لواحد في فرنسا، وأحد عشر لواحد في الولايات المتحدة. وإضافة إلى ذلك، فإن كل قرار اتخذ في واشنطن تقريباً منذ عام 2000 كان يحابي الأثرياء، وكان ذلك في الغالب على حساب الأسر العاملة من الطبقة الوسطى ومن المعوزين، وكان التشريع الأساسي في الضرائب وفي المصروفات مصمماً لإدامة هذه الاتجاهات. ومع افتراض أن الحاجات الأمنية وبرامج الخدمات المستحقة سوف يتوجب أن تبقى ممولة، فإن عجوزاتنا المالية

غير المسبوقة تعني أنه سيكون هناك أرصدة أقل من أجل إدامة، وأقل من ذلك من أجل زيادة، المستويات الموجودة من أجل الصحة، أو التعليم، أو الرفاهية، أو الإسكان، أو الجودة البيئية، أو فتح وظائف.

ما حدث منذ عام 2000 لا يكاد يصدق تقريباً. ففي ذلك الوقت، خطط مكتب الميزانية في مجلس الشيوخ لفائض قدره 281 بليون دولار في عام 2001، ولتراكم من 506 تريليونات دولار اخرى في غضون السنوات العشر القادمة. وبدلاً من ذلك، سيكون العجز الفيدرالي تقريباً 400 بليون دولار في عام 2005، مع بقاء الصرف في حول المستوى نفسه ولكن مع تخفيضات غير عادية للعائد بسبب سلسلة تخفيضات ضخمة في الضرائب من أجل الأمريكيين الأثرياء. وتشير التوقعات إلى أن هذا المستوى من الصرف مع العجز المالي سوف يستمر. وزاد الدين القومي من تريليون واحد من الدولارات إلى 4 تريليونات من الدولارات في أثناء السنوات الاثنتي عشرة من إدارتي ريغان - بوش، ومنذ عام 2001 كان على مجلس الشيوخ أن يزيد سقف الدين إلى 8 تريليونات من الدولارات، وهو يتجه في سنوات أربع قادمة نحو اكثر من 10 تريليونات من الدولارات!

وكان هذا المدخل المالي، والذي سوف يعتصر البرامج المحلية، هدفاً مفهوماً فهماً حسناً لبعض المؤمنين الحقيقيين المحافظين منذ بدء برامج الأمن الاجتماعي، والمعونة الطبية، والرعاية الطبية، والإعانة الأولية للمحرومين، والبرامج الإنسانية الأخرى تحت حكم فرانكلين روزفلت، وهاري ترومان، وليندون جونسون. وكانت ضريبة الميراث في الأصل قد بدأ بها الرئيس الجمهوري ثيودور روزفلت، وهي الآن هدف إضافي للاستئصال. وهو تخفيض ضخم آخر في عبء الضريبة من أجل أغنى العائلات في أمريكا.

العجوزات المالية غير العادية لم تسببها زيادات الصرف في الوطن أو في الخارج. ففي عام 1962، بلغ الصرف الفيدرالي 19 بالمائة تماماً من مخرجاتنا الاقتصادية، وكانت في الغالب فوق 20 بالمائة في أوقات مختلفة. والآن، ما تزال المصروفات 20 بالمائة فقط، مع أنها تشتمل على المصروفات الضخمة من أجل الحرب العراقية والدفاع عن أرض الوطن. المشكلة هي أن التخفيضات الحديثة في الضريبة قد خفضت العوائد الفيدرالية إلى 16 بالمائة فقط، وهي إلى حد بعيد في أخفض مستوى لها في التاريخ الحديث. والفرق بين هذين الرقمين يشير إلى ضخامة العجز المالي.

بموجب تخفيضات الضرائب التي دُفعت وتلاحقت من خلال مجلس الشيوخ منذ عام 2000، وفي مقابل كل دولار في التخفيض تم من أجل عائلة من طبقة وسطى، فإن العائلات العليا التي تمثل 1 بالمائة سوف تستلم 54 دولاراً. وأولئك الذين يملكون مليوناً واحداً من الدولارات أو أكثر في الدخل سوف يستفيدون بمبلغ 191 دولار! وفي أثناء السنوات الثلاث الأولى، زاد عدد الأمريكيين الذين يعيشون في فقر بمقدار 3.5 مليون نسمة، في حين أن الدخل لأغنى أربعمائة أمريكي قفز بنسبة 10 بالمائة في عام 2002 فقط. ومؤشر آخر على تنامي الانقسام بين الأغنياء وبين الفقراء في الأعوام الحديثة القريبة هو أن رواتب الموظفين التنفيذيين الرئيسيين في الشركات قد ارتفعت من أربعين ضعفاً بالنسبة إلى متوسط راتب العامل إلى أربعمائة ضعف. وبالرغم من وجود نمو قوي في أرباح الشركات، فإن أجور العامل المتوسط نزلت في عام 2004، وبعد تسويته بالنسبة إلى التضخم، يكون أول هبوط مثل هذا في عدة سنوات.

وبالإضافة إلى هذه التغيرات الجذرية في داخل اقتصادنا المحلي، فقد أثار دَيننا الدولي المتراكم بسرعة مخاوف جادة في صفوف الخبراء الماليين المستقلين.

فما يدين به الأمريكيون للأجانب عال للغاية. ويتوقع أن يتضاعف في غضون أربع سنوات أو خمس. في شهر آذار/ مارس 2005، نص التقرير السنوي من وارن بيوفيت[28] مدير شركة بيركشاير هاثاواي على ما يلي: "الملكية الصافية من الولايات المتحدة التي تملكها الدول الأخرى ومواطنوها بعد عقد من الآن سوف يبلغ تقريباً 11 تريليون دولار (ويساوي تقريباً دخلنا القومي الإجمالي الحالي) (...) إن بلداً يطمح الآن إلى (مجتمع ملكية) لن يجد السعادة، وأنا سأستخدم المجاز هنا للتأكيد، في (مجتمع المزارعة). ولكن ذلك هو بدقة الوجهة التي تأخذنا إليها سياساتنا التجارية، المدعومة من الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء".

وبالتلازم مع الفلسفة الاقتصادية الكلية، صارت رغبة وول ستريت في استثمارات أرصدة التأمين الاجتماعي في سوق الأوراق المالية غاية كبيرة لكبار القادة السياسيين، ولكن المواطنين الأمريكيين رفضوا حملة على نطاق قومي من الرئيس وأجبروا مجلس الشيوخ، حتى الآن على الأقل، على التخلي عن هذا الاقتراح.

ولزيادة تعزيز امتياز الشركات، فإن فاتورة الدواء من الرعاية الصحية في عام 2003 تمنع الحكومة الأمريكية من التفاوض من أجل الحصول على أخفض أسعار للدواء، وتستطيع الشركات الصيدلانية أن تستمر في تحميل حساب الزبائن الأمريكيين أكثر بكثير من زبائنها في كندا وفي البلدان الأخرى. ويقول مكتب الميزانية في مجلس الشيوخ إن أسعار الدواء الأجنبي تراوح بين 35 بالمائة و55 بالمائة تحت مستويات أسعار الولايات المتحدة. وإدارة شؤون المحاربين القدماء، وهي غير مشمولة بهذا الشرط الخاص، تفاوض على حسومات تصل

إلى نسبة 50 بالمائة او اكثر. وبهذا كان يمكن لفاتورة مسؤولة أن تعطي غطاء مضاعفاً مقابل السعر نفسه.

من الواضح أن الإسهامات السياسية وجماعات الضغط الفعالة تدفع عوائد ثرية، مثلما استبان استبانة حية من صناعة التبغ. ويتفاقم هذا بالنسبة إلي على نحو خاص لأن ابي، وامي، واختيَّ كلتيهما، واخي الوحيد ماتوا جميعاً بالسرطان بعد أن صاروا جميعهم مدمنين على تدخين التبغ. وحدث بعض التقدم في السنوات القريبة في الطلب من الصانعين لهذا المنتج القاتل أن يعوضوا ضحاياهم وأن يقدموا تمويلاً من أجل التثقيف الصحي (والكثير منه استخدم لأغراض اخرى لا علاقة لها بالموضوع). وفي الوقت نفسه، كسبت شركات التبغ أهم معركة وذلك بإعاقة اي تنظيم فيدرالي فعال للمواد المسرطنة في منتجات هذه الشركات التي يعلن عنها إعلاناً شديداً.

ومع ذلك فقد اندهش المديرون التنفيذيون لشركات التبغ في شهر حزيران/يونيو 2005، حين أهملت وزارة العدل الأمريكية وهي سياسية للغاية جهود الحكومة التي بذلتها طوال ست سنوات لإجبار الصناعة على تمويل الجهود الداعية إلى التوقف عن التدخين. وبعد صرف أكثر من 100 مليون دولار على القضية القانونية وعلى تقديم شهادة الخبرة على أن مبلغ 130 بليون دولار سيكون مطلوباً طوال مدة السنوات الخمس والعشرين القادمة، كان هناك إعلان مقتضب في الدقيقة الأخيرة بأن الطلب سيخفض إلى 10 بلايين فقط في السنوات الخمس القادمة. وعبَّر القاضي الفيدرالي المترئس عن شكه بشأن العوامل السياسية المنطوية ضمناً في هذه الخيانة التي لا يمكن تفسيرها لصالح صناعة التبغ.

وعلى الرغم من الاهتمام الملح من أجل الأمريكيين العاملين والملكية الخاصة في الوطن، فإن القادة السياسيين الرئيسيين في واشنطن قد أعاقوا بنجاح أي زيادة في الحد الأدنى للأجور، وهو الحد الذي ثُبّت عند 5.15 دولار لكل ساعة طوال ثمانية أعوام ولم يجعل له دليل مؤشر ليتلاءم مع التضخم. (وبالمقارنة، بالدولارات الأمريكية وبالاستناد إلى قيمة النقد في شهر نيسان /إبريل 2005، كان الحد الأدنى للأجور في استراليا 8.66 دولار، وفي فرنسا 8.88 دولار، وفي إيطاليا 9.18 دولار، وفي انجلترا 9.20 دولار، وفي ألمانيا 12.74دولار).

وبافتراض خمسين أسبوعاً بمعدل أربعين ساعة أسبوعياً، فإن هذا يضع الحد الأدنى للدخل السنوي في الولايات المتحدة عند مبلغ 10.300 دولار، تحت خط الفقر، لعشرات الملايين من الأمريكيين الذي يعملون أعمالاً بكامل الدوام. وخط الفقر الرسمي في عام 2004 لأب او لأم مع طفل واحد كان عند مستوى 12.490 دولاراً في الولايات المتحدة القارية، وعند مستوى 14.360 دولاراً في هاواي،وعند مستوى 15.610 دولارات في الاسكا. فليس مثيراً للاستغراب أن أفقر الناس من شعبنا يعانون وأن المواطنين الأمريكيين عند كل المستويات من الدخل يحصلون الآن على نسبة مئوية من العدل في بيوتهم أخفض من أي وقت في التاريخ.

ومثال آخر فاضح عن إعانة الأثرياء يتصل بمهنة عمري الخاصة وهي الفلاحة. وقد كانت الإعانات الزراعية عاملاً حاسماً في بقاء العديد من العائلات المزارعة في أثناء الكساد الكبير. وكانت الإعانات مصممة لتحقيق ذلك الغرض على وجه الخصوص. وهذه الأنواع من الإعانات ما تزال مبررة، ولكن، ربما ليس مثيراً للعجب، أن المزارعين الأغنياء قد حصدوا إعانات حكومية

فيدرالية أكثر على مر السنين، في حين أن العائلات الفقيرة لم تكن قادرة على المنافسة في واشنطن. وفي أثناء العقد الزمني الأخير، كان علينا، نحن دافعي الضرائب، ان ندفع ما متوسطه 14 بليون دولار سنوياً للإعانات. ذهب منها 70 بالمائة إلى 10 بالمائة فقط من المزارعين. ونصف المعونة إلى 3 بالمائة هم الكبار في القمة، وربع المعونة إلى 1 بالمائة هم الكبار في القمة من المستلمين لها. و"المزارع" الأمريكي المحظوظ للغاية استلم 7 ملايين دولار في عام 2002. وفي جورجيا، استلم سبعة "مزارعين" إعانات سنوية من أكثر من 1 مليون دولار! شكراً لجماعات الضغط القوية. أما المثل الأعلى القيّم الذي يساعد العائلات المزارعة المكافحة للبقاء فقد تم التخلي عنه. وقدَّرت وزارة الزراعة الأمريكية، في تقرير نشر في شهر حزيران/يونيو عام 2005، ان اقل من 25 بالمائة من المزارع تتلقى دفعات دعم.

وعلاوة على هذا التفاوت الذي لا يصدق، فإن الإعانات الأمريكية في البلاد النامية مدمرة. والمثال النموذجي في مالي، حيث كان لمركز كارتر مشروع كبير لمساعدة التطور الاقتصادي فيها. إن ثلاثة أرباع الماليين يعيشون على اقل من دولار واحد في اليوم، و90 بالمائة على اقل من 2 دولارين. والربع من سكانها البالغ عددهم 12 مليون نسمة يعتمدون مباشرة على القطن من أجل معيشتهم، والأسر المحظوظة حظاً كافياً ليجعلها تمتلك المتوسط القومي للملكية المكون من خمسة فدادين يكسبون دخلاً من 280 دولاراً في السنة. والعائق الرئيسي أمام تحسين حياتهم هو المساعدات التي تقدمها بلادنا للقطن، والتي تهبط في بعض السنوات بالسعر العالمي للقطن إلى ما تحت تكلفة الإنتاج في مالي. ولنضع هذا في منظور، فإن دفعات الإعانة الأمريكية لمزارعي القطن في بلادنا هي أكبر من إجمالي الدخل القومي في دولة مالي، وهي ضعف كل مبالغ المساعدة الأمريكية

التطويرية لإفريقية جنوب الصحراء. وقد قضت منظمة التجارة العالمية أن مساعداتنا للقطن هي غير قانونية، ولهذا فإن هذا البرنامج الخيري، وفي المقام الأول للمزارعين الأثرياء، قد يتوجب علينا أن نصلحه.

ليس من السهل أن نشرح هذه الأنواع من الخطط السياسية والاقتصادية الأصولية أو أن نصدقها، وهي هجوم مباشر على القيم الأخلاقية الأمريكية، في كل من المجالين السياسي والديني من الحياة.

* *

الفصل السابع عشر

خاتمة:

ما القوة الكبرى؟

كنا، نحن الأمريكيين، فخورين ببلادنا فخراً له ما يبرره، ابتداء بإعلان الاستقلال الشجاع من آبائنا وإعلانهم "أن كل الناس خلقوا متساوين، وأن خالقهم وهبهم حقوقاً غير قابلة للنزع عنهم، وأن من بين هذه الحقوق حق الحياة، وحق الحرية، وحق البحث عن السعادة" . ومنذ ذلك الوقت، استغل شعبنا الموارد الطبيعية الكبيرة لأمريكا، والوصول إلى المحيطات الدافئة، والجيران الأصدقاء نسبياً، والسكان المتنوعين، والروح الريادية لتشكيل "اتحاد أكمل" .

والآن، صارت الولايات المتحدة، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ، القوة العسكرية المتفوقة على الأرض. وفي حين كان هناك اتجاه تنازلي حاد في النفقات المصروفة على الأسلحة في كل أنحاء العالم في أثناء السنوات العشرين الماضية، فإن الولايات المتحدة استمرت في زيادة ميزانيتها العسكرية في كل عام. وهذه الميزانية الآن تتجاوز 400 بليون دولار سنوياً، وهو ما يساوي مجموع الميزانيات العسكرية في سائر الدول الأخرى مجتمعة. وأضخم ميزانية عسكرية تالية هي ميزانية روسيا، وتساوي سدس الميزانية الأمريكية. وسباق التسلح الوحيد هو الذي نقوم به نحن مع أنفسنا. وأحد الأسباب لهذه النفقات الهائلة هو وجود عشرين ألف بحار وجندي مشاة بحرية منتشرين في سفن طافية.

ووجود ثلاثمائة الف تقريباً من القوات الإضافية متمركزة في أكثر من 120 بلداً. ووجود قواعد عسكرية في 63 بلداً منها. ومنذ أن غادرت المنصب، تدخل الرؤساء الأمريكيون حوالي خمسين مرة في البلاد الأجنبية. وإضافة إلى تزويد قواتنا العسكرية، يقوم صانعو الأسلحة الأمريكيون وصانعو الأسلحة لدى حلفائنا في حلف الأطلسي بتوفير 80 بالمائة من مبيعات الأسلحة في السوق الدولية.

إنه لأمر طيب أن نعلم أن دفاعات أمتنا ضد الهجوم التقليدي منيعة لا تخترق، وأن من المحتم أن تبقى أمريكا يقظة ضد التهديدات الموجهة لها من الإرهابيين. ولكن ومثلما هي الحال مع المخلوق البشري، فإن الخصائص الباعثة للإعجاب في الأمة لا يمكن تحديدها بالحجم وبالقوة المادية. ما هي بعض الصفات الأخرى المميزة للقوة الكبيرة؟ مرة أخرى، فإن هذه الصفات قد تعكس انعكاساً جيداً الصفات المميزة للإنسان. فهي قد تشمل التزاماً ظاهراً بالحقيقة، والعدل، والسلام، والحرية، والتواضع، وحقوق الإنسان، والكرم، وبتأييد القيم الأخلاقية الأخرى.

ليس هناك سبب جبلي لا تستطيع أمتنا من جرائه أن تكون المثال الدولي لهذه القيم. فحكومتنا يجب أن تكون معروفة، بدون تساؤل، بوصفها حكومة معارضة للحرب، ومكرّسة لحل النزاعات بالوسائل السلمية، وهي راغبة.. في استخدام قدرتنا ونفوذنا الهائلين لتحقيق هذه الغاية حين يكون ذلك مناسباً. ويجب أن نُرى بوصفنا حامي الحرية وحقوق الإنسان الذي لا ينثني عن ولائه، سواء بين مواطنينا أو في المجتمع الكوني. ويجب أن تكون أمريكا هي نقطة النشاط المركزية التي تستطيع أن تحتشد حولها الأمم الأخرى من كل الأنواع لتحارب التهديدات الموجهة للأمن ولتعمل على تعزيز جودة بيئتنا المشتركة.

ويجب أن نكون نحن في صدر المقدمة لتقديم المعونة الإنسانية للناس المعوزين. وأن نكون مستعدين لقيادة الأمم الصناعية الأخرى في تقاسم بعض ثروتنا الكبيرة مع البؤساء المعدمين.

ويجب على بلادنا العظيمة، وهي تحقق هذه الغايات كلها. أن تبذل المجهود في كل سبيل عملي للتعاون مع الأمم الأخرى، ومعظمها يشاطر في هذه المثل العليا الأساسية نفسها. هناك فرصة غير مسبوقة ونحن ندخل هذه الألفية الجديدة لاستخدام نفوذنا الذي لا يضاهى استخداماً حكيماً وبروح كريمة.

ولن يكون هناك أي تضحية حقيقية في تمثل هذه الصفات. بل إن صلاح أحوالنا سوف يتعزز باستعادتنا للثقة، وللإعجاب، وللصداقة التي كانت أمتنا تتمتع بها سابقاً بين الشعوب الأخرى. وفي الوقت نفسه، يستطيع الأمريكيون كلهم أن يتوحدوا في الوطن في التزام مشترك لإحياء، ولتنمية الإيمان الديني والقيم السياسية والأخلاقية التاريخية التي اعتنقناها والتي كافحنا من أجلها في اثناء 230 سنة مضت.

* *

شكر

لقد تشكلت معتقداتي بالخبرات الشخصية بصفتي مسيحياً معمدانياً، وضابطاً محترفاً في أسطول الولايات المتحدة، وبمسيرة قصيرة نسبياً في الوظيفة العامة.

وأنا معترف بالجميل وشاكر لوالدي، ولأساتذتي، وللمتدينين، وللعسكريين، وللقادة السياسيين الذين عرفوني بالقيم الأخلاقية الأساسية المعروضة في هذه المجالات الثلاثة من الحياة الأمريكية. وفوق كل شيء، أنا مدين لزوجتي روزالين، التي كانت أعظم نعمة لي وأبقاها في أثناء سنواتنا التسع والخمسين التي عشناها معاً.

وفي إعدادي لهذا النص، استقيت الكثير من الفائدة من المناقشات المكثفة في كنيسة مارانانا المعمدانية التي كانت تجري في أثناء دروس الإنجيل الأسبوعية في أيام الأحد، حين كان يتم مزج مفاهيم من النصوص المقدسة مع مفاهيم من الحياة المعاصرة. وأود هنا أن أعبر عن شكري لأعضاء جماعتنا من المصلين وللكثيرين من الزوار الذين يحضرون ليشاطرونا هذه الخبرات. وإضافة إلى ذلك، فإن زملاءنا في مركز كارتر قد زودوا روزالين وزودوني بعلاقات مستمرة قامت بيننا وبين العديد من الأمم حول العالم، ونحن نوحد القوى لتعزيز السلام، ولنخفف المعاناة، ولنقدم الأمل لبعض الشعوب التي تعتبر أكثر الشعوب بؤساً وتعرضاً للإهمال على ظهر البسيطة.

لقــد كــانت لورين غــاي صلة الوصل بيني وبين المحــررين والناشــرين في سايمون وشوستر، الذين قدموا لي عوناً ونصحاً وافرين في إنتاج هذا الكتاب. وكان للدكتور ستيف هوكمان الفضل في تدقيق صحة الحقائق التي وردت هنا، ولكن المسؤولية النهائية عن النص هي مسؤوليتي.

* *

عن المؤلف

ولد جيمي كارتر في بلينز، في جورجيا. وتولى منصب الرئيس التاسع والثلاثين للولايات المتحدة الأمريكية. وبعد أن تولى هذا المنصب، أسس، هو وزوجته روزالين، مركز كارتر، وهو منظمة غير ربحية تمنع النزاعات وتحلها، وتعزز الحرية، والديمقراطية. وتحسن الصحة حول العالم. وكارتر مؤلف لكتب عديدة، من جملتها: ساعة قبل نور النهار، وهو كتاب يعتبر "أثراً أمريكياً". ومنذ أن ترك الرئيس جيمي كارتر الرئاسة في عام 1981 نال جائزة نوبل للسلام من أجل عمله الإنساني في مركز كارتر.

* *

الإحالات

(1) تعبير مستعار من لعبة البيسبول (كرة القاعدة). وهو مقياس يقيس أداء الضارب ويكون الحصول عليه بتقسيم مجمل إصابات القاعدة على عدد مرات دور اللاعب في الضرب. (المترجم)

(2) عضو في الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية، وتتبع التقليد الإصلاحي في العبادة، وتؤمن بالحرية الفردية، وبفصل الكنيسة والدولة، والعماد الطوعي للمؤمنين الواعين.

(3) العماد: غسل الصبي النصراني بماء المعمودية. وماء المعمودية عند النصارى هو أن يغمس القس الطفل في ماء يتلو عليه بعض فِقَرٍ من الإنجيل، وهو آية التنصير عندهم (انظر مادة عمد في المعجم الوسيط).

(4) عضو في الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية التي تأسست على مبادئ جون وتشارلز ويزلي في انجلترا في مطلع القرن الثامن عشر، وتتميز بالاهتمام النشيط بالرفاه الاجتماعي والأخلاق العامة. وجاء اسم ميثوديين من كلمة (Method) ميثود لأن الأتباع يصرون على المنهج والإجراءات المنهجية.

(5) تدعو أن تكون للكنيسة حكومة من الأساقفة.

(6) ترى حكومة كهنوتية للكنيسة من كل الكهنة.

(7) كارل بارت (1886-1968) لاهوتي بروتستانتي سويسري. دعا للعودة إلى أصول الإصلاح وتعاليم الإنجيل.

(8) رينهولد نيبور (1892-1971) لاهوتي أمريكي كتب بشكل رئيسي عن الأخلاق وعن رفض المسيحية أن تسيطر على المشكلات الاجتماعية.

(9) هيلموت ريتشارد نيبور (1894-1962) لاهوتي امريكي اخلاقي والأخ الأصغر لرينهولد نيبور. تأثر بعمل كيركفارد وبارت. ويعتبر لاهوته مع زميل آخر له مصدراً رئيساً للاهوت ما بعد الليبرالي أو "مدرسة ييل".

(10) بول تيليك: (1886- 1965) لاهوتي بروتستانتي وفيلسوف امريكي من أصل الماني ادخل علم النفس والأفكار العلمية والاجتماعية والوجودية في نظامه.

(11) رودولف بلتمان (1884- 1976) لاهوتي الماني وجودي لوثري.

(12) ديتريتش بونهوفر (1906-1945) لاهوتي وفيلسوف بروتستانتي الماني واهتمت اعماله بالمسيحية في العصر الحديث اعدم لدوره في مؤامرة لاغتيال هتلر.

(13) هانز كونغ (1928-) لاهوتي سويسري من الروم الكاثوليكي. رفض القول بعصمة البابا.

(14) الروم الكاثوليك: تتميز هذه الكنيسة بالتراتب الكهنوتي. والبابا هو رأسها وتؤمن بالشعائر السبع وبسلطة التراث.

(15) الأميش: طائفة بروتستانتية تؤمن بتجديد العماد. انفصلت عن المينونايتس في أواخر القرن السابع عشر وبعضهم يرفض التعليم الحديث والتقانة.

(16) المينونايتس: طائفة بروتستانتية، تنسب إلى مينو سيمونز المصلح الهولندي يقبلون العماد للكبار لا للأطفال، ولهم شعيرتان: العماد، والعشاء الرباني.

(17) الكويكرز: أو الجمعية الدينية للأصدقاء. تأسست في إنجلترا في القرن السابع عشر. اعتقدوا أن الإنسان لا يحتاج لوسيط روحي ويكفيه "النور الداخلي". رفضوا المشاركة في خدمات كنيسة انجلترا، أو أن يقسموا القسم، أو أن يحملوا السلاح. اضطهدوا وهاجروا إلى أمريكا. وهم أقسام، وينشطون في التعليم، والرفاه الاجتماعي، ويؤمنون بالمساواة التامة.

(18) هكذا في الأصل، والمصطلح الإسلامي أن يقال القرآن الكريم والسنة النبوية. ولكن الكاتب يستخدم التعابير المتصلة بالإنجيل والتوراة.

(19) رو ضد ويد: قضية تتصل بالإجهاض. وقررت فيها المحكمة العليا الأمريكية ان الدولة قد لا تمنع الإجهاض في الشهور الست الأولى من الحمل. وأن الجنين ليس "شخصاً" يحميه الدستور. ولكن يحمي المراة من تدخل الدولة في قرار المراة أن تحمل أو لا تحمل. ولكن المحكمة رأت أن حق الإجهاض ليس مطلقاً وللدولة أن تنظمه لأسباب صحية.

(20) المورمون: أسس هذه الكنيسة جوزيف سميث في 1830. وتستند عقائدهم إلى الإنجيل، وكتاب المورمون وأقوال قادة الكنيسة.

(21) محاكمة "القرد" كانت في عام 1925. وفيها أحيل المدرس جون تي. سكوبس إلى المحاكمة لانتهاكه القانون الذي صدر ضد تعليم نظرية النشوء والارتقاء المبنية على تعاليم تشارلز داروِن.

(22) ستيفن جي غولد (1941-2000) كاتب أمريكي في علم الحفريات القديمة، وعلم الأحياء في النشوء والإرتقاء، ومؤرخ علوم. نشأ يهودياً ولكنه يفضل أن يوصف باللاأدري.

(23) برنامج تصحيحي يسمح بموجبه للسجناء بالتوظيف خارج السجن في أثناء قضاء مدة سجنهم.

(24) يأتي هذا التعبير من لعبة كرة القاعدة (البيسبول) ولكن المقصود هنا هو أن القانون في الولايات المتحدة يطلب من المحاكم أن تصدر أحكاماً بمدة سجن إلزامية أطول ضد الأشخاص الذين حكم عليهم بجرائم خطيرة في ثلاث مرات منفصلة أو اكثر. والسبب المبرر هو القول إن المكررين لارتكاب الجرائم لا يرجى إصلاحهم ويجب سجنهم من أجل السلامة العامة.

(25) هي منطقة في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة تضم ولايات الاباما، وجورجيا، ولويزيانا، وميسيسيبي، وكارولينا الجنوبية.

(26) كان قائد سلاح الطيران العراقي أو الدفاع الجوي في عهد صدام حسين قبل الغزو الأمريكي للعراق مباشرة.

(27) روب غولدبيرغ (1883-1970) رسام كاريكاتير ساخر وسياسي. وعرف عنه وضع رسوم معقدة غير عملية ليصل إلى تأدية عمل بسيط.

(28) وارن بيوفيت (1930-) مستثمر ورجل أعمال أمريكي يوصف بمعجزة أوماها أو حكيمها. وقد راكم ثروة ضخمة من خلال شركته بيركشاير هاثاواي التي يملك 38 بالمائة تعادل 42 بليون دولار. وهو حسب مجلة فوربس ثاني أغنى شخص في العالم بعد بيل غيتش رئيس مايكروسوفت.

* *

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET